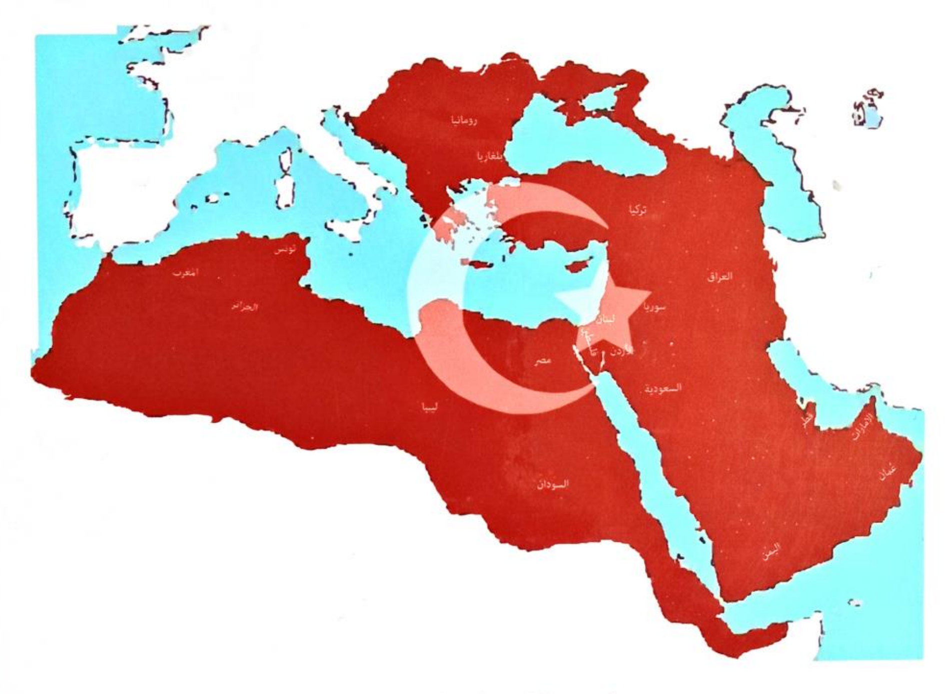
الاتجاهات الفكرية في الوطن العربي

بعد الخلافة العثمانية



عزت العزيزي





المؤلف

الدكتور عزت خليل العزيزي

مواليد عمان عام 1933

* بدأ دراسة الشريعة الإسلامية في جامعة الأزهر وتخرج بدرجة البكالوريوس من كلية الشريعة/ جامعة بغداد عام 1957.
* حاصل على الماجستير من جامعة الينوي.
والدكتوراة من جامعة بتسبرغ في الولايات المتحدة الأمريكية.
* عمل في حقل التعليم معلماً ومدير لكلية الحسين ومديراً للثقافة والتعليم في القوات المسلحة الأردنية ومديراً للمناهج في وزارة التربية والتعليم.
*انضم إلى جامعة اليرموك إدارياً وأكاديمياً من 1976 إلى 1986.
*عمل مستشاراً لوزير الصناعة والتجارة في الأردن.
* من أوائل المنضمين في حركة الإخوان المسلمين في الأردن عام 1949 وجمد نشاطه عام 1957.
* مؤسس لعدد من الأنشطة والجمعيات الإسلامية منها:
- حزب جبهة العمل الإسلامي
- جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية
- اللجنة المركزية لرعاية شؤون المساجد
-جمعية العروة الوثقى.
-جمعية الصالحين لتحفيظ القرآن الكريم.
- اللجنة الإسلامية لدعم العراق.
- اللجنة الإسلامية لمساعدة البوسنة.
- اللجنة الإسلامية لمساعدة ضحايا الزلازل في الباكستان
- جمعية الطلبة العرب والطلبة المسلمين بتسبرغ -الولايات المتحدة الأمريكية-
* مؤلف لعدد من المناهج الدراسية والكتب لمستوى التعليم الجامعي والعام في الأردن وفلسطين وعُمان واليمن.
* عدد كبير من المقالات في الصحف والدوريات الأردنية والعالمية



البريد الإلكتروني
warraqeen@yahoo.com
ص.ب
564 عمان 11953 الأردن

تلفاكس : 43 20 623 (02) 962+
خلوي : 15 34 709 8 (07) 962+
33 55 559 9 (07) 962+
65 81 788 7 (07) 962+



الطبعة الأولى

1441 هجري / 2019 ميلادي

المملكة الأردنيـــة الهاشميـــة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (324 /2019)

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او ي جهة حكومية أخرى

ISBN 978-9923-710-50-0 (ردمك)

الناشر: الصايل للنشر والتوزيع

تلفاكس: 6232043-9626+ خلوي: 5595533-96279+ ، 7888165-96277+

برد الكتروني: warraqeen@yahoo.com

ص. ب. 564 عمان 11953 - الأردن

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	9
الفصل الأول - الخلفية التاريخية لأنظمة الحكم في الوطن العربي	13
نظام الحكم العربي قبل الإسلام	13
تأثير الرواسب القبلية على نظام الحكم بعد الخلافة الراشدة	14
خصائص النظام السياسي الإسلامي	16
وضع الميثاق (الدستور) للأمة	16
التقيد بالشريعة	17
بناء المجتمع المدني	18
المواطنة والمساواة بين مكونات الأمة	18
الشورى	19
الكفاءة في اختيار المسؤولين	20
إتساع وامتداد حدود الأمة ضمن المباديء السابقة	22
صمود أمة الإسلام في وجه محاولات التقسيم	23
التحرك الاستعماري الحديث	25
قطع التواصل بين الأقطار الإسلامية	26
طمس الثقافة الإسلامية	27
الإتجاهات السياسية الرئيسة في الوطن العربي	30
الإتجاه القومي الإقليمي	30
الإتجاه الإسلامي	30
الفصل الثاني	
حركات الإصلاح والنهضة بعد زوال الخلافة العثمانية	31
جذور الحركات الإصلاحية	32
بدء ظهور الحركات الإصلاحية الحديثة	34
تكون التيار الإسلامي	39
حركات الإصلاح والنهضة والتحرير	41

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

الإتجاه القومي والإقليمي القطري؛ نشأته وأسسه 43
اختلاف نشأة النظم القومية العربية عن نشأة القوميات الاوروبية 43
التبعية لفلسفة الحكم لدى الغرب 51
أسس النظم القومية والإقليمية القطرية العربية 54
الأساس العقدي؛ نشأته في النهضة الاوروبية وأثر ذلك على العقيدة القومية ... 54
العقيدة القومية 55
فشل العقيدة القومية كبديل للعقيدة الدينية 56
الأساس السياسي وفلسفة نظام الحكم 58
القضاء على المواطنة الإسلامية 60
إبتداع إنتماءات غريبة 61
هدر الطاقة البشرية 63
العجز عن اتخاذ القرارات الصحيحة 64
الخلل الإجتماعي 65
التخبط الإقتصادي 69
تعطيل الموقع الاستراتيجي 71
الفشل في العلاقات الدولية 73
تعطيل مبدأ الشورى 80
تعطيل القوة العسكرية للأمة 80
استشراء الفساد 81
النتائج الكارثية للانقسام الإقليمي 82
فشل محاولات الإصلاح والتوحيد (تجربة جامعة الدول العربية) 83
الخلل الثقافي 87
فشل النظم التعليمية في الحفاظ على الوحدة الثقافية للأمة 92
فشل المؤسسات التعليمية في التطوير التقني والعلمي 99
اللغة العربية في ظل النظم القومية والاقليمية 100
التاريخ والتراث في ظل النظم القومية 102
تجربة الفكر اليساري 107
تسلط الإحباط واليأس على المخلصين 109

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع : نماذج من الدول القومية والإقليمية القطرية	111
أهم العناصر المساعدة على تحليل أوضاع النظم القومية والإقليمية	111
القوانين	111
الوحدة	112
القضية الفلسطينية	112
إستعراض وتحليل نماذج من الدول القومية والإقليمية	113
مصر	113
الاتجاهات الرئيسية في النظام المصري	115
الاتجاه الاسلامي	115
الاتجاه العروبي	115
الاتجاه القومي المصري	115
القوانين في ظل الحكم المصري	116
الوحدة في ظل الحكم المصري	117
القضية الفلسطينية في ظل الحكم المصري	120
سوريا..	123
لبنان	125
الاردن والعراق	126
دول الجزيرة العربية	129
دول المغرب العربي	132
فلسطين..	133
منظمة التحرير الفلسطينية	134
مهزلة الدولة الفلسطينية	136
الاتفاقيات الفلسطينية مع اليهود (اسرائيل)	137
جامعة الدول العربية	138
الفصل الخامس الحركات الإسلامية	141
المحاولات الدعوية الفردية	143
جمال الدين الافغاني	144
مصلحون آخرون	146
الصوفية	147
السلفية	149
موقف السلفية من القضية الفلسطينية	155
السلفية والوحدة العربية أو الإسلامية	155
السلفية والتشريعات	156

الموضوع	الصفحة
الإخوان المسلمون	157
مؤسس حركة الاخوان المسلمين - حسن البنا	159
العناصر المؤثرة في شخصية حسن البنا	160
أثرالأسرة	161
المشايخ والأساتذة	161
مهنة التعليم	161
الجماعات على اختلاف مبادئها..	162
الإخوان في مصر	163
المنهج التثقيفي التربوي لدى حركة الاخوان	166
القواعد الاساسية لبناء المجتمع والدولة لدى الحركة	170
رأي الحركة السياسي	174
الاخوان والتسلح	177
الدول الغربية الأوروبية والأمريكية ترفض جماعة الاخوان	178
الاخوان بعد اغتيال مؤسس الحركة	179
الالتقاء مع ضباط الجيش المصري	179
الخلاف بين الاخوان والضباط الانقلابيين	180
إيجابيات وسلبيات حركة الاخوان في مصر	185
تكرار الأخطاء	187
حركة الاخوان في الأردن	188
وضع النظام الاساسي	192
محاولة توسيع القاعدة السياسية للحركة الإسلامية	193
الاخوان والحركات الحزبية	194
الاخوان والمسألة الفلسطينية	195
عودة الإسلاميين للكفاح الفلسطيني	197
حزب جبهة العمل الاسلامي في الأردن	199
المشاركة في الانتخابات النيابية	202
خلاصة لما يمكن ان توصف به حركة الاخوان المسلمين في الاردن	205
انتقال الحركة من دعوية إلى ما هو أشمل	205
مزالق العمل السياسي	205
فشل الحزب كجبهة واسعة للاسلاميين	206
انعكاسات التفرد القيادي للحركة	206
مسؤولية حركة الاخوان عن التراجع الإسلامي	207
تأثر الحركة بوباء العنصرية	207
الحركة تنقسم	211
أوضاع جماعة الاخوان في الاقطار الأخرى	212

الموضوع	الصفحة
حزب التحرير	215
اجتهادات حزب التحرير في تفسير النصوص من القرآن والسنة	216
الحلول المقترحة	218
موضوع إقامة الخلافة الإسلامية	218
موضوع طلب النصرة	221
مقارنة بين مفاهيم الحركات الإسلامية وبين عصر النبوة	223
قبول الآخر	225
وحدة الأمة هي الاساس	226
مناهج الحركات بين القطعية والتبدل	227
ميادين العمل الإسلامي	228
الحركة الإسلامية في فلسطين	229
الخطر الخفي على حركات المقاومة الإسلامية	234
مسألة التطرف والارهاب	235
نماذج من ردود الفعل ضد قوى الظلم والعدوان	237
المثال الاول: فلسطين تحت الاحتلال البريطاني ثم اليهودي	237
المثال الثاني: شمال افريقيا تحت الاحتلال الفرنسي	239
المثال الثالث: اندونيسيا تحت الاحتلال الهولندي	240
المثال الرابع: مسلمي وسط آسيا والاحتلال الروسي	241
المثال الخامس: مسلموا الصين وميانمار (بورما)	241
المثال السادس: مذابح مسلمي البوسنة	242
العامل الثاني لنشأة التطرف: الحكم الفردي والاستبدادي	243
العامل الثالث للتطرف: خوف الأوروبيين من انتشار الإسلام	246
الختام ... وماذا بعد	249
بعد هذا كله ... ما هو المخرج ؟!	251

مقدمـة

لقد قامت النهضة الأوروبية المعاصرة على المبدأ القومي الذي ينظر إلى القوميات الأخرى بتعال وغالبا باستعداء وكراهية، واعتمدت من الناحية السياسية على أساس القضاء على النظم الملكية الديكتاتورية وإقامة نظم جمهورية أو حتى ملكية تعتمد النظام البرلماني، أما من الناحية الاقتصادية فعملت على القضاء على نظام الإقطاع وإعادة النظر في الملكية الزراعية وتحقيق تقدم علمي وتقني متسارع ساهم في النهضة الصناعية الأوروبية المعاصرة .

إلا أن ما يهم العالم الآخر فهو أن أوروبا الناهضة أضافت إلى دعائم نهضتها توجها استعماريا شرسا هدف إلى إخضاع معظم أقطار الأرض للهيمنة الأوروبية عن طريق الغزو العسكري واحتلال مناطق واسعة في آسيا وإفريقيا، وقد أصاب العالم الإسلامي القسط الأوفر من هذا الاحتلال.

ويمكننا الجزم بأن الغزو الأوروبي للبلاد الإسلامية عامة وللمنطقة العربية خاصة كان امتدادا للغزو الصليبي الذي رده المسلمون وطردوه من بيت المقدس وسائر المنطقة بعد ان احتلها لمائتي سنة .

لقد أيقن الأوروبيون أن سبب فشل الحرب الصليبية هو وحدة الأمة الإسلامية المتمثلة سياسيا وعسكريا بالخلافة، وأيقنوا كذلك أن عودة استعمارهم للمنطقة مرهون بنجاحهم في القضاء على الوحدة الإسلامية بجميع عناصرها؛ الثقافية؛ التي تقوم على العقيدة الإسلامية ، والسياسية والعسكرية؛ التي تقوم على الخلافة الإسلامية .

لقد استطاعت الصليبية الجديدة ان توجه الضربة الحاسمة التي عدوها قاضية على قوة الأمة الإسلامية بالقضاء على الخلافة العثمانية الوارثة للخلافة الإسلامية بعد انتصارهم في الحرب العالمية الأولى قبل مائة سنة، وقد أكد القائد البريطاني "الينبي" على أن انتصارهم الجديد انما هو الفصل الأخير من الحروب الصليبية إذ صرح عندما دخل القدس:(الآن انتهت الحروب الصليبية) وكذلك القائد الفرنسي "غورو" الذي كان أول ما

عمله عند دخوله دمشق توجهه إلى قبر صلاح الدين الأيوبي ونادى (لقد عدنا يا صلاح الدين).

لقد نتج عن هذا التغيير السياسي للأمة الإسلامية بعامة وللعالم العربي بخاصة قيام كيانات سياسيه جديدة صنعتها أوروبا المنتصره لاستكمال أهدافها في القضاء على الوحدة الإسلامية تمهيدا للقضاء على ما يمكن أن يؤدي إلى عودة المسلمين إلى النظام السياسي الإسلامي الذي كان السياج الحامي لوحدتهم و قوتهم و إمكانية وقوفهم في وجه الحملة الصليبية الجديدة و القضاء على جذورهذه الوحدة التي تشكل أكبر خطر في نظرهم على الحضارة الأوروبية وعلى قوتهم العسكرية و نفوذهم السياسي على الأقطار الإسلامية في آسيا وإفريقيا وأوروبا .

في ضوء ذلك كله فإن أي دارس أو محلل لأوضاع الأمة الإسلامية سواء من النواحي السياسية أو الاجتماعية بما في ذلك دراسة و تحليل واقع الحركات الإسلامية التي كان لها تأثير في تطور الأحداث في الأمة الإسلامية لابد له من دراسة الواقع الجديد للاقطار التي كانت بالأمس جزءاً من جسم الخلافة الإسلامية، ودراسة بروز الحركات والتنظيمات السياسية والدينية في هذه الأقطار، وسوف تقتصر هذه الدراسة على بعض الأقطار العربية كأنموذج لبقية الأقطار لاستحالة استيعابها جميعا في هذه المحاولة المحدودة.

وقبل أن نمضي في تحليل ودراسة الواقع المعاصر فانه لا بد لنا من الفهم العميق للخلفية التي تشكل القاعدة الفكرية والتاريخية للمجتمعات التي دخلت في الإسلام منذ فجر الرسالة قبل خمسة عشر قرنا، وبخاصة المجتمع الذي شكل الحاضنة الأولى لرسالة الإسلام وهو الوطن العربي، وبخاصة الخلفيات التي أثرت في البنية الاجتماعية و السياسية عبر التاريخ السياسي، والحركات التي أثرت فيه وما زال تأثيرها عبر التاريخ السياسي للحكم الإسلامي على اختلاف أسماء دوله ابتداءا من فترة الخلفاء الأربعة بعد رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ومرورا بالدول التي جاءت بعد ذلك ابتداءا من الدولة الأموية ثم العباسية وما أعقبها إلى الدولة العثمانية، التي انقلب نظام الحكم بعد زوالها

إلى الواقع العربي والإسلامي المعاصر الذي سنحاول فهمه وتحليله من خلال التفحص التاريخي لتطور نظم الحكم عبر هذه الفتره التي امتدت خمسة عشر قرنا منذ فجر الإسلام إلى زوال الخلافة الإسلامية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى عام الف وتسعمائة وثمانية عشر ميلادية.

لذلك فسوف تتضمن هذه المحاولة العناصر الرئيسية التالية :

- إستعراض تاريخي لتطور الدولة الإسلامية، ومقارنتها بالأوضاع السياسية التي نشأت في المنطقة العربية بعد تفكك الخلافة العثمانية، وما آلت إليه أوضاع المنطقة في ظل النظم السياسية التي تولدت بعدها، والأسس التي قامت عليها هذه النظم والنتائج التي ترتبت عليها.
- إستعراض عدد محدود من النظم المستحدثة في المنطقة العربية يمكن أن تعد نماذج، إذ أن هذه النظم تكاد تكون توائم لبعضها، وإن اختلفت عناوينها وألقاب قادتها.
- محاولة فهم وتحليل الحركات السياسية التي بدأت أواخر الدولة العثمانية وبعد ذلك في ظل النظم الجديدة والأسس التي اعتمدتها تلك الحركات التي شملت الحركات القومية والإقليمية والإسلامية، وبخاصة التي استمر وجودها وتأثيرها في المنطقة حتى الوقت الحاضر.

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن يوفقني ويعينني على تحري الحقيقة، فإن أحسنت وأصبت فمن فضله عز وجل وتوفيقه، وإن كان غير ذلك فمني وعلى قدر جهدي وفهمي، وإني أغدو شاكرا فضل كل من يرشدني وينصحني بما يراه خيرا.

الفصل الأول

الخلفية التاريخية لأنظمة الحكم في الوطن العربي

نظام الحكم العربي قبل الإسلام

لقد كان المجتمع العربي عند انبثاق الإسلام مجتمعا قبليا، وكان نظام الحكم فيه مرتبطا بالنظام القبلي، فكانت القبيلة الأقوى في المجتمع هي المسيطرة على سائر القبائل في حدود ذلك المجتمع، ورئيس القبيلة الأقوى هو الحاكم والمتصرف سواء في قبيلته أوفي القبائل الأخرى التابعة له في المنطقة التي يحكمها.

ولم تكن العلاقة بين القبائل المتعددة في المنطقة دائما علاقة قبول مطلق إلا بقدر ما تملك القبيلة المسيطرة من القوة والقدرة على التحكم بالمنطقة المحددة لها، وكذلك الأمر بالنسبة لزعيم القبيلة المسيطرة مع وجوه قبيلته وكبرائها، وبالتالي لم يكن في هذا النظام القبلي أي أساس لتغيير الرئيس الفرد أو القبيلة المسيطرة سوى على أساس القوة أو المنطقة لأي من الفرد أو القبيلة، ولم يكن ثمة أية قواعد تحكم العلاقة بين الأفراد في القبيلة أو بين القبائل المجتمعة سوى قاعدة القوة والقدرة على الإمساك بأسباب السيطرة سواءًا من حيث العدد أو القدرة الاقتصادية التي تمكن من يملكها من بسط النفوذ والسيطرة، أما من حيث النظام السائد فهو أيضا مرتبط بالنظام القبلي الذي تفرضه القبيلة المسيطرة أو الزعيم المسيطر، دون أي اعتبار لمباديء ثابتة منبثقة عن دين أو عن نظم وضعية معترف بها سوى ما تفرضه القبيلة والنظام القبلي.

وعلى الرغم من أن بعض المجتمعات المجاورة للمنطقة العربية قد تطورت فيها بعض النظم والقوانين والأعراف؛ منها ما هو مكتوب ومنها ما هو متعارف عليه مثل ما كان سائدا في الامبراطوريتين الفارسية والرومانية وغيرهما من المجتمعات القديمة، إلا أن المجتمع العربي القبلي لم يتأثر كثيرا بذلك، فقد كان المجتمع المكي الذي بعث فيه الإسلام في بدايته ثم المجتمع المدني الذي قامت به الدولة الإسلامية الأولى، كان كلاهما قبليا طالما قامت بداخلهما النزاعات والحروب بين القبائل كما كان يحدث بين قريش وجيرانها من القبائل في مكة وما حولها، وما كان بين القبيلتين الرئيستين في المدينة (يثرب سابقا) وهما الأوس والخزرج.

تأثير الرواسب القبلية على نظام الحكم بعد الخلافة الراشدة

لقد أطلق الإسلام على عصر ما قبل الرسالة اسم الجاهلية، ويشمل هذا الاصطلاح كل ما كان سائدا في ذلك العصر من قيم سواء ما كان في الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، ولم يخل واقع الحياة في المجتمع الإسلامي من ارتداد بعض عناصره إلى شيء من قيم الجاهلية، مثل عدم تقيد المرأة بالحشمة، إذ نهى القرآن النساء المسلمات عن مثل هذا السلوك؛ قال تعالى: "ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى" (الأحزاب 33). وفي مجال المعاملات المالية قال تعالى : "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله " (سورة البقرة 228–229).

أما على صعيد الحكم فقد كان اختيار الإشخاص على أساس السابقة في الإسلام والكفاءة والقدرة على تحمل المسؤولية دون أي اعتبار للصلات القبلية أو القرابة حتى مع رأس الدولة آنذاك.

وعلى الرغم من نهي الرسول عليه السلام الشديد عن الارتداد إلى العصبية الجاهلية في العلاقات بين فئات المجتمع إلا أن الدولة الإسلامية في أواخر عهد

الخلفاء الراشدين ثم في العهدين الأموي والعباسي عانت من عودة العصبية القبلية، واهتزت مباديء العدالة والشفافية في توزيع المسؤوليات وبخاصة السياسية العليا في الدولة، إلا أن هذا الانحراف لم يؤثر على المبدأ الأهم في الدولة الإسلامية وهو التمسك بالشريعة الذي كان العنصر الرئيس في بقاء الوحدة الإسلامية بين الأقطار الإسلامية حتى عندما تعددت فيها الدول والحكومات فلم يؤثر هذا التعدد على الوحدة السكانية ضمن إطار التمسك بالشريعة، ولم تستطع الخلافات السياسية بين الدول أو الحكومات المنبثقة عنها أن تهز الانتماء الإسلامي بين السكان وانفتاح جماهير الأمة الإسلامية على بعضها مهما تعددت أسماء دولها وشخصيات حكامها بل مهما اختلفت أصول شعوبها أو أعراقهم أو ألوانهم أو حتى لغاتهم.

وقد استمر تأثير هذه الوحدة الإسلامية بين شتى أقطار الإسلام أكثر من ألف وثلاثمائة عام، وصمدت هذه الوحدة على الرغم مما أصاب النظم في معظم الأقطار الإسلامية من هزات هائلة مثل الغزو الصليبي القادم من أوروبا غربا أو الغزو المغولي القادم من آسيا شرقا، واستطاعت الأمة الإسلامية أن تتجاوز تلك المصائب وبقيت الوحدة الإجتماعية والسكانية إلى أن تنبهت الدول الأوروبية إلى العنصر الإهم في تحطيم هذه القوة وتفكيك وحدتها وتماسكها بالقضاء على عنوان الوحدة الإسلامية وهي الخلافة الإسلامية، رمز الوحدة والتماسك بين أجزاء الأمة.

خصائص النظام السياسي الإسلامي

لقد عمد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم منذ وصوله إلى يثرب مهاجرا من مكة إلى إرساء قواعد جديدة للنظام السياسي، وفيما يلي أهم المباديء التي أرساها في المجمتع الجديد:

وضع الميثاق (الدستور) للأمة

من مسلتزمات هذا الأساس القائم على وثيقة المدينة التي تعد أول قانون عام (دستور) للدولة الجديدة، وأن ولاية هذه الدولة الجديدة وحدودها هو دستورها القائم على الشريعة، فأيما موقع دخل في نظام الأمة ودستورها أصبح جزءا منها مهما كانت جغرافيته وأيًا كانت صفة سكانه أو لونهم اوعرقهم.
ان هذا المبدأ هو الذي حدد معالم الأمة التي يمكن أن تضم أقطارا وعرقيات وأصولا إنسانية شتى مهما كانت الاختلافات التي كانت بينها قبل انتسابها لمفهوم الأمة الجديد. وقد تقبلت الشعوب المتعددة التي تكونت منها الأمة الإسلامية هذا الانتساب ضمن هذا المفهوم منذ عهد النبوة إلى زمن اسقاط الخلافة، وعلى الرغم انه خلال هذه الفترة التي امتدت اربعة عشر قرنا قد تعددت أسماء الدول والحكومات فيها وكانت بينها خلافات ونزاعات وحروب إلا أن مفهوم الانتماء للأمة لم يتاثر كثيرا بهذه الخلافات، وكانت الحدود بين مختلف المواقع والدول مفتوحة باستمرار، وكان المسلم ضمن دولة ما حراً في الانتقال إلى أي جزء آخر ضمن مفهوم الأمة الواسع حتى ولو كان بين دولته والدول الأخرى منازعات أو عدم اعتراف متبادل بينهم، فقد كان المسلم من اقصى الغرب في الأندلس حراً فى الانتقال حيث يشاء إلى أي منطقه في افريقيا أو غرب آسيا أو شرقها إلى أقصى مكان وجد فيه الإسلام ودخل ضمن مفهوم الأمة الإسلامية، ولم يكن انتماؤه لدولةٍ ما حائلا دون استقراره في أي صقع ضمن الأمة الإسلامية مهما كان أصله أو

لونه أو مكان ولادته، أو مكان معيشته أو علاقة ذاك المكان مع الموقع الجديد الذي اختاره لنفسه، ويصبح له في المكان الجديد كل الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها سكان تلك المنطقة، وقد يحتل أعلى المواقع الاجتماعية والعلمية والثقافية بل والسياسية دون أن يجرؤ أحد من مواطني تلك المنطقة على توجيه أي انتقاص له لاصله الذي قد يبعد آلاف الاميال عن موقعه. ورأينا علماء في الشريعة والعلوم المختلفة الأخرى أندلسيين أو مغاربة في بلاد الشام والجزيرة وبلاد فارس ووسط آسيا وشرقها إلى الصين وإندونيسيا وكذالك من تلك المناطق الشرقية إلى أصقاع وسط آسيا وغربها، وتخوم أوروبا والمغرب وإفريقيا وغيرها.

التقيد بالشريعة

وهو ما يطلق عليه في الاصطلاح المعاصر دستورية الدولة. إن سيادة هذا المبدأ تبعد تحكم الفرد مهما كان موقعه أو منصبه في الدولة من إخضاعها لإرادته وهواه، وبهذا ينأى بالدولة عن الدكاتورية وحكم الفرد الذي تعاني منه كثير من الدول اليوم وبخاصة في البلاد العربية والإسلامية التي يسود فيها حكم الفرد الذي لا يقيده دستور ولا يقف في وجه دكتاتوريته تشريع ولا قانون.
وقد وردت عدة آيات في القرآن الكريم تؤكد على هذا المبدأ وتحذر من مخالفته؛ أكتفي ببعض هذه النصوص؛ قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿النساء-60﴾ وقوله تعالى: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿النساء-65﴾، وقوله تعالى: وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، والظالمون، والفاسقون، وقوله تعالى فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴿المائدة 44 و45 و47 و48﴾

بناء المجتمع المدني

الإعلان عن ولادة المجتمع الحضاري أو كما سماه المدني، بالغاء الاسم القديم للعاصمة يثرب مطلقا اسما ينبع من أساس التحضر وهو المدينة، على أساس أن المجتمع المدني هو البيئه القادرة على نشر التعليم الضروري لتطور الانسان وتقدمه وتوجهه إلى الالتزام بالشريعة والنظم الحضارية وتبعده عن مجتمع البداوة الذي لا يساعده على اكتساب المعرفة والذي يضعف انتماءه الى المجتمع الجديد الذي يوسع من دائرة قبوله للغير خارج الإطار القبلي القديم وقد وجه القرآن الكريم نقدا قاسيا للذين يختارون الحياة التى تحول بين الافراد وبين المؤسسات الدينية التي تسهم في تعليمهم وتحضيرهم قال تعالى: الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم (سورة التوبة 97). وأكد القرآن الكريم أن الابتعاد عن مواقع العمران والحضارة يحول بين المبتعدين وبين مساهمتهم في حماية الدولة هربا من تبعات الجهاد والدفاع ضد اعداء الأمة قال تعالى عن امثالهم: "وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانو فيكم ما قاتلوا إلا قليلا" (سورة الأحزاب 20).

المواطنة والمساواة بين مكونات الأمة

وضع الرسول صلى الله عليه وسلم قواعد وأسساً ثابتة للدولة الحديثة قائمة على مبدأ المواطنة والانتساب للأمة من قبل جميع المكونات السكانية للدولة دون النظر إلى الاختلافات الاسرية أو القبلية أو حتى الدينية من خلال الوثيقة التي أعلنها الرسول عليه الصلاة والسلام بعد استقراره مباشرة في المدينة، ونصت الوثيقة صراحة على تكون الأمة الجديدة ومن ضمنها الأقلية اليهودية التي كانت تعيش في المدينة، والاعتراف بالعناصر المتعددة للعرقيات المختلفة التي دخلت في الإسلام دون أي انتقاص من حقوقهم في المجتمع والدولةبصرف النظر عن

خلفياتهم التي كانت تنزل من مرتبتهم في المجتمع والنظام القبلي، مثل العبيد المملوكين للسادة أو ذوى الأصول غير العربية كالفرس أو الروم أو الافارقة، لذا نقرأ في تاريخ الدولة الإسلامية أسماء كانت لها منزلة عظيمة في الدولة الإسلامية مثل صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي وزيد بن حارثة الذي كان مملوكا وحرره رسول الله وتولى مواقع قيادية عليا في الدولة. ولم يهمل مبدأ المواطنة ذوى الإعاقات الصعبة من تولي أرفع المناصب فقد عين الأعمى عبد الله ابن أم مكتوم حاكما للدولة في غياب رسول الله عنها أحيانا واختير عدد من أبناء القبائل التي كانت في مرتبة أدنى لمهام السفارة ورئاسة الوفود في عهد الرسول والخلفاء الراشدين من بعده.

الشورى

على الرغم من أن الدولة الإسلامية الأولى تأسست على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الموحى إليه المعصوم من المخالفة لما أوحي إليه من ربه سبحانه وتعالى فقد وجهه الله بصراحة إلى التزامه في حكمه ورعايته للأمة بأن يجعل الشورى منهجه الثابت في علاقته بامته؛ قال تعالى: "وشاورهم في الأمر" (آل عمران 159) ووصف الأمة الإسلامية بانها أمة ملتزمة بمبدأ تطبيق الشورى في جميع امورها دون أي قيد يلغي أو يحد من سيادة مبدأ الشورى، وخصص القرآن الكريم سورة تضمنت هذا المبدأ فقال تعالى في وصف الأمة: وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (الشورى 38).

إن سيادة هذا المبدأ يقطع الطريق على أي حاكم أو مسؤول مهما كان اسم موقعه في الدولة أو وظيفته أن يتصرف بمعزل عن إرادة الأكثرية من أفراد الأمة، ولا أحسب أن أي نظام يدعي الديموقراطية يصل إلى هذا المستوى في البعد عن الدكتاتورية أو الحكم الفردي أو الأسري.

الكفاءة في اختيار المسؤولين

ينبثق هذا المبدأ من كون التنظيم في المجمتع الإسلامي فريضة لا يجوز اهمالها مهما كان عدد الناس في المجتمع، فقد أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أي مجموعة من المسلمين ان يختاروا مسؤولا عنهم، ولو كانوا ثلاثة نفر فقال عليه السلام: لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الارض إلا أمروا عليهم أحدهم (نيل الاوطار ج 8 ص255 من مسند احمد) إن هذا الحديث أصل هام في نظام الحكم في الإسلام من ناحيتين؛ وجوب قيام المسؤولية ووجوب قيامها على أساس الاختيار الحر وليس على أساس التسلط وحكم الفرد، وضمن هذا الأساس تأكد في الإسلام مبدأ وضع المسؤول ليس بناء على رغبته وحرصه على السيطرة، وأن المسؤول الأول مثل رئيس الدولة لا يحق له تولية المسؤولية للذين يطلبونها إذ أن ذلك غالبا ما يكون مدخلا للفساد؛ وفي الحديث الشريف: إنا والله لا نولي هذا الأمر أحداً يسأله أو أحداً حرص عليه (نيل الاوطار ج 8 ص 256) وقد حرص النظام الإسلامي أيضا على عدم تأثر المسؤول بالقرابة أو الصلة الأسرية أو القبلية في اختياره للمناصب، وقد فهم أصحاب الرسول ذلك، فقد جاء العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي ابن عم الرسول وزوج ابنته وقال له: انطلق بنا إلى رسول الله فإن كان هذا الامر فينا عرفناه، وإن كان في غيرنا سألناه فأوصى بنا الناس، فقال له علي: لا أفعل والله لئن منعناه لا يؤتيناه أحد بعده (سيرة بن هشام ج4 ص304).

ومن أهم القواعد في اختيار الموظفين في النظام الإسلامي عدم ارتباط الإختيار بغير الكفاءة للوظيفة بصرف النظر عن قوة تمسك الفرد بالواجبات الدينية كالصلاة وغيرها فإن هذه الواجبات إنما هي لتحسين صلة الانسان بربه، ولا تؤهله لتولي المناصب، ومن أوضح الدلالة على ذالك أن أبا ذر كان من اشد الصحابة تمسكاً بالدين والتزاما بواجباته وعندما طلب من الرسول أن يعيَنه في موقع

مسؤولية في الدولة؛ قال له: يا أبا ذر اِني أراك ضعيفاً، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة (نيل الاوطار ج8 ص264). والضعف الذي عناه الرسول هو ضعفه عن تحمل المسؤولية مع أن الرسول أثنى على أبي ذر كمسلم صادق ملتزم، وعندما عجز بعيره عن اللحاق بجيش تبوك تركه وأسرع ماشياً حتى لحق بالجيش فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:رحم الله أبا ذر يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده (سيرة إبن هشام ج4 ص167). وقال فيه أيضا: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر (الجامع الصغير ص260). ومع ذلك لم يوافق رسول الله صلى الله عليه وسلم على تعيينه في أي وظيفة رسمية، وقد أعلن الرسول أن قوله تعالى: اِن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، يعني تحريم التجاوز في توزيع المسؤوليات على غير المستحقين لها، ففي غمرة فتح مكة ونشوة المسلمين بالفتح طلب العباس من الرسول أن يمنحه وظيفة شرفية هي سدانة الكعبة التي كانت منذ الجاهلية في يد بني شيبة فكان رد الرسول بقول الله عز وجل إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وقال: اين عثمان بن طلحة فدعي، فقال له الرسول هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء (سيرة ابن هشام ج4 ص55). وقد أكد الرسول على التقيد بمبدأ الكفاءة في توزيع الوظائف وأن عدم التقيد بذلك يعد خيانة مضاعفة فقال عليه الصلاة والسلام: من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلا وهو يجد في المسلمين من هو أصلح منه فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين (رواه الحاكم). وقد تمسك الخلفاء الراشدون بهذا المبدأ وطبقوه فعن عمر بن الخطاب: من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين.

ولا شك أن من أسباب النجاح الباهر للدولة الإسلامية سواء في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم في عهد الخلفاء الراشدين وشمولها بلاداً شاسعة متجاوزة الجزيرة العربية إلى شرق ووسط آسيا وافريقيا، إنما كان هذا النجاح بالتقيد بهذا المبدأ سواء في المناصب السياسية أو العسكرية أو المالية، مع الابتعاد عن التأثر

بالعصبيات القبلية أو العرقية، حتى إن غير المسلمين مثل الغساسنة الذين بقوا على مسيحيتهم، ساهموا في الدفاع عن الدولة الإسلامية وبناء مؤسساتها عندما رأوا سيادة مبدأ العدالة وبراءة الدولة الإسلامية من التعصب العنصري الذي كان سائداً في دولتي الروم والفرس.

اتساع وامتداد حدود الأمة ضمن المبادىء السابقة

لقد تكونت الدولة الإسلامية ضمن هذه المبادئ في بداية عصر النبوة في الجزيرة العربية، ولم ينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى إلا وقد دخلت الجزيرة العربية كلها من أقصى جنوب اليمن إلى شرقها على الخليج، إلى شمالها على تخوم الشام، كلها في طاعة الدولة، مع بدء العمل على ضم المناطق لها في الدولتين الاعظم آنذاك؛ مملكتي فارس والروم وشمال إفريقيا بداية بمصر، ووصل مبعوث النبي في حياته إلى جميع رؤساء تلك الدول لدعوتهم للانضمام للأمة الإسلامية، على الرغم من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غادر الدنيا ملتحقا بربه في السنة الحادية عشرة من هجرته ومن قيام الدولة الإسلامية.

وقد نجح الإسلام دينا وثقافة ولغة على الامتداد السريع خارج حدود الجزيرة العربية، فقد دخلت بلاد فارس (شرق الجزيرة) وجنوب دولة الروم (شمال الجزيرة) ومصر وما يليها من السودان وشمال افريقيا، كل هذه المناطق دخلت في الدولة الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين الذين لم يتجاوز عهدهم ثلاثين سنة، وخلال المائة والخمسين سنة فقط بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم امتدت حدود الإسلام دينا وثقافة وحكما خلال الدولة الأموية ثم الدولة العباسية حتى شملت اقطارا وسط آسيا، وحدود الصين والهند شرقا وكل الشمال الافريقي وغرب أوروبا إلى الأندلس غربا ووسط إفريقيا غربا وجنوبا. وكاد المسلمون يفتحون أوروبا من غربها، ولو انتصر المسلمون في معركة بواتييه (بلاط الشهداء) سنة 114 للهجرة

على الفرنسيين لدخلت فرنسا وسائر أوروبا من ذلك الوقت في الإسلام، ولأصبحت اللغة العربية لغة أوروبا كلها.

صمود أُمة الإسلام في وجه محاولات التقسيم

على الرغم من حالة ضعف الدولة المركزية بعد ما يزيد على خمسمائة عام من قيام الدولة الإسلامية الأولى، وما صاحب هذا الوضع من ضعف القوة العسكرية، فقد استطاعت الأمة أن تتصدى لغزوتين عنيفتين واحدة من الشمال والغرب تحت علم الصليبية وأخرى من الشرق من قبل المغول، ومع أن الحمله الصليبيه استطاعت أن تحتل مواقع في بيت المقدس وما حوله لأكثر من مائتى سنة، إلا أنها ردت على أعقباها بعد ذلك. أما الحملة المغوليه فقد استطاع الإسلام أن يستوعبها بعد المعركة الأولى والأخيرة التي انهزم فيها المغول في عين جالوت وتحول الجيل الاول بعد قادة الغزو المغولى إلى الإسلام، ثم أصبحو قوة فاعله ساهمت في توسيع دائره الأمة الإسلامية. ولا شك أن قدرة الأمة على التعافي من آثار الهزيمتين إنما كان بفعل قوة العقيدة وعمق أصالة الدين في الأمة التي هزمت أعتى القوى العسكرية آنذاك هزيمة عقيدة وثقافة وشريعة لا هزيمة عسكرية فحسب.

إن خصائص رسالة الإسلام وهو الدين الخاتم لكل الأديان السماوية التي سبقته، قد زودت هذا الدين بقدرات عجيبة على تجديد الذات، وتجاوز كل المحن بشكل مستمر لا يتوقف ابداً منذ انتهت فترة النبوة، وكان التجديد والتصحيح لمسار الرساله شاملاً لجميع جوانبها وتفرعاتها في كل مناحي الحياة.

فكان التجديد في مجال الفهم العميق والواسع في أمور العبادات والمعاملات والاخلاق إلى جانب الحكم والسياسة، فكان المجتمع الإسلامي يفرز من داخله الفقهاء والعلماء في سائر مناحي العلوم الكونية والقادة السياسيين والقادة

العسكريين والمنظرين في كل ما يهم الأمة ويصلح من شأنها ويقيم أي عوج أو انحراف تعرضت له، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (رواه البيهقي من صحيح الجامع الصغير للسيوطي).

لقد برز قادة سياسيون جمع كثير منهم إلى جانب قدراته السياسية العلم الشرعي والالتزام الاخلاقي. وفي أوقات الازمات الخطيرة التي كانت تنزل بالأمة مثل الاجتياح المغولى والغزو الصليبي كان يلتقي قادة الفكر والتنظير مع القادة السياسيين والعسكريين، وينتج عن مثل هذا التكامل والتفاعل انتصارات تاريخيةحاسمة غيرت مسارتاريخ الأمة، وما زالت عبر مئات السنين علامات فارقة ومضيئة وملهمة للأمة وبخاصة في الأزمات المشابهة التي تنزل بها .

التحرك الاستعماري الحديث

لم تستسلم الدول المسيحية في أوروبا لنتائج فشل الحملات الصليبية في السيطرة على الأمة الإسلامية، ونشطت عدة مصادر مسيحية في البحث عن سبل إعادة السيطرة على الكيان الإسلامي، وكانت أهم تلك المصادر:

أ- الكنيسة؛ التي قادت حركة التنصير بإخراج المسلم أولا عن دينه ومن ثم إدخاله في المسيحية.

ب-الاستشراق؛ وتولت الجامعات ومؤسسات البحث من خلال هذه الحركه دراسة واقع المسلمين، لاكتشاف أنجح السبل لهزيمة الإسلام في وطنه تمهيداً لتمزيق وحدته والسيطرة عليه.

ج- القيادات السياسيه للدول المسيحية التي مافتئت تسخر كل ما تستطيع تجنيده لإعادة فرض سيطرتها العسكرية ومن ثم السياسية على أوطان المسلمين .

لقد سخرت حركة التنصير التعليم والطب، فأنشأت المدارس والجامعات والمؤسسات الطبية في معظم البلاد الإسلامية، إلا أنها لم تنجح في إدخال الأعداد التي كانوا يأملون بادخالها إلى المسيحية، بل إن كثيرا ممن درسوا في مؤسساتهم التعليمية، أو عولجوا في مؤسساتهم الطبية أصبحوا دعاة أقوياء للعودة إلى الإسلام ومقاومة التنصير،إلا أن بعض المؤسسات نجحت في تربية بعض التلاميذ على الخروج على الأنظمة الإسلامية وأصبحوا أداة هادمة (جب، مستقبل الإسلام؛ ص 38).

أما حركة الاستشراق فإنها على الرغم من زعمها أنها موضوعية تسعى لدراسة الواقع الإسلامي، إلا أنها كانت في الواقع ذراعا لحركة التنصير من ناحيه وذراعا للقوى الاستعمارية من الناحية الأخرى، ولم تخل الدراسات الاستشراقية من الموضوعية والحياد في دراستهم للأسلام، ومنهم من أثنى على الإسلام من نواح معينه، وبلغ ببعض الدارسين الغربيين الإعجاب بالإسلام لدرجة التحول إليه وترك

دينه أمثال ليوبولد فايس الذي ألف كتاب "الطريق إلى مكة" بعد إسلامه ومثل جارودي وغيرهما، إلا أنه يهمنا في هذه الدراسة كشف أساليب المستشرقين في خدمة القوى الاستعمارية والتبشيرية للسيطرة على الأمة الإسلامية فكريا وثقافيا ومن ثم سياسيا.

وسأورد فيما يلي مثلا مما توصل اليه المستشرقون في هذا المجال من أحد أبرزهم وهو المستشرق جب في كتابه مستقبل الإسلام الذي اشترك جب مع عدد من المستشرقين في تأليفة لتحليل واقع المسلمين ووضع اليد على أنجح الطرق لتغيير هذا الواقع لمصلحة الغرب وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية محمد عبد الهادي ابو ريدة ومن أبرز ما جاء فيه:

قطع التواصل بين الأقطار الإسلامية

وجد هؤلاء المستشرقون أن من أهم أسباب صمود الإسلام في وجه القوى المعاديه له هو قوة الاختلاط بين الشعوب الإسلامية على مدى التاريخ الطويل لهذه الشعوب وان الحج أقوى عامل في توثيق هذا الاختلاط، وان المسلمين في مجموعهم، كانوا يشعرون بما بينهم من قربى، وقد أثر ذلك في حياتهم الاجتماعيه، فالمسلم في مراكش في المغرب يحس في الهند أو جاوة كأنه في مراكش سواء بسواء وله الحق أن يغدو ويروح ويتزوج ويقيم كما يشاء لأن دار الإسلام كلها وطنه. (ص 13–15) ومن أجل محاربة هذه الوحدة بين الشعوب الإسلامية وضعت القوى الاستعماريه نصب عينيها فك هذه الوحدة المتمثله في الخلافة الإسلامية، ووضعت لهذا الهدف عناوين شتى مثل القضاء على الرجل المريض، وتقسيم تركته، وإحلال الدويلات على أسس قومية أو عنصرية أو جغرافية أو أي عنوان يمكن اختراعه ليحل مكان الدولة الواحدة الموحدة لهذه الشعوب المختلفة الأعراق والأصول الممتدة في القارات الثلاث آسيا وافريقيا واوربا.

طمس الثقافة الإسلامية

لقد عملت قوة الثقافة الإسلامية على إضعاف الثقافات الموروثة بل على محوها، حتى لقد نسي الناس في كل الأقطار تقريباً ما كان لهم من ماض قبل الإسلام، نسي المصريون فراعنتهم، ونسي الأتراك خواقينهم، لقد أوجدت الثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي كله ثقافه وتقاليد متينة التماسك، وبدت تلك المتانة في شيوع الكتابة العربية، وتجلت هذه الوحدة في فكرة دار جامعة هي دار الإسلام. (جب ص 13-15)

ومن أجل فك الشعوب الإسلامية عن توحدها في ظل الثقافة الإسلامية عملت القوى الاستعمارية على إيقاظ الثقافات الخاصة لكل شعب من الشعوب الإسلامية عن طريق الدعاية للقومية الخاصة بكل شعب مثل بعث الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام، والحثيه والكردية والمجوسية في العراق، والتركمانية في تركيا وهكذا في كل منطقه، ومن أجل التمكين لهذا التوجه أرست القوى الغربية في كل منطقة متاحف لبعث الثقافة الإقليمية والقطرية، فأقيم المتحف المصري الفرعوني والمتحف العراقي والمتحف الفلسطيني وهكذا.

إن الوحدة الثقافية والاجتماعية أنتجتا دولة الخلافة على مدى العصور وقال السلطان عبد الحميد: إننا نعتبر أنفسنا مسلمين قبل أن نكون عثمانيين (مذكرات السلطان عبد الحميد ص 177).

لقد رسخت الثقافة الإسلامية الوحدة الإسلامية، وجعلت الدولة الإسلامية قوة عالمية لا يسهل التغلب عليها، فكان لا بد من تنوع محاولات الغرب لهزيمة الوحدة الاجتماعية والثقافية، للوصول إلى السيطرة عسكرياً وسياسياً عن طريق هزيمة رمز القوة العسكرية والسياسية وهي الخلافة الإسلامية المتمثله بالخلافة العثمانية، وقد عمدت القوى الأوروبية إلى وسيلتين هامتين لتفتيت هذه الدولة؛ الأولى اقامة حركة قومية عنيفة ساهمت في النيل من الخلافة نفسها عن طريق

تأسيس حزب تركيا الفتاة ثم حركة الاتحاد والترقي القائمتين على بعث القومية التركمانية، وقد انتقلت هذه العدوى القومية إلى أهم شعب من شعوب دولة الخلافة العثمانية وهو الشعب العربي فتأسست فيه أحزاب وحركات مثل العربية الفتاة ثم الأحزاب القومية العربية، وتبعتها إقامة تكتلات قومية وإقليمية في الوطن العربي لغير العرب مثل البربر في شمال إفريقيا والأكراد في العراق بعد أن كانت تلك القوميات العنصرية راضية من قبل في انتمائها للأمة الإسلامية ولها مساهمات لا يمكن إنكارها في بناء الحضارة والثقافة القائمتين على الإسلام.

وإن المتتبع لبروز هذه الحركات القومية والعنصرية لا يخفى عليه أصابع الغرب المسيحي في نشأتها، ومن ثم في تقويتها وسيطرتها وكذلك الأصابع اليهوديه، وقد ثبتت صلة الحركة الكمالية بقيادة مصطفى كمال باليهودية فقد كان الذي أبلغ السلطان عبد الحميد خلعه تمهيدا لإلغاء الخلافة هو اليهودي قره صو، وأن مصطفى كمال نفسه كان على صلة باليهود فقد كانت اجتماعات الكماليين قبل سيطرتهم على الحكم تعقد في بيوت اليهود المنتمين للجنسية الايطالية والجمعيات الماسونية، وعندما شكل مصطفى كمال حكومته، كان وزير ماليته بافيد يهودياً وكانت وزيرة المعارف خالدة أديب من أصل يهودي، وإلى جانب ذلك ركب مصطفى كمال مبدأ الطورانية التركية القديمة قبل الإسلام وجعل شعار الدولة الذئب الأغبر وصوروه على طوابع البريد وهو الوثن التركي قبل دخول الأتراك في الإسلام واسمه عندهم (بوزقورت) (الاتجاهات الوطنيه في الادب المعاصر؛ محمد محمد حسين ص 62-68).

وانتهز الغرب المسيحي انتصاره على دول المحور في الحرب العالمية الأولى وكانت الدولة العثمانية من ضمن تلك الدول فعمدوا إلى اطلاق الرصاصة القاضية على الخلافة العثمانية .

وفي الواقع كانت نية الغرب المسيحي في القضاء على الخلافة سابقة لهزيمة ألمانيا وحلفائها في الحرب؛ ولم تتوقف مؤامرات الغرب على الأمة الإسلامية

منذ فشل الحملات الصليبية، وكانت إتفاقية سايكس وبيكو البريطانية الفرنسية (1916) آخر مؤامراتها لتمزيق الدولة والأمة الإسلامية.

وهكذا أعلن العرب قيام الثورة العربية على الدولة العثمانية، واستطاع الانجليز بمكرهم استغلال الشريف حسين بن علي أثناء الحرب العالمية الأولى واستمالته وتجنيده مع القوى العربية التى كان يتزعمها للتخلي عن ارتباطهم بالدولة العثمانية بعد أن صدقوا بوعود انجلترا بمنح الشريف حسين عرش الأمة العربية التي كانت تشمل حسب وعودهم الجزيرة العربية ومنطقة بلاد الشام والعراق، على الرغم من أنهم كانو قد قرروا في اتفاقية سايكس وبيكو على تقسيم المنطقة بالإضافة إلى مصر وشمال إفريقيا بين الإنجليز والفرنسيين، مع سلخ قلب المنطقة؛ فلسطين لتحويلها إلى وطن قومي لليهود، وتقسيم بقية المنطقة إلى دويلات لا يعدو عدد سكان بعضها سكان حي في مدينة صغيرة بحيث لا تقوى أي منها للدفاع عن وجودها فضلا عن التصدى للمؤامرات الدولية الخبيثة على الأمة .

إن هذه الاحداث الثلاثة الخطيرة في عامي (1916 و1917) وهي إعلان الثورة العربية الكبرى على الدولة العثمانية واتفاقية سايكس بيكو عام 1916، ووعد بلفور 1917 أدت إلى تقبل الساسة العرب بشكل عام التخلى عن نظام الخلافة الإسلامية التي كانت تجمع معظم أرجاء الوطن الإسلامي في دولة واحدة وقبول مبدأ تقسيم هذه التركة إلى دول متعددة.

ومع ان عدداً من المفكرين والنخب السياسية والعلمية والثقافية في البلاد الإسلامية لم تكن كلها على رأي واحد في تلك الأحداث، وبقيت اعداد من تلك النخب على إيمانها بمبدأ الخلافة الإسلامية، واعداد اخرى منها اتجهت إلى البديل القومي ودعت إلى قيام دولة عربية في الجزء العربي من أرض الخلافة وبرزت جماعات اخرى تبنت فكرة قيام دول متعددة لاهي موحدة إسلامياً ولا عربياً ونتيجة لوقوع الوطن العربي من مغربه إلى مشرقه تحت الاحتلال الأوروبي فقد تمكنت النظم

السياسية في ظل الحماية الاستعمارية لأن تصبح القوة السياسية الواقعية في الوطن العربي.

الاتجاهات السياسية الرئيسة في الوطن العربي

لقد تمخضت تلك الاحداث عن اتجاهات سياسية لكل منها طابعها الاجتماعي والثقافي وأبرزها إتجاهان رئيسان:

- **الاتجاه القومي والإقليمي القطري**
- **الاتجاه الإسلامي**

وسوف تعنى هذه المحاولة بدراسة هذين الاتجاهين ونتائج وجودهما على الوطن العربي بخاصة وعلى الأمة الإسلامية بعامة.

لقد نشأ من خلال كل من هذين الاتجاهين حركات ذات أبعاد مختلفة ومتنوعة حسب ارتباطها في أي من الاتجاهين، وقبولها أو رفضها للمرتكزات التي اعتمدت في الإتجاه الذي تميل إليه أو الذي ترفضه وتبتعد عنه.

وأحب أن اؤكد أن هذه المحاولة لا تهدف إلى الدفاع عن أي منهما أو إلى إدانته، وانما أترك ذلك للقارىء في ضوء الواقع وفي ضوء خلفيته الفكرية وقناعاته والتحليل الموضوعي لاختياره.

الفصل الثاني

حركات الإصلاح والنهضة بعد زوال الخلافة العثمانية

يجدر بنا قبل الخوض في تحليل كل من هذه الإتجاهات أن نلقي الضوء على واقع الأمة في بداية القرن العشرين؛ أي فترة تفكك الخلافة العثمانية، ومن ثم زوالها ونشأة الدول المتعددة خلفا لها وفي موقعها.

في ضوء التحليل السابق لأحوال الأمة الإسلامية بعامة، والشعوب العربية بخاصة، نستطيع أن نتبين بروز عدد من الإتجاهات الإصلاحية في العالم الإسلامي ومنه الشعوب العربية.

وقد يكون من الصعب التعرف الدقيق على هذه الاتجاهات في ضوء انتشار تعصب أنصار كل منها ومحاولته باستمرار إبراز إيجابيات معسكرهم والتغطية على سلبياته، مع حرص كل منهم على إبراز سلبيات مخالفيهم من التوجهات الأخرى والتغطية على إيجابياته وحسناته ما أمكنهم ذلك، وعلى الرغم من بروز عدد من الدارسين المحايدين لهذه الفترة ومحاولتهم الإضفاء على دراستهم قدراً من الموضوعية والحياد بين مختلف الاتجاهات، إلا أنه لم يسلم أي منهم من الميل إلى أحد هذه الاتجاهات تبعا لخلفيته الفكرية والعقدية مما يزيد من صعوبة الوصول إلى الحقائق ويجعل من الصعب الوثوق المطلق بأحكامه واستنتاجاته.

من هذا المنطلق فأنني سأحاول ما وسعني من الجهد والحيادية ان أستعرض أبرز هذه الاتجاهات، مع التركيز على نشأتها وتطورها دون إصدار الأحكام تاركاً ذلك للقارىء مرتكزا على خلفيته وقناعاته وفهمه لنشأة كل إتجاه وواقعه ونتائج نجاحاته أو فشله على الساحة الإجتماعية والسياسية في مواطن وجوده.

ونظرا لما اصاب معظم هذه الإتجاهات من إنقسامات عن أصل كل منها فقد يكون من الصعب شمولها كلها بتفرعاتها بهذه المحاولة، لذا سأكتفي بالوقوف على الحركات الرئيسة للمحاولات النهضوية والإصلاحية المعاصرة في الوطن العربي.

جذور الحركات الإصلاحية

منذ فجر الإسلام وبعدما نشأ نظام الحكم الذي نأى بالمجتمع العربي عن النظام القبلي إلى نظام الدولة، لم تفتأ المحاولات الإصلاحية الممثلة لعديد من وجهات النظر المتقاربة أحياناً والمتمايزة عن بعضها في كثير من الأحيان على الرغم من تلبسها بأطر فلسفية وفكرية،إلا أنها في معظمها كانت ضمن إطار فكري (أيديولوجي) واحد لا يتجاوز الدين الإسلامي.
ولم تكن تلك الحركات تعنى بالمبادىء الاساسية للحياة الاجتماعية وإنما كان جل توجهها للأوضاع السياسية وأنظمة الحكم السائدة في المجتمع.
ومن المعلوم أنه بعد انقضاء فترة الخلافة الراشدة التي امتدت ثلاثة عقود فحسب، سيطرت منذ ذلك الوقت أنظمة حكم وراثي يعتمد على سيطرة الأسرة على مقاليد الحكم، وامتد هذا النمط من الحكم خمسة قرون تقريباً.
ومعلوم أنه في أواخر الدولة العباسية بدأت سيطرة أفراد من حواشي الحكم ورجالاته على السلطة الفعلية للدولة مع الاحتفاظ بالخليفة رمزاً سياسياً يملك ولا يحكم، وقد يكون ذلك أقرب إلى النظام السياسي السائد اليوم في كثير من الدول سواء في ظل النظم الملكية أو الجمهورية حيث يتمتع الملك أو الرئيس بمنزلة بروتوكولية في المناسبات بينما رئيس الوزراء هو الذي يسير أمور الدولة والحكم.
وكان يتداول على الحكم من قبل الطبقة المسيطرة بالفعل عناصر شتى منتمية للمجتمع الاكبر، وكان كثير منهم من المماليك الذين خدموا في بداية الأمر حراساً

للخليفة ولأسرته، وتلقبوا بألقاب دالة على السيطرة مثل السلاطين أو غيرها من الألقاب وكان يبرز من هذه الطبقة من الحكام المتسلطنين من ينقلب على من بيده السلطة، الذي قد يكون قريبه أو صديقه، وقد أدى بعض هؤلاء السلاطين أدواراً مهمة ومضيئة في تاريخ المنطقة ولا تزال أسماؤهم رموزا لحركات التحرير، وقد يمتد حكم بعضهم باستمراره في سلالتهم مثل الاسرة الأيوبية حيث يعد صلاح الدين الأيوبي أحد أبطال الأمة الخالدين الذين استطاعوا التغلب على الغزو الصليبي الذي احتل القدس ومعظم بلاد الشام لفترة تزيد على المائتي عام، ومنهم من كان فردا في ذاته وسجل بطولات فذة في تغلبه على الغزو المغولي وحرر المنطقة كلها من طغيانهم وقسوتهم في التعامل مع شعوبها، بل إن انتصار قطز في معركة عين جالوت كان بداية لذوبان المغول في النظام الإسلامي وأصبحوا بعدها جزءاً من القوة الإسلامية التي سيطرت قروناً على القارة الهندية وأجزاء هامة من وسط آسيا.

ولم تكن الشعوب في مختلف الأقطار العربية والإسلامية تبالي كثيرا بهولاء السلاطين، وعلى الرغم من قبضتهم على الحكم فقد كانت تبرز حركات إصلاحية شعبية تطالب بالعدالة الإجتماعية، ولم تتعرض تلك الحركات لنظام الحكم، ولم تكن حركات الإصلاح سواء أكانت شعبية عامة أو بقيادة أحد القادة تتعرض لتغيير النظام بل توجه اهتمامها لبعض الجوانب الإصلاحية أو لتغيير شخص الحاكم المسيطر وتنصيب بديل عنه قد لا يختلف كثيرا عن سابقه، وذلك أشبه بتغير رؤساء الحكومات الذين لا يتم اختيارهم على أساس شوري أو أكثرية نيابية وإنما على أساس رغبة الملك أو الرئيس في البلدان التي تحكمها انظمة فردية أو أسرية تسلطية.

بدء ظهور الحركات الإصلاحية الحديثة

بقيت المنطقة العربية بل والإسلامية حتى أواخر القرن التاسع عشر في ظل الأنظمة التقليدية، وكانت كل فترة في الواقع إمتدادًا لما قبلها مع تغيير الاسم فقط، وورثت العباسية الأموية ثم المماليك على اختلاف أسماء حكامها ثم الدولة العثمانية التي استطاعت إستعادة الوحدة السياسية لمعظم المنطقة الإسلامية تحت عنوان الخلافة الإسلامية.

واستطاعت هذه الدولة بسط سلطاتها على منطقه الأناضول ووسط آسيا والجزيرة العربية والعراق والشام وشمال إفريقيا وأجزاء هامة من شرق أوروبا.

ومنذ انتهاء الحروب الصليبية في بلاد الشام وزوال الحكم العربي في الأندلس مرت المنطقة العربية كلها تقريبا في حالة ركود سياسي، مع استمرار الاحتكاك بأوروبا التي شملت نهضتها على عدة مجالات أهمها الإصلاح السياسي المتمثل برفض الحكم الدكتاتوري والأسري، والإصلاح الإقتصادي بالتحرر من نظام الإقطاع من ناحية ورفض سيطرة رجال الدين المسيحي المتمثل بالكنيسة من الناحية الأخرى.

وكان شعار الثورات الإصلاحية في أوروبا في عصر النهضة القضاء على نظام الإقطاع وعلى سيطرة رجال الدين في نفس الوقت، وقد بالغت هذه الثورات مثل الثورة الفرنسية في العنف ضد الحكم الدكتاتوري الفردي وضد الكنيسة المتحالفة مع تلك النظم بل المسيطرة عليها غالباً.

وأعلنت هذه النظم الثائرة عن رفع شعار العلمانية الذي يرفض إضفاء أي نوع من القداسة الدينية على قرارات الحكام الجدد، ونشأ البديل عن تلك النظم؛ النظم البرلمانية التي تجعل السلطة الفعلية بيد ممثلي الشعوب المنتخبين.

ومع بداية القرن العشرين وإبان الحرب العالمية الأولى، انقسمت الدول الأوروبية إلى معسكرين؛ إشتراكي ورأسمالي، الإشتراكي بقيادة الثورة الشيوعية في روسيا،

وكانت أهم ميزات هذا النظام القضاء على الإقطاع والرأسماليين والكنيسة وفرض سيطرة طبقة العمال والفلاحين، ولم يخجل قادة النظام الاشتراكي الجديد من إعلان دكتاتكورية الطبقة العاملة، وبذلك استبدل قادة النظام الجديد بنظام دكتاتورية الملوك ورجال الدين دكتاتورية جديدة صاعدة. ولم يقف هذا النظام على روسيا بل امتد إلى اجزاء واسعة في اوروبا.

ومن ثم انضمت أكبر كتلة سكانية في العالم وهي الصين إلى المعسكر الإشتراكي وبذلك سيطر النظام الإشتراكي الجديد على أكثر من نصف سكان العالم وقام هذا النظام على إلغاء الملكية الفردية لوسائل الإنتاج الصناعي وللأرض الزراعية.

أما بقية الدول الأوروبية ومعها الولايات المتحدة الأمريكية فقد اختارت نظاما اقتصاديا رافضا للنظام الاشتراكي، ويقوم هذا النظام على احترام الملكية الفردية لكل شيء سواء لوسائل الانتاج الصناعي أو للأرض الزراعية ويقوم على التنافس الحر، ولو أدى ذلك إلى انقسام المجتمع إلى طبقات تسيطر كل منها على ما استطاعت إحرازه من أنواع الملكية بما في ذلك الأرض الزراعية وكافة وسائل الإنتاج الصناعي.

ونشأ عن ذلك طبقة عليا وطبقات دونها من وسطى إلى دنيا إلى خالية من أي قدرة مالية، وعرف هذا النظام بالنظام الرأسمالي الحر، وقد يحمل هذا النظام كثيرا من عيوب النظام الإقطاعي الذي قامت الثورات في أوروبا للقضاء عليه. وعلى الرغم من إدعاء النظام إعتماده على الديمقراطية؛ أي حكم الأكثرية، إلا أنه استمر على النهج الاستعماري على الشعوب الإسلامية في كل الأرجاء.

إن انقسام العالم إلى هذين المعسكرين وامتلاك كل منهما قدرات عسكرية هائلة بعد سيطرتهما على القوة الذرية أدى إلى انضمام معظم دول العالم إلى أحد هذين المعسكرين إما بتبني النظام أو بالتسليم له بالسيطرة والرضى بأن تكون تابعا له دون أن تنال ميزاته الإقتصادية أو العسكرية أو تصل إلى ما وصل إليه النظام

المسيطر من تقدم علمي وتقني بخاصة الدول العربية التي بقيت تابعة ومستهلكه لمنتجات النظام التابعة له.

وعلى الرغم من عمق الاختلاف وعنفه بين النظامين المسيطرين على العالم وبخاصه بعد الحربيبن العالميتين الأولى والثانيه، الا أن كلا النظامين زاد من إحكام قبضته على ما كان تحت سيطرته من الأقطار العربية والإسلامية وعلى مقاومة أي محاولة من المنطقه العربية والإسلامية للأخذ بأسباب التقدم العلمي والصناعي بل حتى الزراعي.

فمن ناحيه النظام الاشتراكي بقيادة روسيا فإنه بالغ في السيطرة على ما جاوره من الأقطار الإسلامية في وسط آسيا، وسام شعوب تلك المنطقه أشد أنواع العنف والظلم، ونفى الملايين من أبناء مناطق القوقاز من الشيشان والداغستان وسائر تلك المناطق إلى سيبيريا ليقضي عليهم جوعا وبرداً لرفضهم سيطرة الشيوعية وبخاصة محاربتها للاسلام، وعلى الرغم من انهيار الشيوعية في روسيا قبل نهاية القرن العشرين وقيام نظام جديد أقرب إلى الرأسمالية إلا أن القبضه الحديدية الروسية ما زالت تمعن في اضطهاد المسلمين في تلك المناطق وتفرض عليهم حكاما تابعين لروسيا حتى تبقى تلك الشعوب ضعيفة سياسيا واقتصاديا وفكريا تابعة للدب الروسي.

اما المعسكر الرأسمالي بقيادته الأوروبية ثم الأمريكية، فقد أمعنت في تثبيت أنظمة الحكم في المنطقة العربية تحت قبضتها، وعملت على السيطرة والتحكم في ثراوتها وقراراتها.

لقد أثبت كلا المعسكرين الرأسمالي والإشتراكي حتى بعد تحرره من النظام الشيوعي وتحوله إلى ما يشبه النظام الرأسمالي لقد أثبت كلاهما شدة عداوته للإسلام وشعوبه، لقد استطاع النظام الرأسمالي احتلال الأقطار العربية من المغرب حتى القارة الهندية، وكان أقسى احتلال لهم اقامة الدولة اليهودية في فلسطين، وساهمت كل الدول الرأسمالية في دعمها ومدها بأسباب القوة، وشاركت

روسيا عندما كان اسمها الاتحاد السوفيتي في تأييد قيام الدولة اليهودية عام 1948 في فلسطين.

أما الدول العربية والإسلامية سواء أكانت تحت مظلة هذا المعسكر أو ذاك فقد وافقت إما صراحة أو ضمنا على قيام الدولة اليهودية، وتطورت مواقفها من السكوت على كل ما اقترفته الدولة اليهودية من جرائم في حق الفلسطينين والمسجد الاقصى إلى عقد المعاهدات الصلحية المذلة مع الدولة اليهودية.

إن هذه المواقف قادت الدول العربية التي كانت متباعدة عن التطبيع مع الكيان الصهيوني إلى الانضمام لمعسكر التطبيع والموافقة على وجود الدولة اليهودية على التراب الفلسطيني، بل تدل المؤشرات على توجه هذا المعسكر إلى مزيد من التعامل والتقارب مع الكيان الاسرائيلي المحتل، وتبرئته من جريمة احتلال فلسطين وتشريد أهلها وانتهاك الحرمات الإسلامية، وفرض سيطرتهم على ثالث الحرمين.

ونجحت بريطانيا في بداية القرن العشرين وبعد الإتفاقية السرية بينها وبين فرنسا المعروفة بإتفاقية سايكس بيكو على إيجاد موطئ قدم لها في قلب الوطن العربي من خلال وعودها لشريف مكة الحسين بن علي بمساعدته على إقامة مملكة عربية تحت حكمه تشمل منطقة بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وساعدت على تكوين الجيش العربي الذي تولى ملاحقة الجيش العثماني ابان الحرب العالمية الأولى، وتولى لورنس البريطاني المشاركة في تكوين الجيش العربي وسمحوا لفيصل بن الحسيين بالسيطرة على ولاية سوريا مع أنهم حسب اتفاقية سايكس بيكو فإن منطقة شمال سوريا ومنها لبنان كانت من حصة فرنسا، لذلك لم تحرك بريطانيا أي قوة لحماية حليفهم واضطر فيصل إلى الإنسحاب والتخلي عن عرش سوريا تحت ضغط القوات الفرنسية، حيث توجه إلى بريطانيا التي وافقت على تنصيبه ملكا على العراق تحت الحماية البريطانية.

وهكذا تبدد الحلم الذي أوهمته بريطانيا للشريف حسين بن علي بإقامة مملكة عربية ونفذت بريطانيا خطتها في تقسيم المنطقة العربية في آسيا إلى دويلات شملت اليمن والسعودية ومشيخات وإمارات صغيرة في الجزيرة العربية والمملكة العراقية وإمارة شرق الأردن، وأبقت فلسطين تحت الحكم البريطاني المباشر تمهيدا لتحقيق وعد بلفور في إقامة وطن قومي لليهود فيها.

وفي ظل السيطرة الأوروبية على معظم الأقطار الإسلامية، تزايد شعور أبناء الأمة الإسلامية برفض هذا الواقع المؤلم، وظهر عدد من قادة الفكر الرافضين لهذا الواقع المذل ودعوا إلى التصدي للغزو الفكري الغربي وإلى التحرر من التبعية السياسية، وتبلور هذا التوجه في تيارين؛ أحدهما إسلامي يدعو إلى قيام النهضة على المرتكزات الإسلامية، والآخر قومي يدعو إلى النهضة على أساس بعث القومية العربية.

ونظرا لقيام النهضه الأوروبية الحديثة على أسس قومية، وبتأثير الحلم العربي بإقامة دولة عربية كبرى، بالإضافة إلى رواسب الكراهية للحكم العثماني، فقد سيطر الإتجاه القومي، وتشكلت عدة أحزاب وبخاصة في منطقة بلاد الشام والعراق ومصر قائمة على أساس القومية العربية، مع رفض فكرة العودة للخلافة الإسلامية. أما الدول الأوروبية فقد كانت ترى أن الدعوة لأي نوع من الوحدة الإسلامية ولو في ظل دولة ضعيفة خطرا على أوروبا وعلى أطماعها الاستعمارية، وكرد فعل لهذه التوجه الأوروبي ظهرت حركات وشخصيات تدعو للعودة للوحدة الإسلامية والتمسك بكيان سياسي مؤيد لها.

تكون التيار الإسلامي

على الرغم من تأييد الدول الأوروبية للتيارات القومية فإن التيار الإسلامي استمر بالتبلور والتكون أثناء وجود الخلافة العثمانية وظهر قادة مؤثرون يدعون لتجديد الخلافة الإسلامية ومقاومة انهيارها، وكان من أبرز قادة هذا التوجه جمال الدين الأفغاني القادم من أفغانستان عبر الهند إلى البلاد العربية وإلى استانبول، وظهر في كل البلاد الإسلامية من فلسطين إلى شمال افريقيا إلى مصر إلى السودان قادة للفكر الإسلامي، الا أن نجاح مصطفى كمال أتاتورك في القضاء على الخلافة الإسلامية وإقامة نظام علماني قومي في تركيا حاضرة الخلافة الإسلامية أضعف التوجه الإسلامي، وزاد من إضعافه وتراجعه دعم الدول الأوروبية للتوجه القومي العربي في بداية الأمر ثم دعمها للكيانات القطرية الهزيلة، ولم يعد التوجه القومي العربي له أي قوة أو قدرة في المنطقة في وجه الكيانات الاقليمية الهزيلة التي حولت المحافظة الواحدة كسوريا مثلا إلى اربع كيانات هزيلة هي سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن.

وتكونت في الجزيرة العربية التي كانت كلها تحت إقليم واحد أو اثنين أحيانا دويلات صغيرة لا يصل عدد سكانها إلى مستوى حي في إحدى المدن الكبرى في الوطن العربي.

وذالك أن بريطانيا عندما بدأت اتصالاتها مع شريف مكة وأقنعته بالثورة على الدولة العثمانية أعطته وعدا قاطعا بأن يصبح ملكاً على كل العرب شرق البحر الابيض المتوسط.

لقد كان أول نقض لوعود بريطانيا للشريف حسين اقتطاع فلسطين من كل الوطن العربي ومنح الوعد بها لليهود لإقامة وطن قومي لهم عليها وهو ما يعرف بوعد بلفور عام 1917.

وكان النقض الثاني أنها قسمت منطقة بلاد الشام بينها وبين فرنسا حتى يستحيل تحقيق أي توحيد بين أجزائها ووضع شمال بلاد الشام تحت الحكم الفرنسي وأعطي اسمين؛ هما سوريا ولبنان. مع إبقاء بقية الوطن العربي شرق البحر المتوسط تحت حكم بريطانيا.

وإمعانا من بريطانيا في نقضها للعهد الذي قطعته للشريف حسين نفته إلى مستعمرتها في قبرص حيث قضى قهراً وغماً، ثم قسمت بقية الوطن العربي إلى تسع كيانات سياسية تتباين في مساحة كل منها وعدد سكانها، وهكذا اصبح في المنطقة تحت وصاية بريطانيا وفرنسا اثنتا عشرة دولة لكل منها نظام سياسي متباين مع غيرها، وهي السعودية، اليمن، العراق، عمان، الكويت، البحرين، قطر، الامارات العربية، وامارة شرق الأردن وكلها تحت المظلة البريطانية وسوريا ولبنان تحت الوصاية الفرنسية، وكانت الإمارات العربية في الأصل مقسمة إلى مشيخات تجمعت تحت اسم الإمارات العربية المتحدة.

أما الوطن العربي في إفريقيا، سواءًا من منح نوعاً من الحكم الذاتي مثل مصر أو مراكش (المغرب) أو بقي تحت الحكم الاستعماري المباشر فقد قسم ايضا بين بريطانيا وفرنسا، إذ أعطيت فرنسا ما عرف فيما بعد باسم المغرب العربي: موريتانيا والجزائر وتونس، واستولت ايطاليا على ليبيا، وأعطيت بريطانيا، مصر والسودان وإرتيريا، والصومال وتنجانيقا وزنجبار.

وعندما بدأت حركات المطالبة بالإستقلال في المناطق العربية في آسيا وافريقيا، بدأت تحصل بعضها على نوع من الحكم الذاتي ولكن مع بقاء التقسيمات التي تولدت عن اتفاقية سايكس و بيكو بين بريطانيا وفرنسا.

وعملت كل من سلطات الإحتلال ثم النظم الناشئة التي عدت مستقلة على تكريس وتأكيد التقسيم القائم، بل تحول هذا الواقع التقسيمي إلى نوع من القداسة، وأصبح مجرد الحديث عن اختصار هذا التقسيم ولو على أضيق نطاق جريمة في الأوطان الفسيفسائية المستحدثة واعتداءا على الحقوق الثابتة لهذه الكيانات،

ومخالفة لشرعة عصبة الامم البائدة ثم لهيئة الامم الحالية، وأصبحت أي محاولة لتغيير هذا الواقع جريمة دولية تستطيع الأمم المتحدة تشكيل جيوش من كل أرجاء الكرة الأرضية لقمع مثل هذه المحاولات، ولو أدى ذلك إلى قتل الملايين من أبناء هذه الشعوب المستغفلة.

وهكذا اصبح في الوطن العربي بعد اكتمال حركات الإستقلال الشكلي اثنتين وعشرين دولة كانت كلها ولايات تحت سلطان الخلافة العثمانية.

حركات الإصلاح والنهضة والتحرير

لقد عانى العالم الإسلامي والعربي في موقع القلب منه من التراجع الحضاري وما نجم عنه من تخلف في كثير من مظاهر الحياة منذ الغزو المغولي والصليبي، ثم ما تبع ذلك من انهيار الإسلام في الأندلس. وعلى الرغم من نجاح الأمة في استيعاب الغزو المغولي وفي طرد الصليبين، إلا أنه نجم عن هذا الواقع عجز الأمة عن استعادة مركزها الحضاري في معظم جوانب الحياة وبخاصة في مجالات العلم والصناعة بل وفي مجالات الثقافة والفكر والأدب. واتجه كثير ممن عدوا من قادة العلماء والمفكرين، إلى اجترار الترات الماضي للأمة يشرحونه ويعلقون عليه دون محاولة لتطويره أو الإضافة الإبداعية عليه.

وصاحب هذا الوضع المتردي للمسلمين قيام النهضة الأوروبية التي أتمت ما وصل إليه علماء المسلمين الذين سبقوهم وأبدعوا وأضافوا إلى ذلك التراث مما زاد في الهوة بين مستوى العالم الإسلامي المتخلف والعالم الغربي الناهض المتقدم.

ومع أن الخلافة العثمانية الوارثة لقيادة الأمة الإسلامية كانت على قدر كبير من القوة العسكرية واستطاعت أن تمتد إلى كل منطقة شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط وعبرت إلى شرق أوروبا وتمكنت من السيطرة على أجزاء مهمة منها، إلا أنها لم تستطع أن تنافس أوروبا في نهضتها وتقدمها، كما أن القوى الأوروبية

بذلت جهوداً حثيثة ومتواصلة في إضعاف الخلافة ومنعها من استكمال قوتها ونهضتها إلى أن نجحت في بداية القرن العشرين في القضاء عليها وتقسيم امبراطوريتها إلى دويلات وكيانات صغيرة وضعيفة وتابعة للقوى الاستعمارية الاوروبية. هذه الحالة من تراجع الحضارة الإسلامية وسيطرة الإعجاب بالحضارة الأوروبية وإنجازاتها، دفعت معظم قادة الفكر ودعاة النهضة إلى التطلع إلى الأنموذج الغربي الأوروبي لتحرير البلاد العربية من التخلف والضعف الذي عانى منه العرب والمسلمون.

الفصل الثالث

الإتجاه القومي والإقليمي القطري، نشأته وأسسه

على الرغم من أن الفكر الإسلامي هو الأصل والأقدم في الإتجاهات الفكرية في العالم الإسلامي بعامة والوطن العربي بخاصة، إلا أنني آثرت أن ابدأ بالاتجاه القومي والإقليمي القطري، لأنه هو الإتجاه الذي يمثل السلطات القائمة فعلاً في البلاد العربية، وسوف أبدأ بالأسس التي ارتكزت عليها هذه الأنظمة، وخلفياتها المستمدة من واقع نشأتها وتبعيتها للفكر الغربي الذي أقامها على أنقاض الخلافة الإسلامية.

إختلاف نشأة النظم القومية العربية عن نشأة القوميات الاوروبية

من المعلوم أن القوميات برزت في أوروبا نتيجة الصراع السياسي والاقتصادي والديني بين الثالوث المتمكن من التحكم في أوروبا وهو الإقطاع والملكية والكنيسة.

وقد اضطرت الكنيسة نتيجة انهيار كثير من الملكيات والحكام الإقطاعيين إلى مهادنة الحركات الثورية والإصلاحية كما حصل بالنسبة للثورة الفرنسية التي تُعد أم الثورات الأوروبية الأخرى، ونجد أن الإصلاح الكنسي في المانيا تمخض عنه انفصال الكنيسة الألمانية عن الكاثوليكية في إيطاليا، ولذا فان البروتستانتية يمكن أن تعد أصلا لجميع حركات الإصلاح الدينية النصرانية الأوروبية المعاصرة، أما الثورة الفرنسية وما تبعها وقلدها من الحركات الثورية والإصلاحية في أوروبا فقد عملت على إحلال القومية والوطنية كعقيدة للجماهير بدلا من العقيدة الدينية وخاصة في مسألة الولاء، ويعد روسو أكبر كتاب الثورة الفرنسية وواضع أسسها

الفلسفية، ويقرر؛ إن المؤسسات القومية هي التي تؤلف أوجه عبقرية الشعب وشخصيته وأذواقه ومثله وأخلاقه، شيقر بويد؛ القومية عرض وتحليل، ترجمة جعفر خصباك وعدنان الحمدي – مكتبة الحياة بيروت 1966 ص 307).

وقد رفضت الثورة الكنيسة كمؤسسة باعتبارها أقوى حلفاء الإقطاع والملكية، ولم تقل قسوة الثورة على الكنيسة عن قسوتها على الإقطاعيين والنبلاء، وقد نتج عن ذلك الدعوة إلى الدولة اللادينية، وتفاوت رفض الدين من قبل الثورات؛ فمنها التي اعتبرت الدين مسألة وطنية يجب أن تخضع لاختيار الدولة وهكذا يتم اعتماد دين يتناسب مع الدولة الجديدة، وأن الاديان الأخرى بمرتبة أدنى من حيث النفوذ، أي أن الدين يصبح قوميا، أو أنه شخصي بحت لا يجوز أن تتدخل فيه الدولة. وتعد الولايات المتحدة الامريكية أوضح مثال على ذلك.

وذهبت بعض النظم إلى أبعد من ذلك إذ عدت أن الدين من خصوم النظام الثوري الجديد ولا يحق لأي احد أن يعلمه أو ينقله بشكل تبشيري وأن على الدولة أن تستخدم إمكاناتها لإضعافه، أما حركة الإصلاح الديني أو الثورات البروتستانتية على الكنيسة الكاثوليكية القديمة فقد عملت في نفس الإتجاه لإقامة المؤسسة الدينية على أساس قومي، وذلك أن هذا التوجه يحررها من نفوذ البابوية الذي كان يشمل أوطانا وقوميات متعددة. ولم يقتصر هذا التأثير على الكنيسة البروتستانتية بل أصبح توجها وطنيا عاما للكنيسة الكاثوليكية حيث قطعت صلتها بالبابا في روما وبخاصة ما تعلق منها بأملاك الكنيسة، وفي فرنسا قضت الجمعية الوطنية في دستور مدني بان يكون رجال الدين خداما لمصالح الأمة، وأجبرتهم على القسم بالولاء للأمة (المصدر السابق ص 309).

وفي تقدير كثير من دارسي ومعلمي البروتستانتية أنها مضت إلى أبعد من كونها دينا قوميا إلى أن البروتستانتية في الحقيقة دين عنصري خاص بشعوب شمال أوروبا البيضاء الذين قاموا للدفاع عن الحرية والذين تميزوا بأنهم قوم منتجون ويتمتعون بقدر كبير من روح المبادأة، وأن إدخال العناصر الملونة الأخرى في

البروتستانتية الذي جاء متأخرا ثلاثة قرون على قيامها إنما هو إدخال محدود وضمن شروط الرجل الأوروبي الأبيض، بل إن البروتستانتية لم تقبل اليهودي أبدا كإنسان كامل طالما أنه بقي ضمن المجتمع اليهودي المنغلق، وقد وصف كذلك بأنه تاجر غشاش جشع وأنهم قتلة المسيح وأبناء قتلته (Marty Matin,Protestantism صفحة 241-245).

ومع تصاعد قوة الدول القومية في أوروبا وما صاحبها من تقدم علمي، وتطور صناعي وانتعاش اقتصادي زادت الدعوة إلى الولاء للدولة والوطن حتى أضفي عليه طابع من القداسة والعبادة له، وفي الوقت نفسه ازداد ضعف الدين وتأثيره على الجماهير وفي عهد روبسبير حاولت الجمعية الوطنية الفرنسية تقرير عبادة الدولة القومية، حيث حلت الإحتفالات الوطنية بدلاً من الإحتفالات الدينية لإثارة المشاعر وتكوين الشعور العام لدى الناس. وقد دعمت اللغات المحلية كلغات قومية وبدأت أوروبا تتخلى عن اللغتين اللاتينية والإغريقية كلغات عامة مشتركة، ودعمت الدولة القومية كذلك إحياء التراث المحلي في كل قطر متمثلا باللباس وأنماط المعيشة المختلفة (شيفر بويد؛ ص 307).

وقد كان لتوجه الدول القومية الأوروبية إلى بسط نفوذها الإستعماري خارج حدودها تأثير آخر في تزايد قوة الشعور القومي عن طريق قبول مبدأ التفوق العنصري والقومي.

وقام في أوروبا فلاسفة ومفكرون ينادون بالتفوق العنصري والقومي والاقليمي لشعوب الدول الاستعمارية على الشعوب والأمم الضعيفة التي تهاوت متخاذلة مهزومة أمام القوات الأوروبية الغازية.

إن النظم السياسية المعاصرة التي ارتكزت على الفكرة القومية وبخاصة في الأقطار الإسلامية ليس لها أي فلسفة للحكم خاصة بها تنبع من القومية التي تدعيها، أما النظم القومية الأوروبية التي قامت على أنقاض النظم الإقطاعية والدينية فقد أحدثت نظمها السياسية القائمة على العلمانية وعلى التحرر من نفوذ

المؤسسات الدينية ونادت بمبادئ الحرية والعدالة الاجتماعية والمساواة أمام القوانين لجميع الفئات، وظن مفكرو أوروبا في البداية أن قيام الدول القومية وإقرار حق تقرير المصير للدول الناشئة سيؤديان إلى نشر السلام والأمان في أوروبا، وكما نقل عبدالكريم أحمد عن هارتمان أن الاعتقاد كان سائداً أن الشعب الذي يحكم نفسه بنفسه لن يلجأ إلى الحرب لفرض ذاته وتحقيق استقلاله، الا أن الواقع كان خلاف ذلك ولم يؤد قيام الدول القومية الأوروبية إلى سعادة البشرية أو زوال المنازعات والحروب فيما بينها، بل إن تاريخ البشرية لم يسجل حروبا أقسى ولا أكثر تدميرا وايذاءً للانسانية من الحربين اللتين قامتا خلال أقل من نصف قرن بين الدول القومية الحديثة التي نشأت في أوروبا، كما أن العالم لم يشهد من قبل نشاطاً استعماريا يتنكر لكل ما عرف البشر من المبادئ والمثل مِثل الاستعمار الغربي الذي مارسته الدول القومية الأوروبية على شعوب آسيا وافريقيا وسائر أقطار الارض، كما أن النظم السياسية التي أقامتها الدول القومية لتحرير الإنسان من الظلم الإجتماعي والسياسي لم تؤد إلى ما نادت به من القضاء على الفقر والخوف والجوع ونشر الحرية والمساواة. صحيح أن استعمار الدول الأوروبية ونهبها لثروات آسيا وافريقيا ملأ خزائنها وأثرى موازنات دولها، إلا أنها أفرزت نظما إقتصادية قائمة على الإستغلال والمغامرة والتنكر للمبادئ الأخلاقية مما أعاد الطبقية الإقتصادية بشكل آخر وأدى إلى ازدياد الأغنياء غنى وإبقاء الفقراء على فقرهم، وللخروج من المأزق القومي الجديد قام مفكرون في أوروبا بالدعوة إلى نبذ القومية كنظام سياسي واجتماعي وذلك أنها بطبيعتها عدوانية وتوسعية، وقامت دعوات متعددة ومختلفة للبحث عن البديل، ودعا مفكرون إلى العالمية (Universalism) أمثال جوته وشيللر،أما برناردشو فيدعو إلى التخلص من القومية، وأنها أصبحت غير ذات موضوع ويجب إقامة نظام عالمي يقوم على المبادئ الاشتراكية (عبدالكريم احمد، القومية والمذاهب السياسية ص 264).

أما الحكم في الفكر الإشتراكي الماركسي فيجب أن يقوم على دكتاتورية الطبقة العاملة، وأن الحركة العمالية حركة عالمية لا تؤمن بالحدود القومية والوطنية، فالعمال كما يرى كارل ماركس في البيان الشيوعي لا وطن لهم.

أما الفكر القومي والحركات القومية في العالم الإسلامي في آسيا وافريقيا فقد كانت العناية فيهما في الدرجة الأولى إلى تحقيق الإستقلال والتحرر من قبضة الدول الأوروبية المستعمرة، ونتيجة للظروف الإقليمية المحلية التي وضع فيها كل قطر مستعمر فقد اصطبغت مقاومة الاستعمار بصبغة محلية ثم قومية سيما وأن الدول المستعمرة وضعت حدودا محمية بين هذه الأقطار ولو كانت تحت سلطة استعمارية واحدة فلم تكن تسمح بانتقال الأشخاص ولا المال ولا الخبرات بين الأقطار وأوضح مثال على ذلك دول المغرب العربي، إذ كانت كلها تحت النفوذ الفرنسي ومع ذلك فالحدود بينها صارمة وحازمة، وكذلك كانت العراق وشرق الأردن وفلسطين ومصر والجزيرة العربية تحت النفوذ البريطاني ولكن الحدود قائمة، والانتقال ممنوع، وهكذا إذن نشأت حركات التحرر من الإستعمار في ظل الظروف الإقليمية ودعت في نفس الوقت إلى الوحدة القومية إذ كانت مطلب توحيد في وجه الإقليمية المحلية.

وعندما منحت تلك الأقطار استقلالها أو حصلت عليه نشأت فيها – أو أنشأت السلطات الاستعمارية فيها– حكومات محلية ضمن تلك الحدود التي رسمتها تلك السلطات، وكان يتم اتباع النموذج الذي وضعته السلطات المستعمرة وهو نموذج محرف وممسوخ عن النموذج المتبع في بلادها.

وعملت السلطات الاستعمارية المسيطرة على المناطق العربية بل والإسلامية على تنصيب قادة ومسؤولين في هذه المناطق يوثق بتبعيتهم للقوى الغربية أو على الأقل بعيدون كل البعد عن الفكر الأصيل لتلك المناطق وهو الإسلام، وبخاصة الإسلام السياسي، أما التدين الفردي وأداء الشعائر والطقوس الدينية فلا بأس به إذ لا يؤثر على مبدأ التبعية والإنقياد. لقد اشار بعض الدارسين لهذه

الاوضاع ولعلاقة حكام المناطق في البلاد العربية على الرغم من تعدد عناوين وأسماء نظمهم سواءا كانت ملكية أو جمهورية فهم في التبعية سواء. وقد أطلق عليهم المؤرخ البريطاني جرونيباوم لقب أطفال الغرب (Gronibaum; Modern Islam; p 278).

لقد حاول المرحوم الشريف الحسين بن علي الذي كان شريف مكة والحجاز في ظل الدولة العثمانية، حاول بالتفاهم مع بريطانيا إقامة دولة عربية تضم الأقطار العربية في آسيا، سوريا والعراق والجزيرة العربية عدا اليمن، وذلك مقابل تمرده على الدولة العثمانية والانضمام للحلفاء بقيادة بريطانيا ضد الدولة العثمانية وقد أثبتت الأحداث التي تلت الحرب العالمية الأولى تنكر بريطانيا لوعودها للشريف بل أمعنت في خيانتها له فأصدرت ما عرف بوعد بلفور بمنح اليهود فلسطين التي تشكل القلب للوطن العربي ليقيموا على أرضها دولتهم، وزادوا في خيانتهم للشريف عندما أبدى معارضته لخططهم فحبسوه في جزيرة قبرص حتى وافته فيها منيته، ونتيجة لفشل إقامة دولة عربية واحدة انقسمت المنطقة العربية كلها إلى دويلات تقاسمت بريطانيا وفرنسا فرض الوصاية عليها.

وعندما استقرت كيانات الدول العربية بعد الحرب العالمية الأولى على هذه الدول والدويلات شعرت الشعوب العربية بالخذلان والغضب على قادتها الذين تبوأوا مقاعد الحكم فيها، وتخلوا عن وحدة أوطانهم التي تمنحهم القوة والمنعة، وتحول دون سيطرة القوى الباغية عليهم، ونتيجة لانتشار هذه المشاعر ضد التشرذم والتفرق تداعى حكام الدول الجديدة إلى إقامة نوع من التوحد أو التآلف بين دولهم ونجم عن ذلك تأسيس جامعة الدول العربية، وضمت في بداية تأسيسها دول مصر وسوريا والعراق والمملكة السعودية والأردن ولبنان واليمن.

إن قيام الدويلات الإقليمية الصغيرة وبخاصة في المنطقة العربية أدى إلى نتيجتين متعاكستين، الأولى أنها ساعدت على ترسيخ الكيانات الإقليمية التي بدأت تتحول من كيانات مصنوعة وتقسيمات إدارية إستعمارية في عهد الإستعمار، إلى كيانات

سياسية معترف بها كدول ذات مكانة دولية لكل منها إسمها وعلمها وعملتها وجيشها، وبدأت كل دولة من هذه الدول تبحث لها عن اسم في التاريخ القريب أو البعيد، وبدأ المنتفعون من هذه الكيانات – وما اكثرهم– يصطنعون لكل كيان تراثا وخصائص وميزات حتى أصبح لبعض هذه الكيانات توجه لتتطور إلى قوميات متميزة مثل المصرية والسورية والعراقية واليمينة والسودانية وغيرها. بل إن بعض الكيانات التي برزت حديثا دون أن يكون لها أي جذور ثقافية أو تاريخية بدأت تتحدث عن نفسها ككيان ثقافي متميز مثل دول الخليج العربي وفلسطين وشرق الأردن ولبنان ودول المغرب العربي وغيرها من الدول الإسلامية التي بدأت تنشأ بأسمائها الجديدة منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى، وقد شجعت السلطات الاستعمارية على ترسيخ هذا الاتجاه برسم الحدود وفرض القيود بين تلك الدويلات، واستخدمت المتاحف الوطنية ومعاهد الآثار لنبش الماضي السحيق للدلالة على وجود أصول تراثية وتاريخية لهذه الكيانات المفتعلة، هذا التوجه كان يعمل دائما على أن يكون البديل عن القومية ويعمل على إضعافها وتجميدها على الرغم من بقاء الاعتراف بها شكليا ورسميا في دساتير هذه الكيانات وبياناتها السياسية وبخاصة في الأزمات أو عند تبادل الزيارات بين المسؤولين والرسميين في تلك الدول.

أما النتيجة الثانية المعاكسة فهي أن إقامة هذه الكيانات الإقليمية الضعيفة أثارت دعاة قوميات كانت نائمة وأعطتهم المبرر للدفاع عن القومية باعتبار أنها هدف اكبر وعقيدة أسمى من الإقليمية، وأصبح دعاة القومية دعاة إلى الوحدة في وجه الانقسام الاقليمي وأخذت الدعوة إلى القومية طابعاً نضالياً ضد الانفصالية والانعزالية والإقليمية، إن صراع الإتجاه القومي لتحقيق الوحدة القومية ساعد على إبرازه كعقيدة سياسية وثقافية، وقد عبر ساطع الحصري أحد أشهر دعاة القومية العربية الحديثة عن هذا الاتجاه بدعوته إلى أن أول ما يجب عمله هو إيقاظ الشعور بالقومية العربية وبث الإيمان بوحدة الأمة العربية (ساطع الحصري

العروبة اولا ص 5). وقد أمعن الحصري وأمثاله في الدفاع عن العقيدة القومية والرابطة الوطنية، واعتبرها مقدمة على الرابطة الدينية وحاول تفسير الأحداث التاريخية لدعم وجهة نظره تلك، واستشهد بما حدث في تاريخ الدول الأوروبية الحديثة التي أقامت كياناتها السياسية على أسس قومية متخلية عن الروابط الدينية والتي سبق أن بينّا خلفية ذلك لديها، وغالط الحصري وأمثاله في استعمال الارقام والاحصائيات وبرر دعوته إلى إقامة الرابطة القومية بدل الرابطة الدينية بالأقليات غير الإسلامية التي تعيش في البلاد العربية (المصدر السابق ص 76– 78).

وقد أدى قيام جامعة الدول العربية إلى دعم هذا الاتجاه القومي العربي مع أن قيامها تأكيد على الاعتراف بالتقسيمات السياسية الإقليمية وترسيخها، وأصبحت مهمة الجامعه العربية التنسيق بين هذه الدويلات ومحاولة جمعها على الاتفاق على قضايا جزئية تفصيلية مع التاكيد على احترام الكيانات وعدم جواز قيام أي عضو في الجامعة بالتعرض لعضو اخر بالاعتداء أو عدم احترام حدوده ووحدة أراضيه إلى آخر القائمة، ويبدو أن اقامة كيان الجامعة العربية قضى نهائيا على قيام أي وحدة عربية بالقوة كما حصل في الجزيرة العربية إذ أبقت الدولة السعودية ودول الخليج على الانقسام، وأصبح تحقيق الوحدة العربية منذ قيام الجامعة العربية حلما يراود دعاة القومية العربية. كان الكاتب المصري مصطفى أمين يرى في عام 1951 أن الدعوة إلى اقامة دولة عربية موحدة حلم جميل مثل أحلام تحويل الصحارى إلى حدائق غناء أي أنه مستحيل التحقيق، ولكنه بعد قيام الإنقلاب المصري وبروز عبد الناصر كقائد حاول أن يكون نبيا للقومية العربية، نرى مصطفى أمين في عام 1954 يتحول إلى حواري من حواريي عبد الناصر ومروجا لدعوته إلى القومية العربية، فيرى إمكان قيام دولة عربية موحدة، وأن عبد الناصر وحده هو القادر على إنشاء الدولة الكبرى، وهو الذي يحول الأحلام إلى حقائق ويخلق في الشعوب الإيمان بحقوقها (المصدر السابق).

وفعلا يظهر القائد ويتحول عبد الناصر نفسه من قائد مصري محلي قام بالانقلاب على حكومة فاروق بهدف إصلاح الأوضاع السياسية والاجتماعية في مصر إلى قائد عربي يحاول إقامة الوحدة العربية، وقلب عبد الناصر عقول الجماهير العربية في فترة الخميسنات والستينات كقائد قومي لدعوته إلى الوحدة العربية والى القوة والاعتزاز بها في وجه واقع الانقسام والتفرق، وقد قادته دعوتة تلك إلى رفض الفكرة الإسلامية وأدى به الامر إلى قيام نزاع عنيف بينه وبين الإتجاه الإسلامي في مصر والبلاد العربية، وسقط عدد من الشهداء ضحايا "العنف القومي".

التبعية لفلسفة الحكم لدى الغرب

لا يعترف معظم القوميين بخطورة تطبيق أنظمة للحكم مخالفة للإسلام، وذلك أن مفهوم الدين عندهم متأثر بالمفهوم الغربي المسيحي للدين الذي تأصل لديهم بالفصل التام بين الدين والدولة وأن مهمة الدين لا تتعدى الكنيسة والطقوس الدينية، أما القوانين والأنظمة في السياسة والاقتصاد وغير ذلك فالناس يختارون ما يشاؤون، والسبب أن فلسفة المسيحية تقوم على ذلك فعلاً فيترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله، أما الإسلام لا يترك شيئا لقيصر، أو لغير قيصر بل الكل لله ومن الله، ومفهوم الدين في الإسلام مفهوم شامل لكل شؤون الحياة، والتشريعات التي جاء بها الإسلام في تصريف أمور الحكم أو تنظيم شؤون المال أو في العقوبات على جرائم معينة كالسرقة والزنا، لها نفس القوة التي للتشريعات التي جاءت في بيان الصلاة أو الزكاة أو الحج، بل إن طبيعة الدين الإسلامي جاءت متداخلة، فالعبادة مثلا؛ وهي في الأديان الأخرى نشاط شخصي منفصل عن النشاطات الأخرى التي يمارسها الانسان، بينما ترتبط في الإسلام ارتباطا وثيقا بأمور إقتصادية ومالية وتنظيمية، فالزكاة في الإسلام عبادة وهي الركن الثالث في

الإسلام بعد الشهادة والصلاة، وهي في نفس الوقت أمر مالي وترتبط بأحوال المجتمع الإقتصادية، ولها دور جوهري في معالجة مشكلة الفقر، ولا يجوز أن تصنف كنشاط اقتصادي بحت بمعزل عن العبادة، بل إنها لا تجبى إلا من المسلم في المجتمع الإسلامي فهي ليست من قبيل الضرائب وليست بديلا لها، إذ قد يكون في الدولة الإسلامية ضرائب، وهناك أموال تجمع من غير المسلمين وهي ليست عبادة بأية حال من الأحوال، كما أن شؤون الدفاع عن الأمة الإسلامية وما يتصل بها من أمور الحرب والاعداد لها وطريقة تجنيد الناس وما يمكن أن يدفع لهم من مال أو مكافأة لا يمكن أن يعالج في المجتمع المسلم بمعزل عن العقيدة والدين، وإلا فقدَ الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام معناه.

ومثال آخر هو تنظيم الأسرة وكل ما يتصل بها، مثل عقد الزواج وما يترتب عليه من مسؤوليات مالية واجتماعية وما ينتج عنه بشكل مباشر أو غير مباشر كالأبناء ودرجات القرابة والمصاهرة المختلفة وما يترتب عليها من انتقال الأموال والحقوق أي الإرث، كل هذه الأمور بالنسبة للمسلم أمور دينية لا يستطيع أن يتصرف إزاءها بما تفرضه السلطات الحاكمة إذا فرضت هذه السلطات تنظيما مخالفا لأي حكم اسلامي، وقد حدث ذلك في بعض الدول الإسلامية. فإنه نتيجة للشعارات التي رفعت في المجتمعات الغربية في المساواة، ونظرا لما كانت تعانيه المرأة في تلك المجتمعات من ظلم لحقوقها في مجالات العمل، فقد رفع شعار مساواة المرأة بالرجل، وحيث أنه لا يوجد في المجتمعات المسيحية أصلا نظام للإرث له صفة دينية فإن أمر تنظيمه متروك دائما للناس، لذلك فان من مظاهر المساواة التي دعوا إليها في الغرب مساواة المرأة بالرجل في حق الإرث، وتحمست بعض الحكومات المحلية في البلاد الإسلامية لتطبيق هذا المبدأ وأخذت به وألغت بذلك نظام الإرث الإسلامي الذي يفرق بين الذكر والانثى في الإرث، لأن نظام الإرث في الإسلام مرتبط بنظام الأسرة ومسؤولية الإنفاق فيها وبمسائل اخرى كثيرة.

وقد تنبهت أكثر الحكومات المحلية في البلاد الإسلامية واستثنت أمور الأسرة من قوانينها وأبقتها أو أبقت معظمها مستمدة من الشريعة الإسلامية واعتبرتها فرعا خاصا في تشريعاتها أسمته الأحوال الشخصية. وفي الحقيقة أن بقاء هذه القوانين ضمن حدود الشريعة تصرف سليم و صحيح ولكنه لا يمكن أن يكون كافيا ليجعل الدولة دولة اسلامية، إذ لا فرق بين قوانين الأحوال الشخصية والقوانين المدنية أو قوانين العقوبات، أو القوانين الدولية العامة أو الخاصة إذ لا يستطيع المسلم أن يتصرف تصرفا إسلاميا كاملا إلا إذا كانت جميع القوانين التي تنظم حياته وحياة كل المجتمع الذي يعيش فيه قوانين إسلامية خالصة، والنصوص القرآنية وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لا تدع مجالا لأدنى شك أو أية مساومة في هذا المجال، قال الله تعالى: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (الأحزاب 36). حتى الكتاب الغربيون تنبهوا إلى تميز الإسلام كنظام اجتماعي وسياسي وليس كدين بالمفهوم المسيحي الشائع عندهم، وأن الإسلام لا يمكن أن يطبق بشكل صحيح إلا عندما تنظم المؤسسات السياسية على أساس الإسلام (Grunebaum P270 Modern Islam).

أسس النظم القومية والإقليمية القطرية العربية

سبق وأن أوضحت أن هذه النظم المستحدثة لم ترتكز على أسس قامت عليها، حيث كانت نتاج الأوضاع السياسية التي سادت المنطقة إثر انتصار الدول الأوروبية على الدولة العثمانية نتيجة الحرب العالمية الأولى.
وسأحاول فيما يلي تحليل المرتكزات التي قامت عليها هذه الأنظمة وبيان سلبياتها:

الأساس العقدي: نشأته في النهضة الأوروبية وأثر ذلك على العقيدة القومية والإقليمية:

من المعلوم أن القوميات المعاصرة في أوروبا قامت على أنقاض النظم الإقطاعية التي كانت سائدة في العصور الوسطى وفي ظل الكنيسة المسيحية.
وإلى جانب محاولات التغيير الإجتماعي والاقتصادي والسياسي، كانت تقوم محاولات للإصلاح الديني، وتعد ألمانيا المهد لحركات الإصلاح الديني في المسيحية الأوروبية من خلال البروتستانتية التي يمكن أن تعد الأصل المعاصر لحركة الإصلاح الديني التي أعلنت الإنفصال عن البابوية.
وقد نجم عن الثورات والإصلاحات السياسية والإقتصادية ثم الإصلاح الديني بروز الحركات القومية والوطنية كبديل عن العقيدة الدينية كأصل جامع للقوميات والوطنيات الاوروبية، وقد أدى هذا الوضع إلى تحول العقيدة المسيحية في أوروبا إلى أحد اتجاهين؛ أحدهما إرتباط العقيدة الدينية بالقومية أو الوطنية، إذ غلب على ألمانيا أو بعض أقطار أوروبا المذهب البروتستانتي بينما بقيت أقطار أخرى على الكاثوليكية كما هو الحال في إيرلندا شمالها بروتستانتي وجنوبها كاثوليكي، والإتجاه الثاني عدّ الدين مسألة شخصية للمرء أن يأخذ ما شاء أو يدعها ويكون بلا دين يلتزمه، وذهبت بعض النظم إلى أن الدين خصم للنظام الثوري وحركات

الإصلاح السياسي والإجتماعي، وعلى الدولة أن تستخدم امكاناتها لإضعافه وعزله (شيفر؛ القومية عرض وتحليل، ترجمة جعفر خصباك ص 307).

العقيدة القومية

لقد كان الأمر في البلاد الإسلامية مختلفا كل الاختلاف من الناحية التاريخية إذ لم يوجد فيها أصلا نظام الإقطاع أو المؤسسة الدينية التي تفرض سيطرتها مثل البابوية، إلا أنها كانت تعاني من ضعف دولة الخلافة العثمانية التي انهزمت في الحرب العالمية الأولى على يد الدول القومية الأوروبية الصاعدة، وأصبحت معظم المناطق الإسلامية من جاكارتا في أقصى الشرق إلى موريتانيا والدار البيضاء في أقصى الغرب مستعمرات ومناطق محتلة من قبل الدول الغربية القومية، ومن خلال العلاقة الاستعمارية القائمة على علاقة القوي بالضعيف والفاعل بالمنفعل، تعرفت الشعوب الإسلامية على القومية الحديثة، ومن خلال انبهار المستضعف المتخلف بالمسيطر المتقدم، كان انبهار الشعوب الإسلامية المستعمرة بكل ما تمثله الدول المسيطرة من تقدم علمي وتكنولوجي، وما تؤمن به من فلسفات، وما يسودها من نظم، وما تمارسه من أنماط المعيشة وأنواع التصرفات، ولم يقف الأمر عند حد الانبهار القوي والتقليد التلقائي، بل عمدت الدول الأوروبية المسيطرة على اصطناع مفكرين ومثقفين وإعداد أجيال من المتعلمين على الطريقة التي تضمن القبول لكل ما يأتي من قبل الغرب، واستبعاد كل ما يخالفه ويتعارض معه، وكان تقسيم المناطق المستعمرة قائما على ضمان مصالح الدول الاستعمارية فرسمت حدود وخططت مناطق ووضعت أسماء لا تستمد من أي مستند تاريخي ولا ترتكز على أي منطق جغرافي.

فشل العقيدة القومية كبديل للعقيدة الدينية

على الرغم من كل الجهود التي بذلها دعاة القومية ليجعلوا منها عقيدة بديلة للدين فقد بقي الدين هو العقيدة الأقوى في أعماق الجماهير، وقد أثبتت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية خلافا لكل التوقعات عمق العقيدة الدينية في المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي على الرغم من الانتقادات الموضوعية التي وجهت للديانة النصرانية في تلك المناطق، وينقل نديم البيطار عن الكاتب السويدي غوستا كارلسون ما يمثل توجه المفكرين الأوروبيين في التخلي عن العقيدة القومية، وأن معظم الدراسات التي تناولت القومية اصبحت ذات سمعة علمية سيئة لانها تستخدم لقصد سياسي وقومي متزمت وتقوم على المغالطة في صفات الشعوب والقوميات (نديم البيطار، حدود الهوية القومية ص205).

أما في العالم الإسلامي فقد كان فشل العقيدة القومية أكثر وضوحا، وذلك أن العقيدة الإسلامية أقوى لدى المسلمين من العقيدة النصرانية عند الشعوب التي تدين بها. وعلى الرغم من قيام معظم الحكومات في الأوطان الإسلامية وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية بمحاولة فرض العقيدة القومية بالقوة إلا أن الشعوب الإسلامية رفضتها في كثيرمن الأحيان بعنف مقابل للسلطات الممثلة للقومية، مما دفع معظم هذه الحكومات وبخاصة في العقدين الاخيرين من القرن العشرين إلى التراجع ومهادنة الإسلام، واضطرت معظم الحكومات في البلاد الإسلامية إلى النص في دساتيرها على أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة.

إلا أن المحاولات لإحلال العقيدة القومية مكان الإسلام أو مع الإسلام ما زالت تبذل في أماكن مختلفة في العالم الإسلامي، وكما أشرنا من قبل تعد المحاولة الإندونيسية من أحدث هذه المحاولات إذ ما زالت قائمة، ولا شك أن الفشل سيكون مصيرها كما فشلت المحاولات في مصر وتركيا وإيران وغيرها.

وغني عن القول أن المعتقد القومي أو غيره من العقائد غير الدينية تبقى عاجزة عن أخذ مكان الدين في أي مجتمع لافتقارها إلى النواحي التعبدية، فالدين يلبي هذه الحاجة في نفس الإنسان في توجهه إلى خالق الكون وموجده المستحق أن يعبد، أما غير الله، فمهما بذلت من المحاولات لإضفاء صفة القداسة عليهم وجعلهم أربابا يستحقون العبادة فإن ذلك لا يصمد ولا يبقى، وقد بذلت محاولات عبر التاريخ القديم لعبادة الظواهر الطبيعية أو الاشخاص أو الحيوانات وزالت واندثرت. وبذلت محاولات حديثة لتقديس الأشخاص أو المؤسسات أو النظم لتكون للناس دينا وبديلا عن عبادة الله، وفشل ذلك كله وبقى الدين ضرورة إنسانية لكل الناس في كل مكان.

وهكذا يتبين لنا أن تطبيق النظام القومي على المجتمع الإسلامي يؤدي إلى وقوع المسلم في أحد محظورين، إما إلى تخلي المسلم عن عقيدته وبالتالي إنسلاخه عن دينه، وهو ما آل إليه حال بعض دعاة القومية المتطرفين الذين آمنوا بالعقيدة القومية وتخلوا عن عقيدة الإسلام حينما اختلفت مع تلك العقيدة، والمحظور الثاني وقوع الأفراد المسلمين والمجتمع المسلم في بلبلة وحيرة وتمزق بين دينهم وما يوجبه من ولاء وبين النظام القومي وما يفرضه من ولاء لجهات أو أشخاص لا تتفق مع عقيدة المسلم والتزامه، وهذا ما وقعت فيه معظم المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

الأساس السياسي وفلسفة نظام الحكم

ذكرنا سابقاً أن النظم السياسية سواء القومية أو الإقليمية لم يكن لها أي فلسفة لأنظمتها وبخاصة لدى مقارنتها بالنظام السياسي الإسلامي الذي امتد أربعة عشر قرناً قبل قيام هذه النظم القومية أو الإقليمية.

وذلك أن الإسلام كدين يتضمن إقامة نظام للحكم مستمد من مبادئ الإسلام، ولهذا النظام فلسفته وقوانينه وأنظمته، وأن إقامة أنظمة غير النظام الإسلامي يكون تعطيلاً للإسلام كدين ينبثق عنه نظام سياسي واقتصادي له قواعده وأسسه وخصائصه.

لقد بقيت جميع الدول المشاركة في جامعة الدول العربية في ظل النظم السياسية التي أنشئت بعد ما سمي بمرحلة الإستقلال التي وقعت بين عامي 1946-1970 تقريبا، والتي ضمت أنظمة ملكية وأميرية ومشيخات وأنظمة جمهورية مع تغيير شكلي في مسميات بعض النظم الملكية مثل مصر والعراق وتونس وليبيا واليمن التي تحولت بعضها تلو بعض من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري، إلا أنه لم يكن تغيير جوهري وبقيت السلطة في ظل النظم الجمهورية المحدثة في الحقيقة امتدادا للنظم الملكية السابقة من حيث تسلط الرؤساء الجدد الذين حملوا لقب الفخامة بدل الجلالة، وكان يستمر أحدهم على كرسيه حتى تأتيه منيته ثم يرث الحكم ولده أو حتى ينقلب عليه عسكري آخر من نفس نوعه، وتستمر الطريقة التي يحكم بها الرئيس الجديد مثل الرئيس الذي سبقه أو الملك الذي سبقهما.

ومع أن معظم هذه النظم قد استحدثت مؤسسات شبيهة بالمؤسسات الحديثة في الدول الأوروبية وغيرها مثل البرلمانات أو ما أطلقت عليه أحيانا مجالس الشورى لتكون أقرب فلسفة لمبدأ الشورى في المصطلح الإسلامي، إلا أنها كانت في معظمها أنظمة لها الألقاب والعناوين وليس لها أي محتوى حقيقي يجعل لها أي

تأثير فعال في قرارات الحكام المتفردين بالسلطة، وكثيراً ما أقرت هذه المجالس النيابية السياسات التي يريدها الحاكم وأضفوا عليها اسم الديمقراطية وإرادة الشعب والشعوب منها براء، ولو استشيرت هذه الشعوب متحررة من جبروت السلطات المتفردة لاختارت غير ما أقرته هذه البرلمانات الشكلية. واستمرت تبعية معظم النظم للسلطات التي كانت مسيطرة في الحقبة الإستعمارية التي كان لها القرار في تقسيم المنطقة.

إلا أن بعض النظم المتحولة من الملكيات القديمة التابعة سياسياً للمعسكر الرأسمالي عمدت إلى تغيير تبعيتها إلى المعسكر الإشتراكي الذي قادته الثورة الشيوعية في روسيا إبان الحرب العالمية الأولى، وقد يكون هدف هذا التحول مبرراً من بعض الجوانب، إذ يئست من تبعيتها للمعسكر الرأسمالي الذي أساء للدول المنضوية تحت سيطرته وأصر على إبقاء هذه الدول ضعيفة في وجه اسرائيل، إلا أن التحول لم يفد تلك الدول لا سياسيا ولا عسكرياً.

وقد أدت المبالغة في التعصب القومي العربي إلى بروز التعصب للقوميات الصغيرة التي كانت مندمجة في الأمة الإسلامية، وأطلت برأسها الدعوات القومية التي نبشها دعاتها من قبور التاريخ أمثال الفرعونية والأمازيغية والكردية والإفريقية، ونجح بعض دعاتها في الترويج لمزيد من التمزيق والتقسيم للوطن الواحد، ولا تزال المنطقة تعاني من بقايا تلك الدعوات، ولولا قيام عدد من دعاة الوحدة الإسلامية والعربية أحيانا امثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعلي علوبة في مصر وشكيب آرسلان في لبنان ومحمد اقبال في الهند ثم باكستان، وغيرهم من دعاة الفكر الإسلامي لنجحت دعوات هذه القوميات البائدة في إحداث مزيد من تمزيق الأوطان العربية والإسلامية، بل إن الفكر الإسلامي نجح في اعادة عدد من دعاة هذه القوميات البائدة إلى الحظيرة الإسلامية فتحول طه حسين الفرعوني إلى إسلامي وألف كتابه المشهور "على هامش السيرة" وكذلك محمد حسين هيكل الذي ألف بعد توبته عن الفرعونية كتابيه "في منزل الوحي" و "حياة

محمد"، وأصبح دعاة الإسلام في كثير من الأقطار الإسلامية لهم اليد العليا على دعاة القوميات البائدة مثل سلامة موسى في مصر ودعاة الفينيقية والكردية وغيرها في بلاد الشام والعراق وسائر البلاد العربية والإسلامية.

القضاء على المواطنة الإسلامية

إن من أهم وأخطر التنظيمات التي أدخلتها السلطات الاستعمارية على البلاد الإسلامية، القوانين والانظمة المتعلقة بالجنسية والمواطنة والحقوق المترتبة عليها، فقد جعلت هذه السلطات لكل إقليم من الأقاليم التي سيطرت عليها هوية خاصة به، وترتب على هذه الهوية الوطنية للإقليم أن جعلت له جنسية خاصة به، ومنحت هذه الجنسية للأشخاص الذين كانوا يعيشون في هذا الأقليم في فترة صدور التشريعات الخاصة بهذا الشأن في ذلك الإقليم من قبل السلطات الاستعمارية الحاكمة أو من قبل الحكومة المحلية التي نصبتها تلك السلطات، وسبق أن أشرنا أن هذه التقسيمات الإدارية التي فرضتها السلطات الاستعمارية لا تستند إلى أي منطق سكاني أو جغرافي أو أي اسباب مقنعة بل تستند فقط إلى القاعدة الإستعمارية الجوهرية للسيطرة على الشعوب والبلاد المستعمرة وهي قاعدة فرق تسد، وقد أدى هذا الوضع العجيب إلى تقسيم الأسرة الواحدة بين أقطار متعددة وحصول كل منهم على جنسية مختلفة وبالتالي يصبح مواطنا لكيان آخر غير الكيان الذي استوطن به أبوه أو أخوه أو حتى زوجه، ونجد ذلك واضحا أشد الوضوح في جميع المناطق ذات الكثافة السكانية المتقاربة مثل فلسطين ومصر وشرق الأردن وسوريا ولبنان من ناحية، وسوريا والعراق وتركيا وايران من ناحية، واليمن والمملكة السعودية وعُمان وزنجبار ومنطقة الخليج والعراق من ناحية، وفلسطين وشرق الأردن وسوريا والسعودية ومصر والسودان من ناحية، والمغرب والجزائر وموريتانيا وتونس من ناحية، وكذلك مصر والسودان وليبيا من ناحية،

وهكذا لو مضينا بتتبع العلاقات لوجدنا القطر الواحد من الأقطار المحدثة مرتبطا بثلاث مجموعات أو اكثر من الأقطار المجاورة من جانب من جوانبه الاربعة إرتباطا وثيقا من جميع النواحي العضوية والسكانية والاقتصادية، فضلا عن ارتباطها جميعا دينيا وثقافيا وحضاريا بالإسلام.

إن هذه الأوضاع التي فُرضت على الأمة الإسلامية مزقت العلاقات القائمة وقطعت الأواصر المتينة التي لم تزل قوية منذ الفتح الإسلامي لهذه البلاد قبل أربعة عشر قرنا ونيف، وقد ترتب على إعتماد المواطنية والجنسيات الإقليمية المحلية أوحتى القومية نتائج أثرت في ديموغرافية الأمة الإسلامية وغيرت من طبيعتها التي بقيت تميزها عن غيرها من الأمم طيلة القرون السابقة، وأهم هذه النتائج:

ابتداع انتماءات غريبة

إن إضعاف الإنتماء الإسلامي يبرز أنواعا من الإنتماءات الوطنية تحت شعار الدولة الإقليمية أو القومية، وتنمية هذه الولاءات عن طريق ربط مصالح الناس بها بحيث لا يستطيع المسلم تحت الظروف الاقتصادية والإجتماعية إلا أن يتعامل معها إذ تصبح جميع مصالحه وأمور معيشته وعمله مرتبطة بالكيان الجديد، وبالتالي فإنه لا بد أن يدين له بالولاء، ويتم دعم ذلك أيضا عن طريق التربية والدعاية وتسخير مؤسسات التعليم والإعلام على اختلاف انواعها لإقناع الناس وتثبيت الولاء وبخاصة في الأجيال التي تنشأ في ظل الأوضاع الجديدة، فينشأ جيل ضعيف الولاء لدينه مقطوع العلاقة بسائر المسلمين، متقوقع على ذاته ضمن حدود دولته الصغيرة أو إقليمه أو قوميته. وهكذا يختل ركن أساسي من أركان الإيمان وهو الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين على اختلاف أجناسهم وأوطانهم وأصولهم، تلك الأخوة التي أكد عليها القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى إنما المؤمنون إخوة (الحجرات 10).

لقد اعتبر الإسلام العلاقات والإرتباطات التي تقوم بين المؤمنين إذا كانت قائمة على غير الأخوة الإسلامية ورابطة العقيدة، علاقة جاهلية لا يعترف بها الإسلام.

وعندما وقعت بعض المناوشات بين المهاجرين والأنصار وتداعى بعضهم إلى الإنتصار بالقبلية والعصبية خرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونادى بهم: دعوها فإنها منتنة (سيرة ابن هشام ج 3 ص 303). وقد بقى هذا الأساس العقائدي هو الأصل في الرابطة بين عناصر الأمة الإسلامية المتعددة الأجناس واللغات والقوميات والممتدة في مناطق جغرافية متباينة أشد التباين في جميع العصور التي سبقت العصر الاستعماري الحديث، حتى عندما كانت تقوم في المناطق الإسلامية المتعددة حكومات ودويلات منفصلة سياسيا عن بعضها بل حتى قد تكون متعادية وتقع بينها حروب ومخاصمات فإن ذلك لم يكن يؤثر على مواطنة الشعوب الإسلامية وانتمائها جميعا للأمة الإسلامية مع استقرار مفهوم المواطنة على هذا الاساس، وأنه حيثما وجدت نزاعات محلية أو قبلية فانها تعزى إما إلى الجهل أو إلى تدخل قوى أجنبية، وقد أيد هذا الفهم للواقع التاريخي للشعوب الإسلامية، المستشرق جرونيباوم (Modern Islam ص285).

هدر الطاقة البشرية

إن قوة أية امة من الأمم تنبع من عناصر معينة تجعل منها أمة قوية، تستمد قوتها من قوة العناصر المكونة لها وأهمها الطاقة البشرية والإمكانات الإقتصادية والموقع الإستراتيجي، وأهم من هذه العناصر كلها إمكانية تسخيرها مجتمعة في إطار ثقافي وفكري يصهر هذه العناصر ويستعملها مجتمعة لقوة الأمة الواحدة، فالعالم الإسلامي يشتمل على أكبر مجموعة سكانية في العالم تتحقق فيها عناصر التكامل، فالإسلام يمتد بشكل متصل عضويا وسكانيا في القارات الثلاث آسيا وافريقيا وأوروبا، وتضم الأمة الإسلامية شعوبا من القارات الثلاث ومن الأجناس الرئيسية المكونة لشعوب هذه القارات، من العنصر الابيض والأسود والمنغولي الأصفر، ففي أقصى شرق آسيا يشكل مسلموا إندونيسيا وماليزيا الأغلبية السكانية المطلقة في القطرين، وفي وسط القارة يشكل المسلمون في الهند وبنغلاديش والباكستان أكبر مجموعة سكانية متجانسة ثقافيا ولغويا على الرغم من توزعهم في ثلاث دول إثنتان منهما إسلامية، والهند فقط تعد المسلمين أقلية دينية، إلا أنهم في الحقيقة أكبر مجموعة متجانسة حتى في الهند وحدها لكثرة مافي الهند من أديان ولغات وثقافات.

وإلى الغرب من المجموعة الهندية يشكل المسلمون في إيران وافغانستان ومعهم الأقليات الإسلامية في وسط آسيا المجموعة الوحيدة التي تجمعها رابطة قوية ومؤثرة هي رابطة الإسلام، أما في غرب آسيا وشرق وشمال افريقيا فإن سكان الأقطار العربية ومعهم الاتراك ومسلمو وسط آسيا وبقايا المسلمين في أوروبا يشكلون أعظم المجموعات السكانية وأقدرها في هذه المنطقة، بل إنه لا يوجد غير المسلمين في كل هذه المناطق سوى أقليات.

العجز عن اتخاذ القرارات الصحيحة

لم يكن لحكام تلك الدويلات أي إرادة سياسية حرة، وبخاصة ما يتعلق بالخطط المستقبلية للدول الاستعمارية الغازية، ويتجلى هذا بوضوح في مواقف حكام الدول القطرية الإقليمية من مسألة التهيئة لإقامة دولة ووطن قومي لليهود في فلسطين.

ففي مشروع المعاهدة البريطانية مع الشريف حسين عام 1923 تضمنت تلك المعاهدة وعد من الشريف للقتال إلى جانب بريطانيا ضد الجيش التركي، ويتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن يعترف باستقلال العرب في العراق وشرق الأردن والحكومات العربية في الجزيرة العربية ما عدا فلسطين وتعهد صاحب الجلالة البريطانية بان لا يفعل في تلك البلاد (أي فلسطين) شيئاً يجحف بما للشعب من حقوق مدنية ودينية، أي أن فلسطين مستثناة من خضوعها للحكم العربي.

وقد اجتمع فيصل بن الحسين مع اليهودي الصهيوني وايزمن أحد مؤسسي الدولة اليهودية مرتين في العقبة ثم في لندن للتنسيق على تنفيذ وعد بلفور (الاتصالات السرية العربية الصهيونية ص 28-35).

وكذلك لقد وافق مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز آل سعود على السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين وأنه لا مانع لديه من إعطاء فلسطين للمساكين اليهود كما تراه بريطانيا، وذلك في كتاب وجهه إلى السفير البريطاني سير كوكس .

أما البلاد الإسلامية الأخرى فلم تكن أقل ابتلاءا في إصابتها بعدوى الوباء القومي الحاد. ولم يكتف الاتجاه القومي في تركيا بمهمة القضاء على الخلافة الإسلامية وإقامة نظام سياسي قومي علماني، بل حاول أن يجعل من القومية عقيدة تخلف الإسلام، وعمل على تغيير كل شيء في تركيا للقضاء على العقيدة الدينية ونشر العقيدة القومية الطورانية، وتدخل الحكم بخصوصيات الناس فمنع الرجال والنساء أن يرتدوا الملابس التي تمثل الإسلام، ومنع اللغة العربية باعتبارها لغة الإسلام،

وحاول أن يكون لتركيا ثقافة علمانية قومية وحمل الناس على كل ذلك بالإرهاب والإكراه، وظن الناس لفترة أن العقيدة القومية قد نجحت في تركيا واتخذ كثير من متنبئي القومية من أتاتورك قدوة لهم ومثالا يحتذونه، إلا أن الشعب التركي أثبت أنه لا يتخلى عن عقيدة الإسلام ولا يرضى بغيرها بديلا، وسقطت القومية كعقيدة وما زالت تسقط في تركيا وغيرها من البلاد الإسلامية، وتعد محاولات القيادة القومية في اندونيسيا إحدى المحاولات لإحلال العقيدة القومية الإندونيسية مكان العقيدة الإسلامية.

الخلل الاجتماعي

تشمل الأوضاع الاجتماعية كل ما يتصل بتنظيم حياة الناس وتصريف شؤونهم كالنظم السياسية والاقتصادية وما يتفرع عنها من قوانين وأنظمة ومؤسسات.
سبق أن أشرنا إلى أن قيام الدول القومية الحديثة في أوروبا كان نتيجة الصراع ضد النظم الاجتماعية الفاسدة المتمثلة بالإقطاع والنظم الملكية والكنسية، أما القوميات في آسيا وإفريقيا فقد نشأت معظمها نتيجة للصراع ضد الاستعمار الذي سيطر على تلك المناطق، ومن هذا الواقع فقد اتخذ التغيير السياسي والاجتماعي في معظم هذه الدول طابعا قوميا، لقد قامت القومية المبكرة في أوروباعلى العناصر التالية – في رأي احد كتاب القومية نديم البيطار في كتابه: (حدود الهوية القومية ص 205):

- المنطقة الجغرافية المعلومة الحدود.
- مجتمع ذو ثقافة مشتركة.
- التاريخ المشترك.
- حكومة واحدة.

وقد تابع القوميون العرب والشرقيون بشكل عام هذا الاتجاه، فساطع الحصري يرى أن أهم الأسس في تكوين الأمة وبناء القومية هو وحدة اللغة ووحدة التاريخ، لأن الوحدة في هذين الميدانين هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع ووحدة الآلام والآمال ووحدة الثقافة، وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة متميزة عن الأمم الأخرى، ويرى أن اللغة محور القومية وعمودها (ساطع الحصري: أبحاث مختاره في القومية؛ ص34).

ومع ذلك فإن هذه النظم لم تستفد من تميز الأمة على امتداد رقعتها الجغرافية في أكبر قارتين آسيا وإفريقيا بتوحد لغتها اللغة العربية التي لم تحظ بمثلها أي مجموعة بشرية في أي صقع من أصقاع العالم .

فلو نظرنا في قارة أوروبا على صغر حجمها لوجدنا فيها عشرات اللغات التي لا رابط بينها، بينما العالم العربي الذي تكاد تزيد مساحته على ضعف أوروبا يجتمع سكانه على لغة القرآن العربية وتمتد أقطاره في وثيق الصلة باللغة العربية بملايين المسلمين في القارات الثلاثة آسيا وإفريقيا وأوروبا .

لقد اتجهت أوروبا إلى تكوين إتحاد فيما بينها وليس بينها لغة مشتركة ولا تاريخ مشترك.

وعلى الرغم من كل ذلك، لم تستطع الدول العربية بإقليميتها وقطريتها أن تستقر هذه المجموعات الإسلامية الكبيرة بكل ما يجتمع لها من الخصائص العرقية والجغرافية وتشكل أعظم ثروة بشرية قادرة على حماية المنطقة والعمل فيها وتطويرها واستخراج خيراتها وتعميرها، وهي تتمم بعضها من الناحية الديمغرافية بشكل رائع، فالأراضي الشاسعة في السودان والجزيرة العربية تزودها الطاقة البشرية المتزايدة في مصر وبلاد الشام وتركيا والعراق وايران والجزيرة العربية، إن غير المسلمين يعترفون بأن الإسلام قد استطاع أن يذيب هذه المجموعات السكانية المختلفة الأصول والألوان ويجعل منها كلها أمة واحدة هي الأمة الإسلامية (المصدر السابق، ص 307 – 308) .

وعبر التاريخ الإسلامي كانت هذه الميزة في التكامل السكاني تمنح الأقطار الإسلامية حتى في حال تنازعها السياسي قوة بشرية عظيمة لكل منها، وقد كان للمسلم الخيار أن يقيم حيث يشاء في بلاد الإسلام فاذا اصيبت العراق مثلا بقحط في زراعتها وتدن في مواردها نرى أعداداً من السكان ينتقلون إلى مكة أو مصر أو حتى تطوان، أو ينتقل الحضرمي واليمني شرقاً لاندونيسيا وغربا إلى افريقيا ويستقر حيث انتقل أو يعود بعد زمن طويل أو قصير، وكما قال جرونيباوم: لم يكن يخطر على بال المسلم أنه يمكن أن يعتبر أجنبيا فوق أية أرض اسلامية ينتقل إليها، وإن أول خروج على هذه القاعدة قد حصل بعد سيطرة الدول الأوروبية الاستعمارية على البلاد الإسلامية ووضعها للحدود والقيود على المناطق التي استعمرتها (Grunebaum P.285).

إن قيام الدويلات الإقليمية والقومية قد قطع هذا التواصل والتكامل السكاني نهائيا حتى أصبحت بعض الأقطار الإسلامية مهددة بخلل سكاني عجيب إذ أن إمكاناتها الاقتصادية أقل بكثير من أن تلبي إحتياجات سكانها المتزايدة كما في بنغلاديش، أو العكس تماما حيث تعجز الدولة عن استعياب قوة دخلها واقتصادها لقلة عدد سكانها مثل دول الخليج التي تقوقعت على نفسها وأغلقت حول ذاتها أبوابها وليس بها سوى حفنة قليلة من الناس لا تكفي لاستخراج ما حباها الله به من كنوز الارض، مما أغرى بها الدول الأوروبية فأخضعتها لاستعمارها الجديد لتحتفظ بها مصدرا للمواد الخام وسوقا إستهلاكية لمواردها وصناعتها.

إن النتائج المترتبة على هذا التقاطع والإنغلاق بين أجزاء الوطن الإسلامي خطيرة، إلا أن أخطرها يتجلى في أمرين:

أولهما: إنفراد أعداء الإسلام بأي قطر على حدة فلا يشعر المسلمون في الأقطار الأخرى بالمسؤولية كما ينبغي للمسلم أن يشعر بها، إذ استقرت الإقليمية القطرية

في فكره وثقافته التي أشربها في المدارس القومية والإقليمية فيشعر أنه مصري أو عراقي أو سعودي أو كويتي أو ايراني أو باكستاني أو ماليزي فماله ولأقطار ليس اسمها من اسم قُطره، وأمثلة فلسطين وإريتريا وافغانستان وزنجبار أمثلة ما تزال حية في أذهاننا إذ ما زال المسلمون يذبحون فيها وبقية المسلمين ينظرون لما يجري بكل منها على أنه مسألة سياسية فلسطينية أو أفغانية أو إريتيرية أو غير ذلك.

وثانيهما: عندما يصاب أي قطر من أقطار الإسلام بمصيبة كالقحط أو الزلازل أو الفيضانات، فلو كانت أقطار الإسلام منفتحة على بعضها لاستوعبت الكارثة بالهجرة والمساعدات الفردية وزكاة الأموال والصدقات، ولكننا بعد أن أقمنا الفواصل والحدود قطعنا الأرحام التي بيننا، فلا جوع المسلم ولا مصيبته تعني المسلم الاخر، وإن حالة الدول المسماة إسلامية تعتبر أسوأ مثال على التقاطع، ففيها أغنى دول العالم مثل دول الخليج البترولية وفيها أفقر دول العالم مثل الصومال وبنغلاديش.

إن هذه الأوضاع تتناقض جذريا مع تعاليم الإسلام ففي الحديث الشريف: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى (صحيح مسلم حديث رقم 1774).

التخبط الاقتصادي

لم تلتزم الدول القومية والإقليمية بأي مباديء تقوم عليها كياناتها الإقتصادية, وتنكرت للمباديء الإقتصادية المستمدة من الإسلام مثل مبدأ تحريم وتجريم الربا، وأُنشأت معظم مؤسساتها المالية والإقتصادية على الأسس المالية والإقتصادية المستمدة من النظم الغربية, وسيطرت البنوك الربوية فيها على المفاصل الإقتصادية, وكان من أخطر نتائج تخبطها الاقتصادي أنها لم تستثمر الامكانات الهائلة للمنطقة العربية.

لقد مضى الزمن الذي كانت المجموعات البشرية تعيش كل منها منفردة بنفسها منفصلة عما عداها تحاول أن تنتج كل احتياجاتها لقد أصبحت إحتياجات الناس من التنوع والتعقيد بطريقة تفرض اعتماد الشعوب والأمم على بعضها في تأمين كثير من احتياجاتها أو لتصريف فائض إنتاجها.

وكلما كانت الأمة متنوعة الموارد متعددة القدرات والإمكانات الاقتصادية، كلما كانت أقوى على التحكم بمصيرها وأكثر استغناء عن غيرها وأقل خضوعا لما سواها.

ومن أجل ذلك عمدت الدول الحديثة حتى القوية منها والفتية على إقامة تجمعات واتحادات اقتصادية فيما بينها لتحقيق أكبر قدر ممكن من التكامل والتعاون والتبادل في المجال الاقتصادي كالانتاج الصناعي والزراعي وكل ما يتصل بأمور المال والاقتصاد.

وتعد السوق الأوروبية المشتركة ومجموعة شرق أوروبا الوارثة للإتحاد السوفييتي في أوروبا الشرقية من أكبر التجمعات الإقتصادية الحديثة، وقد حذت حذوها مجموعة دول القارة الأمريكية ومجموعة دول شرق آسيا، ومعظم هذه الروابط والاتحادات تفتقر إلى دعم الشعوب وايمانها بها وتجاوبها معها، وقد حبا الله الأمة الإسلامية بأعظم رقعة من الأرض تمتد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وتترامى على

كل محيطات العالم من المحيط الهادي في أقصى الشرق إلى المحيط الهندي ثم إلى المحيط الاطلسي في أقصى الغرب، وتضم أعظم بحار العالم، فالبحر الابيض المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود وبحر قزوين وبحر العرب تكاد تكون كلها بحيرات إسلامية، مرافقها وثرواتها في معظمها للبلاد الإسلامية المطلة عليها، وفي الأقطار الإسلامية مساحات لا حصر لها من الأراضي الزراعية التي تشقها أعظم أنهار العالم، لو استغلت أحسن استغلال لكادت تكفي الدنيا باسرها فضلا عن البلاد الإسلامية، وقد اودع الله في هذه البلاد من الكنوز والموارد ما يجعلها أغنى بلاد الكرة الارضية وأكثرها قدرة على الإستغناء عما سواها، ويجعل معظم أمم الارض بحاجة إليها.

إن تعطيل الإسلام كنظام سياسي واجتماعي وإقامة الكيانات القومية والإقليمية المتفرقة قد قضى على كل المكاسب التي يحققها هذا التكامل الاقتصادي فجعل من دول العالم الإسلامي المتفرقة الموزعة على دول قومية ضعيفة إما إقتصاديا أو سكانيا أو هما معا، وعلى دويلات اقليمية صغيرة، هي أعجز دول العالم وأفقرها وأضعفها بدلا من أن تكون أقواها وأغناها وأكثرها قدرة على التحكم بمصيرها ومصير الدنيا بأسرها.

وقد أدى التخبط باتخاذ قرارات تؤدي في الغالب إلى التفريط بمقدرات المجتمع والدولة الذاتية إلى الفشل الذريع في تنمية وتطوير إمكانات المجتمع الزراعية والصناعية مما أدى إلى تحول المجتمع من مجتمع منتج معتمد على ذاته إلى مجتمع مستهلك، ويمكن ملاحظة ذلك في تأخر الزراعة، فبعد أن كانت معظم هذه المناطق على الرغم من عدم امتلاكها للوسائل الآلية الحديثة إلا أنها كانت منتجة في الغالب لإحتياجاتها الغذائية و المعيشية، وأوضح مثال على ذلك مصر وبلاد الشام كلها، حيث كانت في الماضي مكتفية بمنتجاتها الزراعية ومصدرة للفائض منها، أما بعد قيام النظم الجديدة فقد أصبحت البلاد تحت رحمة مصادر الغذاء والدواء واللباس العالمية والاجنبية وتعطلت الأراضي الزراعية الخصبة في

وادي النيل في مصر والنهرين في العراق وسهول بلاد الشام التي كانت تصدر الحبوب إلى أوروبا بعد فائض غذائها.

أما في الصناعة فقد قضي على وسائل الإنتاج الصناعية البدائية التي كانت تلبي احتياجات المجتمعات المحلية، وفرض على المنطقة القبول بالإنفتاح التجاري الذي أدى إلى إغراق أسواقها بالمنتجات المستوردة مما أدى إلى القضاء على كثير من الصناعات المحلية التي استطاعت ضمن إمكاناتها التقنية المحدودة تكوين كوادر من العمالة المدربة القادرة على التعامل مع متطلبات السوق، أما في الوقت الراهن فإنه يكاد يقضى على وسائل الانتاج نهائيا وفي احيان كثيرة إلى هروب رأس المال المحلي وكوادره المدربة إلى أسواق خارجية مما زاد التخريب الاقتصادي للموارد والمهارات، وانتشرت البطالة الصريحة والمقنعة وزاد الفقراء حتى عادت الطبقة الوسطى من الموظفين والتجار والحرفيين إلى الهبوط إلى مستوى الفقر والحرمان.

تعطيل الموقع الاستراتيجي

إن أهمية العالم الإسلامي الاستراتيجية تنبع من عناصر عديدة تدعم هذه القوة منها المنطقة الجغرافية الواسعة التي سبق أن أشرنا اليها، ومنها السيطرة على الطرق البحرية والبرية والجوية بين القارات التي تمر عبر العالم الإسلامي، إلى القوة الاقتصادية والطاقات البشرية التي تجعل الأمة الإسلامية الأمة الوحيدة التي تمتد عبر قارات ثلاث، يسيرها ويوجهها كلها على اختلاف مواقعها وأجناسها ولغاتها دين واحد يؤلف بين قلوب أبنائها ويقارب بين ثقافاتها ويحرك مشاعر شعوبها إذا أحسن توجيهها، فتستطيع أن تشكل أعظم قوة حربية للدفاع عن المبادئ والمثل والقيم التي جاء بها الإسلام.

إن الأمة الإسلامية هي الأمة الوحيدة القادرة على أن تكبح جماح أي دولة تحدثها نفسها بفرض سيطرتها ونفوذها على غيرها من الدول لو تهيأ لها اتحاد يجمع بين شعوبها ويوحد طاقاتها البشرية والاقتصادية الهائلة لتشكيل قوة عسكرية للدفاع عن الحق وردع الباطل.

إن أقوى دول العالم اليوم لا تبني استراتيجيتها في الدفاع عن نفسها كدولة منفردة فحسب، وإنما تعمل على تكوين معسكرات وتحالفات في هذا العالم الذي لا حياة فيه إلا للقوي، وإن أخطر ما يواجه هذه التحالفات هو ضعف قناعة الشعوب بها وعدم قيامها على مبادئ الحق والعدل التي تقنع تلك الشعوب بدعمها والقتال من أجل نصر المبادئ التي تقوم عليها.

وإن العالم الإسلامي يتمتع بأفضل وضع إستراتيجي من هذه الناحية لو أن أنظمة الحكم فيه تبنت الانتصار للمظلومين والدفاع عن المستضعفين أساسا لاستراتيجيتها العسكرية. لقد كان الإسلام وما زال أعظم محرك للشعوب المؤمنة به للقتال الصادق والتضحية الحقة بالنفس والمال في سبيل المثل التي يؤمن بها المسلم، إن الشواهد تقف شامخة عبر التاريخ القديم عندما كان المسلم يقاتل في جبهة تمتد من أقصى غرب أوروبا في إسبانيا إلى أقصى شرق آسيا في الهند، ويتحرك الجندي المسلم المغربي ليعرض نفسه للقتل في خراسان أو حدود الصين ويقاتل التركي القادم من تخوم الصين في شرق ووسط أوروبا ويدق أبواب فينا ويقاتل في جليد روسيا ولهيب افريقيا ويرد فلول الصليبيين في فلسطين ولبنان والأردن .

أما في التاريخ المعاصر فقد أكدت حروب العرب مع اليهود أن العناصر الإسلامية وحدها هي التي أثبتت قدرتها وإمكاناتها في كل مرة، في حرب 48 على أرض فلسطين حيث كان متطوعو الإخوان المسلمين القادمين من شرق الأردن بقيادة عبد اللطيف ابو قورة، ومن سوريا بقيادة مصطفى السباعي ومن مصر بقيادة الكثيرين مثل كامل الشريف وغيره. وفي عام 1956 في حرب

السويس وفي حرب 67 تجلى فشل القومية التي بلغت أوجها وقمة سيطرتها على الشارع العربي بقيادة جمال عبد الناصر، الذي بنى استراتيجيته ومعه العرب على القومية العربية، فأصاب قومه والشعوب العربية والأمة الإسلامية بأعظم كارثة وأفدح مصيبة بضياع القدس وبقية فلسطين.

وفي عام 1973 عندما توجه المقاتلون في مصر توجها جزئيا بسيطا إلى الإسلام كاد جيل الهزيمة أن يحقق النصر لولا تسلط بقايا القوميين والإقليمين، إن هذه العناصر الثلاثة وغيرها من العوامل التي تعزز القوة الإسلامية والوحدة الإسلامية هي التي تجعل من المسلمين أمة قادرة على حماية نفسها، وتأديب أعدائها ودفع الظلم عن المظلومين وتحرير المستضعفين، إن وضوح القيم الإسلامية في منع الظلم ونصر الحق يشكل حماية وضمانا لشعوب الأرض كلها بأن لا تسخر القوة الإسلامية لإذلال شعب أو استعماره، فالمسلم لا يقاتل عصبية ولا حمية، قال تعالى: وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا (النساء).

الفشل في العلاقات الدولية

من المعلوم أن الأقاليم والدول المستحدثة في المنطقة إنما وجدت نتيجة تدخل الدول الاستعمارية، وإصرارها على تقسيم العالم الإسلامي الذي كان يشكل جسماً واحدا مترابطا تحت علم الخلافة العثمانية التي كانت تعاني من مشاكل متعددة هيأت لتنفيذ ذلك التقسيم، وكان من أهم عوامل نجاح هذا التقسيم شيوع الفكرة القومية التي اجتاحت أوروبا في نهضتها الحديثة وامتدادها إلى الأقطار الإسلامية وبخاصة القومية العربية التي قاد انبعاثها شريف مكة الحسين بن علي، وقادت بريطانيا أقوى الدول الاستعمارية آنذاك الاتصال مع عناصر القومية العربية وساعدتها في ذلك الدولة الفرنسية، ومن هنا كان لانبعاث الحركة القومية العربية

موقعين رئيسين أحدهما تحت الرعاية البريطانية؛ متمثلا بالمراسلات المكثفة بين الشريف حسين والممثل البريطاني مكماهون من القاهرة العاصمة المصرية، أما الموقع الثاني فكان تحت الرعاية الفرنسية التي ساعدت على تكوين التكتل القومي العربي تحت أسماء متعددة أهمها حزب العربية الفتاة الذي تكون في منطقة بلاد الشام متوازيا مع انبعاث القومية التركية الذي اتخذ إسم حزب تركيا الفتاة الذي دعا إلى القومية الطورانية. لقد نجح المندوب البريطاني في إقناع الشريف حسين بقيادة التوجه القومي العربي مبررا إياه بإحتلال إرث الدولة العثمانية في المنطقة العربية، وهكذا نجحت الإتصالات الدبلوماسية باشراف مكماهون إلى جر العرب إلى المشاركة في الحرب العالمية الأولى ضد الدولة العثمانية، وكان للموقع العربي والقوات التابعة له تأثير كبير في القضاء على الدولة العثمانية في المنطقة العربية.

وبعد انتصار دول الحلفاء على الدولة العثمانية وحلفائها، في الحرب العالمية الأولى تنكرت دول الحلفاء لوعودها للشريف حسين وباشرت فورا بتقسيم المنطقة في ما بينها، وأنشأت في ولاية سوريا وحدها أربع دول اثنتين تحت الإنتداب الفرنسي هما سوريا ولبنان وإثنتين تحت الإحتلال والإنتداب البريطاني هما فلسطين وشرق الأردن، وقسمت بقية المنطقة الإسلامية في آسيا بين بريطانيا وروسيا ووضعت روسيا يدها على جميع المناطق الإسلامية في وسط آسيا وبقيت كذلك حتى بعد القضاء على القيصر الروسي وقيام الدولة الشيوعية تحت إسم جمهوريات الاتحاد السوفييتي، وما زالت معظمها تحت الحكم أو النفوذ الروسي حتى الان.

أما بقية المنطقة الإسلامية في آسيا فقد كانت من نصيب بريطانيا وضمت الهند وايران والعراق والجزيرة العربية. أقامت بريطانيا في الجزيرة العربية تحت نفوذها دولتي اليمن والمملكة العربية السعودية، وأقامت في جوارهما دويلات ومشيخات صغيرة تحت الإدارة البريطانية مباشرة، وبقيت كذلك إلى ستينات القرن العشرين

حيث بدأ تحرك دولي واسع لإنهاء الحكم الإستعماري المباشر وهكذا أعطيت تلك الدول والمشيخات إستقلالها من الناحية الشكلية وتكونت بها حكومات تحت أسماء متعددة ولكل منها علم وعملة وتمثيل ديبلوماسي.

أما منطقة المغرب العربي فقد وقعت كلها تحت الاحتلال الفرنسي باستثناء ليبيا فقد وقعت لفترة محدودة تحت الاحتلال الإيطالي، وكذلك بقية المناطق الإسلامية في إفريقيا فقد تقاسمتها دول الإستعمار الأوروبي فقد كان لكل من إسبانيا والبرتغال وبلجيكا حصة في إفريقيا، وكذلك كانت مصر كبرى أقاليم الوطن العربي تحت الاحتلال الفرنسي ثم البريطاني، وعندما اجتاحت موجة التحرر من الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية أعلن عن استقلال الاقاليم العربية والافريقية إلا أنه بقي استقلالاً شكلياً وبقيت الدول تحت نفوذ وتوجيه الدول التي كانت مستعمِرة لها.

إن واقع الدول العربية بعد استقلالها وحتى الوقت الحاضر في غالب الامر أنها لم تستطع أن تقيم علاقاتها الدولية إلا ضمن إطار التبعية للدول التي احتلتها ثم كونتها، كما أنه لم تستطع أي من الدول العربية إقامة علاقات دولية مع الدول الأخرى بمعزل عن التبعية عن دول السيادة الأولى.

وعندما أُنشئت بعد الحرب العالمية الثانية عصبة الأمم المتحدة ثم بديلتها هيئة الأمم المتحدة لم يكن لدول القومية العربية أو الإقليمية إلا التبعية للإنضمام على الرغم من أن باكورة قرارات الأمم المتحدة هي التي تقرر سلخ قلب الأمة العربية عن جسدها وزرع كيان لا يمت بصلةٍ للمنطقة لا سكانيا ولا ثقافة ولا تاريخا ولا مصلحة وهو الدولة اليهودية باسم دولة اسرائيل، لم تزد الدول العربية المستقلة أو التي في طريقها إلى الإستقلال عن الشجب لقرار الأمم المتحدة عام 1947، وقامت دولة اليهود على أرض فلسطين، واكتمل الإستقلال للدول العربية الا أن أيا منها لم يجرؤ على التفكير في الإنسحاب من هيئة الامم المتحدة، بل ما زالت

هذه الهيئة تمهد بالموافقة أو بالتجاهل لكل ما ترتكبه الدولة اليهودية من جرائم في حق الارض والإنسان في فلسطين، ومازلت الدول العربية تسبح بحمدها.

إن الدول العربية قاطبة لم تبن علاقتها بأي من الدول الأخرى من منطلق مواقف تلك الدول من جرائم الكيان اليهودي، بل إن أفضل العلاقات وأمتنها هي العلاقات القائمة بين الدول العربية والدول التي أمدت الدولة اليهودية بأسباب القوة بحيث تكون هذه الدولة التي لا تعادل في مساحتها المغتصبة ولا في خليط سكانها الوافدين من كل أرجاء الأرض نصف عشر العالم العربي ولا عُشر عُشر العالم الإسلامي، أقول بحيث تكون هذه الدويلة قادرة على التغلب على كل الدول العربية مجتمعة، وقادرة على إسكات سائر الدول الإسلامية عن جرائمها، فهل استطاعت أي دولة عربية أو حتى إسلامية أن تقطب غضبا فقط على أي دولة من الدول الداعمة للدولة اليهودية سواءا من دول المعسكر الرأسمالي أو دول المعسكر الشيوعي والاشتراكي التي ما اتفقت مثل اتفاقها جميعا على حماية اليهود والسكوت عن كل جرائمهم في قتل النساء والاطفال واغتصاب الارض وحرق وهدم البيوت، فمن ذا يستطيع أن يزعم أن لأي رئيس دولة من الدول العربية وزن أي زعيم من زعماء اليهود في ميزان القوى الدولية.

وهكذا يثبت لنا أن كل ما تتمتع به الدول العربية من القاب لرؤسائها ومكانة لدولها ومواقع لدبلوماسييها إنما هي هباء في هباء ليس لها في ميزان القوة الدولية ولا الدبلوماسية العالمية أي وزن ولا أي احترام حقيقي. إن استجداء الإعتراف الدولي للدول العربية لم يكن سوى على نهاية الذل، بل لقد أمعن النظام العربي المعاصر في التدهور بل بالإنحطاط الدولي عندما أقدم على الدخول في إرتباطات سياسية وإعترافات دبلوماسية وإتفاقات إقتصادية مع الكيان اليهودي، وليت أن هذه الاتفاقات والاعترافات كانت لصالح الجانب العربي في أي منها، وإنما أدت كلها لتحقيق المزيد من المكاسب للدولة اليهودية على حساب المصالح العربية ومستقبل الوطن العربي، بل تضمنت في بعضها التفريط على مواقع جديدة

من الارض العربية في مصادر المياه العربية السطحية، ثم أمعنت في بعض نصوص الإتفاقات على التسليم لليهود بمصادر المياه الجوفية على الرغم من أن تصريحات المسؤولين العرب وإعلامهم تكرر دائما أن الوطن العربي وبخاصة في منطقة آسيا من أفقر مناطق العالم في المصادر المائية، وهكذا تثبت الدبلوماسية العربية فشلها في التعامل مع العدو على قاعدة من رعاية المصالح الآنية والمستقبلية ولا تكتفي برهن حاضرنا بل بتسليم مستقبلنا لعدو لا يرحم ولا يقف عند حد في أطماعه في أوطاننا ومقدساتنا وثرواتنا.

ولعل من أسوأ ما وقعت فيه الدول القومية الإقليمية في مجال العلاقات السياسية أنها تخلت عن الوازع الأخلاقي وبخاصة في علاقات هذه الأنظمة مع شعوبها بالمقارنة مع علاقاتها مع الدول الغربية، فقد تعاملت هذه الدول مع قضايا العالم الإسلامي بأدنى المستويات الأخلاقية والعدالة، ومع ذلك لم ترد عليها الحكومات الإقليمية إلا بمزيد من الخنوع والقبول، مع أن الإسلام حرم على المسلمين خيانة الآخرين ولو كانوا من أعدائهم .

قال تعالى: وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين. (الانفال 58).

وإن من أهم ما أكد عليه الإسلام الأخوة الإسلامية وعدم جواز موالاة الكفار والتحالف معهم ضد المسلمين بأية حال من الأحوال قال تعالى: " لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء" (آل عمران 28).

وقد سلكت الحكومات والحركات القومية التي تولت السلطة والحكم في البلاد الإسلامية عكس ذلك تماما وارتكبت أشد الجرائم الأخلاقية السياسية سواء على الصعيد المحلي أو الدولي، فعلى الصعيد المحلي مارست الحكومات القومية أقسى وسائل القمع والارهاب ضد شعوبها، وكان أقسى جرائمها ما ارتكبته في حق دعاة الإسلام، ويكفينا أن نذكر اسماء الشهداء من علماء الإسلام ورجال الدعوة

الإسلامية الذين اغتالتهم السلطات القومية في مختلف ديار الإسلام امثال: عبد القادر عودة، وسيد قطب، في مصر، ومحمد سعيد النورسي في تركيا، ومحمد باقر الصدر في العراق، ونواب صفوي في ايران وغيرهم كثيرين، من المغرب العربي غربا إلى إندونيسيا شرقا، ولم يخل قطر مسلم من شهيد لغدر القوميين والاقليميين.

أما على صعيد العلاقات السياسية الدولية فحسبنا الإشارة إلى ثلاثة أحداث سياسية ارتكبها القوميون العرب والأتراك والإيرانيون في حق الأمة الإسلامية وطعن الاخوة الإسلامية؛ أما العرب فقد تحالفوا مع بريطانيا إبان الحرب العالمية الأولى بحجة التخلص من الحكم العثماني، وعلى الرغم من الاخطاء التي وجدت في الدولة العثمانية إلا أنه لا يجوز طعنها سيما وأن الحليف ضدها عدو مستعمر فاجر، وقد كانت النتيجة من جنس الفعل قبحا وضرراً إذ كان جزاء العرب استعماراً لكل أوطانهم وتمزيقًا لوحدتهم وبيعًا لأقصاهم وفلسطينهم ونهباً لمواردهم واحتلالاً لأوطانهم.

أما تركيا القومية فلم تكتف بمحاربة الإسلام ومحاولة عزل الشعب التركي المسلم عن سائر الأمة الإسلامية وتزوير تاريخه الإسلامي وقطع صلته بثقافة الإسلام، وإنما وضعت تلك الحكومة يدها بيد الصهيونية الآثمة التي اغتصبت فلسطين وانتهكت الاقصى، في حين رفض الخليفة العثماني التركي عبد الحميد أن يتساهل في السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين وصمد في وجه كل التهديدات والاغراءات. ولعل عودة تركيا الآن عن انحراف الأتاتوركية، دليل على عمق ايمان الاتراك بدينهم ونسأل الله أن يجعل من عودة تركيا إيذانا لعودتها إلى حظيرة الإسلام وعزته ليبرأوا من تبعية النظم المنحرفة للغرب وحضارته.

أما إيران القومية في عهد الطاغية الشاه فقد كانت من أقرب الدول للكيان الصهيوني وكانت تزوده بالبترول والسلاح في الوقت الذي كانت قوات ذلك الكيان

تذبح المسلمين في فلسطين وفيما جاورها من البلاد العربية وتستمر في احتلال جزء من دار الإسلام، فيه الأقصى اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

وختمت بعض الكيانات القومية والإقليمية والمؤسسات السياسية التي قامت على نفس المبادئ اسوأ افعالها بالاتفاق مع الدولة اليهودية التي احتلت فلسطين وتعمل على اقامة هيكلهم المزعوم مكان المسجد الاقصى.

وهكذا يتبين لنا مدى التخريب الأخلاقي الذي مارسته النظم القومية والإقليمية، هذا التخريب الذي لم يقتصر أثره على فساد الأفراد من أبناء وبنات الأمة الإسلامية، وإنما تعدى إلى فساد النظم والدول والمؤسسات، ونتج عن ذلك ضعف مقاومة تلك الشعوب والدول لما يصيبها من نوازل ولما يجابهها من أعداء، ولعل في عجز الدول القومية والإقليمية في المنطقة العربية على الخصوص وفي العالم الإسلامي بشكل أعم، عجزها عن اللحاق بخصم الإسلام والمسلمين وعدو العرب دولة الصهيونية، لأكبر برهان على عجز هذه الانظمة وفشلها في الاستفادة من الإمكانات الهائلة التي تحت يدها لتتمكن من إنقاذ أقصاها ورد كيد المعتدي الآثم.

تعطيل مبدأ الشورى

يعد مبدأ الشورى أساسا رئيسا في نظام الحكم في الإسلام مع وجود الرسول الموحى إليه مسؤولا عن الدولة، والنصوص الدالة على ذلك واضحة لا تحتاج إلى تأكيد، إن تعطيل هذا المبدأ لا يمكن تغطيته بالمظاهر الخادعة تحت اسم الديموقراطية، مع أن الديموقراطية في النظم الغربية تختلف عن نظام الشورى الإسلامي إلا أن ما أطلق عليه اسم الديموقراطية في النظم القومية والإقليمية العربية لا يرقى إلى مستوى النظم الديموقراطية في الدول الغربية لا في أوروبا ولا في القارة الامريكية.

تعطيل القوة العسكرية للأمة

لقد أدى إشغال الجيوش وقوى الأمن الداخلي بمهمة حماية النظام القائم ورؤوسه المسيطرة كأولوية وطنية إلى صرف هذه القوات عن مهمتها الأساسية في حماية الحدود والدفاع عن الاوطان، وقد رأينا ذلك في مهزلة 1948 عندما تغلبت عصابات يهودية على جيوش نظامية، وأسوأ منها كارثة 1967 التي نجم عنها انهزام كل الجيوش العربية وترك الحدود والمواقع المقدسة والإستراتيجية تسقط في يد دويلة صغيرة في مساحتها وعدد سكانها بمواجهة دول وجيوش جرارة وأسلحة حديثة سخرت كلها لحماية الرؤوس والعروش، والأنكى والأكثر ألماً أن إعلام تلك الدول العميلة هللت بأن العدو لم ينتصر لأنه لم يقض على النظام القائم وأن ذلك أولى من المقدسات التي احتلت والأعراض التي انتهكت والأوطان التي ضاعت.
وزيادة في حماية النظم والرؤساء نجحت الأجهزة العسكرية والأمنية في الزج بالآلاف من أبناء الأمة رجالاً ونساءا في غياهب السجون لرفضهم السجود لأعمدة الطغيان، وأن هذا السلوك إنما هو عصيان للقانون وإرهاب يجب اجتثاثه، وأن لم تكف السجون فلا بأس من تصفية هؤلاء المتمردين إما بالاغتيالات أو في

السجون حتى الموت أو من خلال محاكمات تضفى على أحكام القضاة المسخرين لأجهزة الحكم صفة العدالة والحكم حسب الأدلة المفبركة، أو بانتزاع اعترافات بالتعذيب والترهيب.

لقد فاقت طاقة السجون في كثيرمن هذه الدول طاقة الأسرة المخصصة في مستشفيات الوطن لمعالجة المرضى، بل قد يزيد عدد المساجين أحيانا على عدد طلبة الجامعات في بعض هذه الدول، ومن ناحية أخرى زادت قبضة الأجهزة الإستخبارية التي لم توجه نشاطها بالدرجة الأولى إلى الدول أو القوى أو المنظمات المعادية للوطن كالدولة اليهودية على وجه الخصوص، وإنما سخرت جل قوتها وأمكاناتها إلى أبناء الأمة حتى سيطرت هذه الأجهزة في الغالب على القرار السياسي وعملت في معظم الأحيان على إفراز مؤسسات وقيادات سياسية وحزبية وسلطات تشريعية برلمانية أو ما شابهها مفصلة على قياس النظام بل على قياس رأس النظام والمتحكم بمقدراته ورجاله مهما أضفي عليهم من ألقاب الديمقراطية أو الشورية أو غير ذلك من المسميات.

استشراء الفساد

إن هذه الأوضاع العجيبة أدت إلى استشراء الفساد من كل نوع؛ سياسي واقتصادي، بل لقد أصبح رؤوس النظام وأباطرته أصحاب الألقاب الرنانة في محاربة الفساد وصدق عليهم المثل الشائع لدى العرب حاميها حراميها، ونجح رؤوس الفساد على مدى العقود التي سيطروا فيها على مقدرات الاوطان في جمع الملايين إن لم تكن المليارات من مال الأمة، وليتهم احتفظوا بهذه الأموال في محيط الأوطان وإنما هربوها إلى مؤسسات وبنوك خارج الأوطان خوفا من تغير الأحوال وقيام نظام عادل يحاسب المقصر ويعاقب السارق ويستعيد المنهوب، هذا

مع العلم أن الدول التي هربوا إليها هذه الاموال تستطيع في أي وقت وضع اليد عليها فتجمع عليهم خسارة المال وخسارة المروءة والامانة.

النتائج الكارثية للانقسام الإقليمي

كان التقسيم الذي طبقته الدول الأوروبية بعد انتصارها في الحرب العالمية الأولى قد قسم الوطن العربي إلى منطقتي نفوذ بريطاني على الوطن العربي كله في آسيا – باستثناء سوريا ولبنان اللتين كانتا ضمن الحصة الفرنسية– والعراق وفلسطين وشرق الأردن والجزيرة العربية ومصر والسودان لبريطانيا، وبقية شمال افريقيا بما في ذلك المغرب والجزائر وتونس وأقطار افريقية اخرى لفرنسا، إلا أن بريطانيا لم تسمح أن تكون الجزيرة العربية وحدة سياسية مجتمعة، وإنما تركت المملكة العربية السعودية على الحجاز ونجد وسلخت منها ما كانت تعرف بأهميتها كمواقع للنفط وجعلتها تحت إدارتها المباشرة، وعينت شيوخاً ورؤساء قبائل حكاماً تحت إدارتها المباشرة ووزعت عليهم ألقاب المشيخة أو الإمارة تمهيداً لخلق دويلات صغيرة منها قد لا يتجاوز سكان بعضها بضعة ألوف على الرغم من تحقيق استقلالها من الناحية الرسمية للدول التي ولدتها إتفاقية سايكس بيكو، بعد الحرب العالمية الثانية.

وعلى الرغم من أن هذه الكيانات الإقليمية القطرية حاولت بعد قيامها في بضع سنين إقامة كيان بديل عن الدولة الواحدة عن طريق تأسيس كيان يبدو أنه محاولة توحيدية تحت اسم جامعة الدول العربية، وقد تأسست هذه المنظمة بعد الحرب العالمية الثانية من سبع دول كانت في حينها تبدو أنها دول مستقلة، ثم تتابعت الدول العربية التي نالت استقلالها الشكلي الانضمام للجامعة حتى أصبح عدد الدول المكونة لها اكثر من 20 دولة، وعلى الرغم من مضي 70 سنة على تأسيس الجامعة العربية إلا أنها لم تستطع تحقيق أي مستوى من الوحدة ولا حتى

التقارب بين دولها، كما أنها لم تستطع بمجموعها أن تثبت لنفسها مكانة في العالم المعاصر لا من الناحية السياسية ولا العسكرية ولا الاقتصادية.
بل إن هذه الدول استطاعت أن تحقق إجماعا فيما بينها على مطاردة العناصر الرافضة لهذا الواقع من خلال دوائر المخابرات ومراقبة الحركات الإسلامية والوطنية.

فشل محاولات الإصلاح والتوحيد (تجربة جامعة الدول العربية)

قامت جامعة الدول العربية على مجموعة من الدول معظمها ملكي باستثناء دولتي سوريا ولبنان، ولم يكن في الواقع بين النظم الملكية أو الجمهورية إختلاف جوهري سوى في التسمية، بل كانت كلها قائمة على نوع من حكم الفرد الذي يدعى في مصطلح السياسة المعاصرة النظام الدكتاتوري، وبالتالي فقد كان النظام الإداري السائد في دول المجموعة منسجما مع طبيعة نظام الحكم الفردي السائد، وعلى الرغم من تتابع إجتماعات الساسة والخبراء في هذه الدول باستمرار إلا أنها لم تنجح في الإرتقاء بأنظمة الحكم فيها إلى مستوى الدول المعاصرة سواء أكانت ملكية أم جمهورية، ومع أن عددا من أنظمة الحكم في جامعة الدول العربية قد ألغت النظام الملكي وقامت فيها أنظمة على أساس جمهوري، إلا أنه تكرر فيها سيطرة حكم الفرد سواء سمى نفسه ملكاً أو رئيس جمهورية، ولو أضفى على نفسه ألقاب الشعبوية والجماهيرية، ولم يقم في أي من هذه النظم نظام قادر على التحديث الإداري أو المالي، ومع تفجر النفط في معظم الدول العربية الا أن نظم الحكم فيها لم تحول أياً من هذه الدول إلى دول مستثمرة لثرواتها الهائلة وإنما كانت كل الثروات الطبيعية التي حبا بها الله هذه المناطق تصب في جيوب حكامها وتكدست في أيديهم وأيدي أسرهم وأتباعهم المليارات، وبقيت جماهير شعوبهم تعاني من الفقر والبطالة، بل إن معظمهم لم يستطع مقاومة جشعه فينفق

على تطوير خدمات دولته وبناء مؤسساتها ما يعادل جزءاً بسيطا مما استحوذ عليه، مع أنه في أي مقياس منطقى وعقلي فإنه لا يحتاج إلى تلك المليارات التي اغتصبها من أمتة وشعبه ولم يستوعب أنه لو عاش الف سنة هو وأبناؤه فلن يستطيع انفاق هذه الاموال، كما أن كنزها لن يحميه من تحرر أفراد أمته، بل لقد أوغل كثير منهم في الإنفاق المجنون على نفسه وعلى من معه من أسرته وأتباعه واخترعوا ألواناً من الإنفاق المبالغ فيه في مساكنهم ومراكبهم وطلوا كثيرا مما يستعملونه بالذهب وغير الذهب، ومنهم من انغمس في نشاطات لا تحتاجها أمته من أنواع الرياضة يبدد فيها المليارات والأمة العربية والإسلامية فيها أفقر اهل الارض، وكان بمقدورهم أن ينقذوهم من عنت الحياة، بل يمكن القول أن واحداً من اصحاب المليارات قادر على إنقاذ شعب كامل من الشعوب العربية المحتاجة، ولكنه بدلاً من ذلك قد يبدد المليارات على موائد القمار في كل أرجاء الارض، وما وجدنا غنياً من اغنياء العرب بذل لانقاذ أمته أو مساعدة محتاجيها مثل أغنياء اليهود الذين بذلوا من أموالهم ما بذلوا حتى أقاموا دولة اليهود على أرض فلسطين، مع أن أغنياءنا أغنى من أغنيائهم وأن أموال أغنياء العرب تكفي لشراء القوة والحماية لفلسطين وغيرها من أقطار العرب والمسلمين التي تعاني من كل أنواع الفقر والحرمان، إنه على الرغم من كل هذا الغنى الفاحش لأغنياء دول النفط العرب بخاصة والمسلمين بعامة فإن معظم الدول التي ينتمون إليها لا تنتج شيئا من احتياجات شعوبها لا من الضروريات من الطعام والغذاء أو من ضرورات المعيشة أو كمالياتها، مع أن الاستفادة من التقدم العلمي والتقني لم تعد خافية على من يريد الإستفادة منها ومن ثم تطويرها وتحسينها وتوفير المبالغ الطائلة على شراء المنتجات الجاهزة، والمبالغة في إستهلاك ما ينتجه سواهم من الشعوب.

إنه لمن المخزي والمحزن أن الدول العربية التي فيها أخصب بقاع الارض وتجرى فيها أعظم أنهار العالم، وفيها من الأيدي العاملة الماهرة، أنها لا تستطيع تأمين

غذائها ولا دوائها ولا كسائها ولا ضرورات عيشها، ولعله من الأكثر خزيا ومهانة أن دولا أفقر منا بمواردها وأقل منا في سكانها ودُمرت في الحربيين العالميتين ثم نهضت وطورت مواردها واصبحت دولا صناعية وتقدمية نستورد منها الأسلحة والمنتجات الصناعية والتقنية بل حتى الأغذية. ولعل مثال ألمانيا واليابان وكوريا وغيرها من الدول في أوروبا وآسيا تعطينا مثلا صارخا على عجز دولنا سواء التي لا تحسن سوى استيراد كل ما يلزمها وما لا يلزمها، ومع أن دولنا أنفقت ثروات الأمة في شراء أسلحة بزعم حماية الأمة والدفاع عنها، إلا أن كل ما استوردناه من تلك الأسلحة لم ننجح في استخدامه لأن دولنا لم تستطع أن تهيئ الانسان لا روحياً ولا كفاءة، إنه لمن العار على دولنا أن تنهار ولا تصمد ساعات في مواجهة أسلحة الدولة اليهودية بينما استطاعت دولة لا تكاد تستطيع أن تطعم سكانها الخبز أن تهدد بأسلحتها وصواريخها أعتى دول العالم وترغمها على حساب قوتها الف مرة قبل أن تفكر في اجتياحها أو تدمير قدراتها العسكرية والتقنية، إن أنموذج كوريا الشمالية في مواجهة الولايات المتحدة وحلفائها يظل دليلاً محرجاً على عجز الدول العربية التي شغلها عن تطوير قدراتها أمران لا يخفيا على من أراد تحليل واقعها؛ الأول الفساد المالي في هذه الدول التي جمع حكامها أكداسا من الأموال حتى أشرفت خزائنها على الإفلاس، والثاني خوفها من شعوبها وانشغالها عن أعدائها الخارجيين وخوف هؤلاء المسؤولين من شعوبهم، والإنفاق الذي لا حد له على أجهزة القمع والملاحقة لأحرار شعوبهم الذين حاولوا التمرد على هؤلاء الظلمة الذين ازدادوا إمعاناً في الظلم والبغي والقمع والسجن والإرهاب لجماهير شعوبهم المغلوبة على أمرها، بل إن كثيرا من هؤلاء الطغاة لم يكتفوا بملاحقة الشباب الذين يخشون من تمردهم، بل أمعنوا في ملاحقة الزوجات والأمهات والبنات فزجوا كثيراً في السجون واعتدوا على الأعراض وشرف الأمهات والبنات ليزيدوا من إرعاب الابناء والآباء والاخوة لهؤلاء النسوة.

ومع أن جامعة الدول العربية قد توسعت قاعدتها بانضمام الدول التي استقلت مثل دول شمال افريقيا والإمارات والمشيخات في الجزيرة العربية وبعض المواقع الافريقية حتى أصبح عددها اثنتين وعشرين دولة، إلا أن ذلك لم يمنحها مزيداً من القوة أو التطوير الحقيقي الذي يحولها إلى دول تتناسب مع عدد سكانها وإمكاناتها المالية ومواقعها الجغرافية المهمة التي تخولها التحكم في أخطر المواقع وأهمها تأثيراً في العالم، ولا ينبغي أن يغتر أحد بالمظاهر الكاذبة لتلك الدول من إقامة الأبنية الشاهقة فيها وتكديس البضائع الاستهلاكية المترفة، أو استقدام الخبراء والموظفين من سائر أرجاء الدنيا حتى أصبح في بعض هذه الدول ممن يخدمهم بمختلف أنواع الخدمات المشروعة وغير المشروعة أكثر من مواطني هذه الدول أنفسهم، وصدق الله العظيم في وصف أمثال هؤلاء المترفين في قوله تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (العلق 6 و7).

وقد قامت محاولات عدة لتكوين تكتلات سياسية متفرعة عن المجموعة العربية الأساسية، مثل محاولات الوحدة بين سوريا ومصر، والوحدة بين العراق والأردن ، والوحدة المغاربية بين الأقطار العربية في شمال افريقيا والوحدة بين دول الخليج التي ضمت المملكة السعودية والامارات الخليجية، وقد انهارت جميع تلك المحاولات وفشلت في الاستمرار، ومع أن تجربة دول التعاون الخليجي بقيت قائمة شكلا إلا أنها لم تستطع تحقيق أدنى قدر من التوحيد بل حتى التنسيق في المجال السياسي فضلا عن الإقتصادي والعسكري، وأحسب أن ذلك عائدٌ إلى تجذر التوجه القُطري القائم على حب التفرد بالمكاسب المالية وعدم استعداد أي من هذه المكونات للتخلي عن أدنى قدر من ميزات مظاهر الحكم وألقابها التي يظنون أنها تجعل أحدهم في مصاف رؤساء الدول. وقد يقول البعض أن القبلية والعشائرية هي السبب، ولا أظن ذلك لأن معظم تلك الدول ترتبط ببعضها بأواصر أسرية وعشائرية وقبلية ولكن لم يستطع حكامها التخلي عن فرديتهم و حرص كل منهم على ذاته ومصلحته حتى في وجه إخوته و أسرته.

ولم تستطع أي من تجارب التوحيد والتجمع التي ذكرناها سابقاً أن تستفيد من تجربة الامم الأخرى مثل أوروبا التي استطاعت إقامة وحدة فيما بينها وحققت فيما بين دولها قدراً رائعاً من التعاون السياسي والاقتصادي والاجتماعي على الرغم من إختلافها في ثقافاتها ولغاتها، وتاريخها الذي امتلأ بالحروب فيما بينها من قبل، وأن دولنا العربية كلها موحدة اصلا في لغتها العربية ودينها وموقعها وتاريخها، ورحم الله الشاعر القديم الذي قال:

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقمتين وبالفسطاط إخواني .

الخلل الثقافي

وفي ظل هذا التوجه الاقليمي والتعصب القومي شاع مفهوم جديد للثقافة مكون من العناصر المحلية الإقليمية والقطرية، وقام هذا المفهوم على العناصر الخاصة لهذه الوحدات السياسية الصغيرة، لتبرز لكل منها ثقافتها الخاصة، مثل الثقافة المصرية أو العراقية أو السورية أو اللبنانية، بل إن المشيخات في الجزيرة العربية حاولت أن تخترع لكل منها ثقافتها المتمثلة بلهجتها المحلية، وبلباسها وبأنواع طعامها وبالعادات العشائرية الشائعة في كل منها مثل عادات الزواج والوفاة أو غير ذلك من العادات والعلاقات الاسرية والعشائرية، حتى لقد هبط مستوى التمايز فيما بينها أحياناً لمستويات يمكن أن توصف بالسخافه مثل لون غطاء الرأس (الكوفية) أو لباس المرأة بين العباءة والجلباب، أو الدشداشة الرجالية وياقتها مستديرة أو مستطيلة، وبشكل العقال فوق الكوفية رفيعاً أو ثخينا يتدلى منه حبل أو حبلان أو ثلاثة، أو بلا حبل وهكذا؛ حتى أن طريق التحية بين الرجال أو بين النساء لكل قُطر أسلوبه مع أنه قد يكون الإثنان أبناء نفس العشيرة أو الأسرة. وأُنشئت وزارة للثقافة في كل دولة أو مشيخة عملت على تبني الخصائص الثقافية لذلك الكيان، ولا تتجاوز هذه الخصائص ما ذكرتُ سابقا، ويضاف إليها ألوان

الطعام وأساليب الرقص وطرق الغناء وفنون الرسم أو النحت أو التصوير، ولا شأن لهذه الوزارات بالدين وتراثه وتاريخه وكتبه وسلوكياته فهذه أمور دينيه تختص بها وزارات أوهيئات دينية كالأوقاف والمؤسسات الدينية، وكأنهم يقلدون النظم الكنسية على الطريقة البابوية.

ظلقد غفلت الأنظمة القومية والإقليمية المعاصرة أن الإسلام دين والقرآن الكريم كتاب نظام شامل وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته وما نتج عنها من دراسات وفقه وعلوم كانت المصدر الأساسي لثقافات الشعوب الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، أما العناصر الأخرى فقد كانت لخمسة عشر قرناً عناصر ثانوية قد يتفرد ببعضها أقوام بينما يكون غيرها لغيرهم مصادر أو مظاهر ثانوية وفرعية تتمايز شعوب معينة فيها دون أن تؤثر تأثيرا عميقا واصيلاً في بناء الشخصية للأفراد ولا للجماعات تأثيراً يتعارض مع المصدر الأساسي للثقافة ألا وهو الإسلام بكل تراثه وتاريخه وأبعاده على الرغم مما تختص به كل منطقة من ديار الإسلام من ثقافات فرعية كانت تمد المجتمعات الإسلامية عبر القرون بما يغني ثقافة المجتمعات الإسلامية.

وقد استطاعت الثقافة الإسلامية أن تستوعب وتستفيد وتغني هذه المجتمعات بتداخل ثقافاتها الفرعية وتكون عوامل مغنية للشخصية الإسلامية سواء على مستوى الأفراد أو الدول أو المناطق على اتساعها وتلون وتعدد ثقافاتها.

ولقد كانت حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالاً لقبول ألوان الحياة من ملبس ومطعم ومظهر دون التقيد بنمط واحد ما لم يكن ذلك اللون أو الفرع مخالفا لمبدأ ثابت من مبادئ العقيدة أو السلوك أو الأخلاق الإسلامية التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على تقيد المسلم بها، فقد لبس عليه الصلاة والسلام العمامة والقلنسوة، ومشى حاسر الرأس، ولبس الثوب والإزار والرداء وأكل ما ليس محرما من الطعام، ولم يعِب على لهجة أو لغة أي من الناس، مع أن القرآن كان

يتلى غالباً بلهجة قريش لكنه لم يعب على اللهجات العربية الأخرى التي كانت شائعة آنذاك.

إن تمسك الشعوب الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي بالثقافة المستمدة من الدين الإسلامي وتراثه جعل من الأمة الإسلامية أمة قادرة على استيعاب كل شعوب الارض ولو اختلفت أصولها وألوانها ولغاتها، وأهّل الأمة الإسلامية لتحتل موقع الصدارة بين سائر الأمم، وإن الانسلاخ عن هذه الثقافة الجامعة إلى ثقافة الأقطار والأقاليم الفسيفسائية التي لا جذور لها ولا أصول تحول هذه الأقطار إلى أقطار أو دول مقزمة ليس لها وزن حضاري ولا ثقافي في عالم يموج بالثقافات التي تحاول الدول المعاصرة جاهدة توسيع قاعدتها وأصولها الحضارية لا أن تمسخها وتقزمها.

لقد تنبهت قوى الاستعمار إلى أهمية الوحدة الثقافيه بين أجزاء العالم الإسلامي، تلك الوحدة القائمة على العقيدة الإسلامية التي تحافظ على تماسك جميع العناصر المكونة للأمة الإسلامية,

وفي بداية نشأة الأمة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان الحذر من التفرق القبلي، إذ كان المجتمع الإسلامي في أول نشأته عربيا في معظمه، وعندما كانت تقوم بعض الخلافات القبلية كان عليه الصلاة والسلام يسارع إلى وأد تلك الخلافات مؤكدا على أهميه وحدة الأمة على أساس الانتماء للإسلام بصرف النظر عن القبيلة أو الموقع الجغرافي، وقد نجح الإسلام نجاحاً باهراً في هذا المجال وتوحدت الجزيرة العربية بأسرها تحت راية الإسلام لأول مرة في تاريخها، مع أن اللغة العربية لم تكن على لهجة واحدة آنذاك، فقد كان في جنوب الجزيرة في اليمن لهجتان؛ السبئية والحميرية، وفي الوسط في مكة وما حولها العدنانية أو القرشية، وفي الشمال وعلى تخوم الشام النبطية، ومع أن العناصر غير العربية كانت ضئيلة في المجتمع الإسلامي الأول مثل أعداد قليلة من الأفارقة الذين كانوا في معظمهم من العبيد المملوكين لبعض السادة أو من بقايا مهاجرين من الروم

أو الفرس إلا أن القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية أكدا بوضوح على إنسانية الأمة الإسلامية وعلى المساواة المطلقة بين عناصر المجتمع على اختلافها، قال تعالى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم (الحجرات 13).

وفي الحديث النبوي الشريف: يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. وقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع على أهمية وحدة الأمة وتحريم تفرقها لأي سبب مثل قوله تعالى: واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداءاً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها (آل عمران 203) .

من هذه الآيات وغيرها يتبين أن القرآن الكريم قد ساوى بين تفرق الكلمة والكفر لذلك كان المجتمع الإسلامي في جميع عصوره أشد حرصاً على وحدة الأمة في مرتكزاتها الاساسية على الرغم من وجود الخلافات السياسية أحياناً التي لم تكن ذات تأثير فعال على شعور جماهير المسلمين بالأخوة والتوحد فيما بينهم. لذلك حرص فلاسفة الفكر الاستعماري على تمزيق وحدة الثقافة والاخوة الإسلامية عندما وجدوا أن التغلب على الأمة الإسلامية لا يمكن أن يتحقق لهم بمجرد التغلب العسكري إذا لم يكن معه تفريق الوحدة الإسلامية ثقافياً وحضارياً. من هنا عملت القوى الغربية الإستعمارية على تشجيع وتكوين مختلف أنواع التفريق في الأمة الإسلامية بإيقاظ القوميات المتعددة داخل شعوبها، وتزيين كل منها في عقول كل قومية منهم مثل القومية التركية اولاً لأنها العنصر المسيطر سياسياً وحثهم على مزيد من التتريك للدولة العثمانية، حتى تتجه القوميات الأخرى في الدولة الى رفض الخضوع للقومية التركية، وشرعت القوى الغربية الاستعمارية بإقامة مؤسسات تعمل في كل قومية على الدعاية والتعصب لقوميتها، وانشأوا في كل موطن قومي متاحف خاصة لكل موطن حتى يزيدوا من التعصب والافتخار

بقوميته وتاريخه القديم وحضارته، على الرغم من اندثار كافة المرتكزات الأساسية لتلك الحضارات مثل الفرعونية في مصر، والبابلية والآشورية في العراق والفينيقية في بلاد الشام، والفلسطينية في فلسطين والفارسية في ايران والأمازيغية في المغرب، وهكذا، حتى لقد أدى نشاط هذه الدعوات العنصرية بخاصة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى الخوف على الانتماء العربي في بعض المناطق العربية لتقوم كبديل عنه انتماءات للقوميات البائدة مثل الفرعونية في مصر والفينيقية في سوريا وبعض مناطق شمال افريقيا، بل لقد بالغ بعض الكتاب في مصر وغيرها من البلاد العربية إلى ابتداع ما أطلقوا عليه حضارة البحر المتوسط التي تدعو إلى ارتباط مصر وشمال إفريقيا بالأقطار الأوروبية شمالي البحر الابيض المتوسط، وسمّوها "الحضارة المتوسطية" بديلا عن الحضارة العربية الإسلامية، وأمعن كثير من أمثال هؤلاء من أدعياء البحث عن التغيير إلى التخلي عن اللغة العربية، وحيث أنه كان من غير الممكن إحياء تلك اللغات القديمة الميتة فقد دعوا إلى تبني اللغات العامية في المنطقة، كالعامية المصرية في مصر، والعامية المغربية في المغرب أو البربرية في بعض اجزاء المغرب والصحراء المغربية، والعامية السورية واللبنانية في سوريا ولبنان والنبطية العامية في شرق الأردن، وحاول الإعلام الضال في هذه المناطق الترويج لهذه الدعوات الخبيثة ونشر مقالات وقصائد واغاني من تلك اللهجات، بل لقد بلغ تأثير هذا التوجه إلى عدد من الوعاظ والمشايخ الذين اشتهروا بين العامة في استعمال اللهجات العامية في مواعظهم ودروسهم، بل أحيانا في خطب يوم الجمعة، وربما ساعدت بعض المحطات الفضائية التي أصبح لها تأثير على كثير من جماهير الأمة إلى الترويج لهذا التوجه في الوعظ الإسلامي الذي لا ينبغي له أن يخرج عن أسلوب القرآن الكريم الذي هو المثل الأعلى الأصح للغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم.

فشل النظم التعليمية في الحفاظ على الوحدة الثقافية للأمة

لقد أدركت الثورات الأوروبية التي أنتجت الدول القومية الحديثة أهمية التعليم في تغيير مشاعر الناس ومواقفهم من الأوضاع القديمة، وفي غرس و إرساء القيم الجديدة التي جاءت بها هذه الدول الحديثة، ونظرا للجاذبية الشديدة لإتاحة فرص التعليم على أوسع نطاق فقد عملت هذه الدول على جعل التعليم عاما وإلزاميا من ناحية، وتوجيهه وجهة وطنية وعلمانية من جهة أخرى (شيفر؛ القومية عرض وتحليل، ترجمة جعفر خصباك وعدنان الحميري؛ ص441).

وتعد الولايات المتحدة الامريكية من أوضح النماذج على تحويل التعليم العام في مؤسسات التعليم الرسمية الممولة من الدولة إلى مؤسسات علمانية بحتة، ومنع تعليم الدين في هذه المؤسسات بأي شكل من الأشكال، وإذا استُبعد الدين من المدارس الحكومية فإن البديل هو الفكر القومي وقد قاد هذا الإتجاه نحو التعليم القومي في مدارس أوروبا وأمريكا إلى قدر كبير من التعصب القومي وغرس الكراهية لكثير من الشعوب الأخرى والترويج للمشاعر الاستعمارية، ففي الولايات المتحدة توصل باحث امريكي إلى أن المدارس الابتدائية عملت كأداة لبذر القومية التي لا تعلم الطفل كره الشعوب الأخرى واحتقارها فحسب وإنما تمجد نوعا محافظا من القومية (المصدر السابق ص 442).

وفي فرنسا لم يكن الهدف الأساسي نقل المعرفة للطلبة، بل إيجاد نوع من القيم المعنوية للدولة، وكذلك الحال في كل أقطار أوروبا سواء المانيا أو روسيا أو أمريكا الحديثة أو بريطانيا وغيرها من الدول، فإن الدولة تتوقع من المعلمين ومن الكتب المدرسية أن تقوم ببذر حب الوطن بتصوير التاريخ المجيد للأمة والبكاء على أخطائها وبإظهار خيانة وجبن وتمرد الأمم الأخرى ولا سيما في أوقات الحرب، وأن يتعلم الطالب حب الوطن سواء أكان على حق أم على باطل (المصدر السابق 442 – 448).

وقد لعبت المدارس في ظل الحكم النازي والفاشي في كل من المانيا وايطاليا إبان فترة الحرب العالمية الثانية وما سبقها وما تلاها دورا بارزا في نشر الغرور القومي في جميع الأقطار واستغل التاريخ لقلب الحقائق واشاعة التعصب القومي على أوسع نطاق.

وقد حذت السلطات الحاكمة في معظم أرجاء العالم الإسلامي حذو الدول الأوروبية الاستعمارية في علمنة التعليم، وفي الحقيقة فإن بذور النظم التعليمية في هذه الدول قد غرست مباشرة على يد السلطات الإستعمارية، وبمعاونة المؤسسات التعليمية التبشيرية التي قدمت بركاب الاستعمار ورعايته، ولم يكن الهدف من ذلك نشر التعليم والقضاء على الجهل في البلاد الإسلامية بل للقضاء على الشخصية الإسلامية، وإبعاد الأجيال المسلمة عن دينها، حتى تتخلى عن القيم الإسلامية وتتقبل القيم الغربية، وبذا تصبح أكثر طواعية للإستعمار والنظم التي يفرضها، والأهم من ذلك تستريح أوروبا من أخطر اعدائها وهو العالم الإسلامي بعد أن تنجح في تقسيمه إلى قوميات وأقاليم متفرقة، ويثبت هذا التقسيم ليس من خلال السلطات الحاكمة فحسب، بل في صميم فكر الشعوب فيقضى نهائيا على احتمال عودة الوحدة إلى العالم الإسلامي ولا يعود الإسلام عندئذ يشكل أي خطر على أوروبا.

وقد أفصح المستشرق جب عن هذه النيات في كتابه "وجهة الإسلام" ففي تحليله لواقع المجتمعات الإسلامية يعترف بعمق الوعي الإسلامي وقوة عناصر الوحدة الإسلامية على الرغم مما تعانيه الشعوب الإسلامية من ضعف وعلى الرغم من وقوعها تحت سلطات الدول النصرانية المستعمرة وينبه إلى عناصر قوة الإسلام ويرى أنها تكمن في الامور التالية:

أ- عقيدة التوحيد؛ إذ استطاع الإسلام المحافظة على هذه العقيدة في وجه كل العقائد التي احتك بها، ومنها النصرانية واليهودية والهندوكية وغيرها.

ب- قوة الثقافة الإسلامية؛ هذه القوة مكنت المسلمين من إضعاف بل محو الثقافات الموروثة للشعوب التي حكموها وبخاصة ما يتعارض منها مع المبادئ الإسلامية، نسي الناس في كل الأقطار تقريبا ما كان لهم من ماض قبل الإسلام، نسي المصريون فراعنتهم وطيالستهم، ونسي الأتراك خواقينهم وهلم جرا.

ج- قوة الرابطة الإسلامية بين المسلمين.

وكان يظن انه كلما زاد انتشار الإسلام كلما صار المثل الأعلى للوحدة التي كان يسعى لصناعتها عرضة للخطر وصارت رسالته الحقيقية عرضة لأن تضعف أو تعتل، ولكن عاملا ثالثا انبرى ليدرأ هذا الخطر وهو الاختلاط الدائم الذي ظل قائما بين أنحاء العالم الإسلامي، وكان الحج أقوى عامل في توثيق عرى هذا الاختلاط. ويرى جب أن وسائل الاتصال الأوروبية الحديثة خدمت العالم الإسلامي في توثيق روابط الإتصال بين أجزائه.

إن المشاركة في دين واحد وشريعة واحدة وثقافة واحدة أوجدت شعورا بالوحدة الإجتماعية، وتعني أن المسلمين في مجموعهم كانوا يشعرون بما بينهم من قربى وكانوا يظهرون عمليا في حياتهم الاجتماعية أَثَرَ هذا الاعتقاد، فالمسلم من المغرب يحس في الهند أو جاوة كأنما هو في مراكش سواء بسواء إلا في اللغة، وله الحق أن يغدو ويروح، ويتزوج ويقيم كما يشاء لان "دار الإسلام" كلها وطنه الذي لا وطن له سواه.

ويؤكد جب على أن الإسلام ليس دينا بالمعنى الذي يفهمه الأوروبيون بل هو مجتمع بالغ الكمال يقوم على أساس ديني، ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية، وأن إدخال أفكار جديدة على المسلمين بشكل مفاجئ يقود إلى سلسلة من الحركات السياسية والاقتصادية والدينية ويؤدي إلى القلق والازمة في العالم الإسلامي (المصدر السابق ص18).

وفي ضوء هذا التحليل يقترح جب ورفاقه أن لا تلجأ الدول الأوروبية إلى إحداث التغيير في العالم الإسلامي عن طريق فرض أنظمة جديدة، وذلك أن أنظمة الغرب السياسية والاقتصادية لا يمكن أن تنقل وتنجح أي نجاح إلا إذا شعر الناس أنها تفي بحاجتهم، ولا بد أن يمهد لهذا السبيل بنظام في التعليم يتفق معها، ويستطيع أن يخلق الحاجة اليها، ويكون في نفس الوقت رأيا عاما مستنيرا راقيا يمكن أن يوكل إليه استثمار الأنظمة الجديدة، ولكي يتفق مثل ذلك التعليم مع الأنظمة الجديدة لم يكن في طوقه أن يتفادى إدخال نظرة وفلسفة جديدة في الحياة.

ويشير" جب " ورفاقه إلى أن محاولات إصلاح نظم التعليم المبكرة لم تؤت الثمار المرجوة لأن الطلبة أخذوا للمدارس الفنية الحديثة بعد أن كانوا قد نشأوا في ظل نظام التعليم القديم، لذا فانه يقترح أن إدخال طرائق جديدة في الفكر، (أي تكفير المسلمين واضلالهم كليا) يتطلب نظاما جديدا في التربية من عهد الطفولة في المدارس الابتدائية والثانوية قبل الإنتقال إلى الدراسات العالية والفنية، وأن جهود الجمعيات التبشرية قد سدت الفراغ بالمدارس الفرنسية كاثولكية وعلمانية والمدارس الأمريكية والإيطالية واليونانية والإنجليزية، وان هذه المدارس جعلت التلاميذ قادرين على الإتصال المباشر بالفكر الأوروبي، فصاروا في مستقبل حياتهم مستعدين للتأثر بالمؤثرات التي فعلت فيهم فعلها أيام الطفولة.

واستطاعت هذه الخطة إنماء التعليم العلماني تحت الإشراف الإنجليزي في مصر والهند، وأن هذه النظرة ربت في التلاميذ خروجا على الأنظمة الإجتماعية والسياسية الأصيلة، وأدت إلى إضعاف النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ، وأدخلت في بناء المجتمع الإسلامي أداة هامة، وقطعت بعض الأواصر التي كانت تحفظ تماسكه (المصدر السابق ص 36 – 38).

وقد أثمرت جهود السلطات الإستعمارية وصنائعها من بعد، وترسخت أقدام التعليم العلماني في العالم الإسلامي، ويعد كرومر أحد حكام الإنجليز في مصر من

الذين أسسوا نظام التعليم المصري الذي أصبح النموذج المتبع في البلاد العربية بعد ذلك، وقد أفرزت هذه النظم التربوية الغربية عددا لا يستهان به من المتعلمين العرب كانوا أشد عداوة للإسلام من المستعمرين الأوروبين أنفسهم، وتولى بعضهم مسؤوليات مهمة أتاحت لهم مزيدا من التأثير في نظم التعليم والثقافة وأمعنوا في عزل الإسلام وإبعاده عن التأثير فيهما.

فسلامة موسى في كتابه "اليوم والغد " يريد أن تخرج مصر من آسيا وتلتحق بأوروبا، ويريد أن تكون الثقافة أوروبية، وأن يكون التعليم أوروبيا لا سلطان للدين عليه ولا دخل له فيه، وينقم على تعليم اللغة العربية في مصر لأنه ما زال بأيدي الشيوخ الذين ينقعون أدمغتهم نقعا في الثقافة العربية ثقافة القرون المظلمة(محمد محمد حسين،الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر؛ ص207 – 213).

أما طه حسين الذي شغل مناصب كثيرة منها التدريس في الجامعة وإدارة التعليم ثم رئيسا للجامعة ووزيرا للتربية والتعليم، فقد لخص محمد محمد حسين اتجاهه المعادي للإسلام والقائم على إقامة التعليم على أسس علمانية وقومية من خلال:

1- الدعوة إلى فصل مصر عن الحضارة العربية وقطع ما يربطها بالإسلام.
2- الدعوة إلى إقامة الوطنية وشؤون الحكم على أساس علماني لا دخل للدين فيه.
3- الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور ودفعها إلى طريق ينتهي بالفصحى لغة القرآن الكريم إلى أن تصبح لغة دينية فحسب كالسريانية والقبطية واللاتينية واليونانية.

ويدعو بشكل خاص فيما يتعلق بالتعليم إلى تحويله تدريجيا إلى تعليم مدني علماني باشراف الدولة، وقد ظهر أمثال سلامة موسى وطه حسين وغيرهما أعداد غير قليلة في شتى أرجاء العالم الإسلامي، وكانوا مؤيَدين من السلطات الحاكمة الاستعمارية أو الوطنية غالبا، وكانوا يمثلون الإتجاه الغربي في الحضارة والفكر من ناحية والإتجاه القومي والاقليمي من ناحية أخرى، ويقف في مواجهتهم، ويقود

الحملة ضد التغريب الثقافي والتربوي؛ التيار الإسلامي الذي كان يضم أحيانا بعض الوطنيين الذين بدأوا يدركون أهمية الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الغربي الثقافي والفكري (المصدر السابق؛ ص 213– 224).

لقد استطاعت الحملات الإستعمارية القادمة من أوروبا والاستغراب الداخلي أن ينجحا في تنفيذ الخطط التي وضعتها السلطات الإستعمارية للتعليم، وبإسم التحديث والتقدم وإدخال العلوم الحديثة والتكنولوجيا، وتحت شعار الحرية الشخصية، والمحافظة على حقوق الأقليات غير الإسلامية، وتحت لافتة الوطنية والقومية، رُفع شعار التعليم القومي والعلماني، وهكذا أصبحت مؤسسات التعليم العام الممولة من الأموال العامة التي تضم أبناء جميع فئات المجتمع وبناته مؤسسات علمانية غالبا، أما التعليم الديني الذي كان قائما من قبل في جميع أرجاء العالم الإسلامي فقد أخذ يتراجع ويتقلص، وتم القضاء عليه نهائيا في بعض البلاد الإسلامية مثل تركيا قبل عودتها الأخيرة إلى الثقافة الإسلامية التي لم تكتمل بعد، أو قطعت عنه المعونة وتم عزله ومحاصرته في أضيق نطاق في معظم البلاد الأخرى.

غير أن قوة العقيدة الإسلامية في معظم أبناء أمة الإسلام كانت تتغلب دائما على عناصر العلمنة والتغريب عن طريق تأسيس جمعيات ومؤسسات تربوية أهلية تعمل على تعويض ما عجزت عنه المؤسسات التعليمية الحكومية، ونراها قد نجحت نجاحا باهرا في تزويد أبنائنا وبناتنا بقدر رائع من التعليم والتربية وفق المنهج الإسلامي وتحصينهم في مواجهة محاولات لإقصائهم عن عقيدتهم وقرآنهم.

إن آلاف المتطوعين من معلمي القرآن الكريم في أرجاء العالم الإسلامي يشكلون جيشا حافظا لأبناء الأمة، وتُرى هذه الجماعات والجمعيات والأفراد في كل أرجاء العالم الإسلامي على الرغم من كل جهود خصوم القرآن وأعداء ثقافة الإسلام.

وإنه لمن المحزن أن نرى بعض المؤسسات التربوية التقليدية القديمة التي تعنى بتدريس الإسلام تبقى معزولة عن أن يكون لها دور فعال في البنية التربوية والثقافية في البلاد، ويرى اسماعيل الفاروقي أن العلمانيين الذين بيدهم السلطة، ومن قبلهم السلطات الاستعمارية تعمدوا إبعاد التعليم الديني عن الواقع وعن الأخذ بأسباب التحديث حتى لا يشكل خريجو هذا النوع من التعليم أية منافسة لخريجي التعليم العلماني.*(Ismail Al Faruqi; Islamization of Knowledge. P. 7)*

وقد انتهى الامر بمؤسسات التعليم الديني في البلاد الإسلامية لأن تكون واحدة من اثنتين، إحداهما أن تكون تابعة للسطات الحاكمة وتمول من قبلها، ويعد جميع العاملين فيها من الموظفين الرسميين للدولة بطريقة أو باخرى، وبهذا النوع قد ضمنت الدولة ولاءها وانضباط جميع العاملين فيها سواء بالترغيب والمناصب والرواتب ونحو ذلك من المغريات أو بالترهيب والتهديد بالحرمان من مصدر الرزق، وكلا الأسلوبين يؤدي إلى نفس المقصود وهو السيطرة عليها من أن تكون أداة للإنتقاض على السلطة العلمانية القومية والعودة للإسلام الصحيح، وعلى الأغلب فإن السلطات الحاكمة تبقي هذه المؤسسات في حالة أدنى من المؤسسات التربوية العلمانية في الإنفاق عليها فيبقى العاملون فيها والدارسون فيها أدنى منزلة من أمثالهم، ويبقى حبل السيطرة عليهم مربوطا بأيدي السلطات ولا يقبل على الإنضمام اليها للعمل أو الدراسة إلا القطاع الأدنى منزلة في المجتمع، ويسهم هذا الوضع بمزيد من تدني تأثير هذه المؤسسات في الأوضاع العامة.

فشل المؤسسات التعليمية في التطوير التقني والعلمي

لقد عجزت النظم التربوية في النظم القومية والإقليمية القطرية في البلاد العربية أن تستفيد من النهضة التربوية في أوروبا والولايات المتحدة على الرغم من تبعيتها السياسية لها، اننا نرى كيف استطاعت المؤسسات التعليمية في الغرب من تطوير مجتمعاتها وتنمية قدراتها من النواحي الصناعية وقادت التقدم التقني في تلك المجتمعات وساهمت مساهمة هائلة في تقدمها العلمي في كل المجالات التي أهلت تلك الدول للسيطرة على أسواق العالم في مجال الصناعات الحربية وغير الحربية مما جعل تلك الدول مصبا لثروات الشعوب الأخرى التي اعتمدت على استيراد منتجات الدول الصناعية المتقدمة، واكتفت دولنا القومية والإقليمية بأن تصبح سوقا لتلك المنتجات، ولم تساهم جامعاتها ولا مؤسساتها التعليمية على الرغم من الإنفاق الباذخ على أبنيتها والعاملين فيها في تطوير المجتمع تقنياً وصناعياً مثل الدول المتقدمة سواءا في مجال الصناعات الحربية أو المدنية.

لقد استطاعت بعض الدول النامية التي كانت أدنى مرتبة من بعض الدول العربية أن تبنى من خلال مؤسساتها التعليمية نهضة صناعية وتقنية وتصبح مصدرة لنا ولغيرنا مثل الصين و اليابان وألمانيا وكوريا.

وأخيرا قد يكون لأوروبا العذر في علمنة التعليم بعد علمنة الدولة وكل مؤسساتها سيما وأن تاريخ الكنسية كان حافلا باضطهاد العلماء وقتلهم وتعذيبهم بسبب الآراء العلمية التي نادوا بها وجاءت مختلفة مع التفسيرات الدينية كما حدث مع جاليليو وكوبرنيكس، أما في الإسلام فالأمر مختلف أشد الاختلاف، فالنصوص الدينية الثابتة من القرآن الكريم والسنة الشريفة ليس فيها إطلاقا ما يتعارض مع أي حقيقة علمية، بل ولا مع أية نظرية علمية مقبولة، وذلك أن الإسلام لم يتعرض لهذه الأمور بل حث المسلمين على التعامل معها بالبحث والتجربة والنظر العلمي المتجرد عن الميل والهوى، بلا قيود ولا حدود مقيدة للبحث والنظر والتسخير للإنسان سواء في ذلك السماوات وما فيها من نجوم وكواكب وشمس وقمر،

والأرض وما عليها من إنسان وحيوان ونبات ومواد، قال تعالى: قل انظرو ماذا في السموات والأرض، (يونس 101) وقال أيضا: قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شئ قدير(العنكبوت 20).

اللغة العربية في ظل النظم القومية والإقليمية

لقد تحولت أوروبا في عهدها القومي الحديث عن اللغة اللاتينية القديمة باعتبار أنها لغة العلم والأدب والمتعلمين، وكانت أول مهمات التعليم السابق لهذه المرحلة تدريس اللاتينية التي كانت تلعب دورا توحيديا بين الشعوب التي كانت تستعمل اللغة اللاتينية كلغة علمية، وبالتالي فإن الإنتاج الفكري وبخاصة الأدب كان باللغة اللاتينية، أما اللغات المحلية فهي لغات في الغالب تستعمل كلغة للتخاطب اليومي ولا تكاد يكتب منها ألا القليل النادر.

وقد مرت البلاد الإسلامية بهذه التجربة على إثر سيطرة الدول الأوروبية المستعمرة عليها، وشرع الإتجاه القومي الحديث ببعث اللغات القومية وإضعاف اللغة المشتركة بين الدول الإسلامية وهي اللغة العربية، وكانت أعنف الدول القومية في ذلك تركيا الأتاتوركية التي انسلخ نظامها السياسي عن الإسلام وحاول عزل الشعب التركي حضاريا وثقافيا مع إقتلاع اللغة العربية وإلغاء الحرف العربي وكتابة اللغة التركية بالأحرف اللاتينية.

وبتوجيه السلطات الاستعمارية تم إلغاء الكتابة العربية لدى المسلمين في الهند وماليزيا واندونيسيا وغيرها من الأقطار الإسلامية، أما البلاد العربية فقد قام فيها عدد من المستغربين الذين بذلوا أقصى الجهود لإلغاء اللغة العربية الفصحى واستبدال اللهجات المحلية العامية بها، ولو تم لهم ذلك لآل حال اللغة العربية إلى ما آلت اليه اللغة اللاتينية في أوروبا، إذ تلاشى نفوذها وضعفت الحاجة إليها

تدريجيا مع نمو اللغات المحلية حتى تحولت خلال مائتي سنة أو أقل إلى لغة مختفية لا يعرفها إلاحفنة من الدارسين لا يتجاوز استعمالهم لها مكاتبهم ولا يتحدثون بها حتى مع أزواجهم أو أبنائهم.

لقد وُئدت الدعوة إلى استعمال اللهجات المحلية بدلا من العربية الفصحى وكذلك باءت بالفشل المحاولات الصليبية الحاقدة لترك الكتابة بالحرف العربي واستعمال الكتابة اللاتينية بدلا من العربية، واندثر أدب دعاة الخيانة واندثروا ولم يخلفوا وراءهم إلا الخزي أمثال سلامة موسى وسعيد عقل الذين دعوا إلى قتل اللغة العربية الفصحى فيدعو احدهم بوقاحة :" أن ندرّس اللغة العربية الفصحى كما ندرّس الأشورية والبابلية، وأن ننظر إلى لغة النابغة والمتنبي كما ننظر إلى اللغة الروسية أو الإيطالية (محمد الغزالي؛ حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي؛ ص 191).

وقد فشلت كل تلك المحاولات، كما فشل إرهاب الدول القومية في إقتلاع لغة القرآن الكريم ومحبتها من قلوب المسلمين ولو لم يكونوا من العرب، وها هو الشعب التركي يرغم حكومته على إلغاء قوانين أتاتورك القومية الظالمة في منع اللغة العربية وعادت لتدريسها في مدارسها وجامعاتها، وتحقق وعد الله بحفظ القرآن العظيم وحفظت معه لغته العربية، قال تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (الحجر 9)، كما تحقق وعد الله في رفعة شأن العرب بين الأمم بفضل انتشار الإسلام وانتشار العربية لغة القرآن معه، قال تعالى : وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون (الزخرف 44).

التاريخ والتراث في ظل النظم القومية

لا شك أن التاريخ من أهم مصادر الثقافة والتراث، فمن خلاله يرتبط حاضر الأمة بماضيها لرسم طريق مستقبلها. وقد عمدت النظم القومية في أوروبا إلى إعادة كتابة تاريخ شعوبها في إطار القوميات المستحدثة، ونقب مؤرخو كل شعب عن جذوره التاريخية وأصوله. فبدأ بيرتز (Pertz) بتحرير تاريخ ألمانيا، وشرع فرانسو جيزو (Francois Guizot) بتوثيق تاريخ فرنسا، وأصدر البرلمان البريطاني إذنا بنشر الوثائق المتعلقة بتاريخ بريطانيا، وقد حدثت هذه المبادرات كلها بين 1820و 1838. وعلى الرغم من أن معظم المؤرخين كانوا علميين وموضوعيين إلا أن تعصبهم القومي قاد أغلبيتهم إلى المبالغة في إطراء أممهم والحط من شأن الأمم اخرى، وقد اهتمت الولايات المتحدة بشكل خاص بتنظيم الجمعيات التاريخية لسد الحاجة إلى ماض قومي تاريخي اسوة بالأمم العريقة الأخرى، وقد عمد المؤرخون في كل قطر إلى إبراز أسماء أبطال تاريخهم ليجعلوا منهم قدوة للشباب من بني قومهم، وبرزت أسماء أُلبست هالات من البطولة أو القداسة قد يكون فيها قدر كبير من المبالغة وبرزت أسماء امثال جان دارك ونابليون وجورج واشنطن وجون بول وروبن هود وفريدريك الأكبر وغيرهم (المصدر السابق؛ ص 446 – 448).

وقد وُجهت عناية خاصة كذلك لكل أنواع التراث القومي المحلي كألوان الطعام والألبسة باعتبار أنها تساعد على إبراز الطابع القومي، وأقيمت متاحف الآثار المحلية لتسجيل وتوثيق كل ما يؤكد التميز القومي وارتباط الشعوب بالمناطق التي أصبحت تعرف بها.

وقد بذلت الدول الأوروبية جهودا حثيثة في جميع البلاد الإسلامية لتدعيم الإتجاه القومي والإقليمي حيثما أمكن ذلك وكما يقول محمد محمد حسين: وأعانت الدول

المحتلة على تدعيم قداسة الاوطان الجديدة بأسلوب علمي بمساعدتها على إحياء التاريخ القديم لكل قطر.

ونشطت الحفريات للبحث عن الحضارات السابقة للإسلام في كل من سوريا والعراق ومصر، وراح كل بلد يفاخر بمجده العريق وانشغلت الصحف بالكلام على الكشوف الاثرية، وما تدل عليه من حضارات البابليين والآشوريين والكلدانيين والحثيين والفينيقيين والفراعنة، وكان أصبع الغربيين واضحا في هذه الجهود، فقد ظل المسلمون أدهارا طويلة وهم غافلون عن هذه الآثار، بل لا يذكرونها إلا في معرض ذكر الأمم البائدة، ويشير محمد محمد حسين في كتابه عن الآثار البائدة للشعوب التي عاشت في المنطقة وإلى حملات التنقيب عن الآثار التي قادتها بعثات أوروبية وأمريكية وأنفقت تلك الدول بسخاء على هذه الحملات وشجعوا على إقامة معاهد الآثار والمتاحف الأثرية في كل قطر، فقد تبرع روكفلر مثلا بعشرة ملايين دولار سنة 1926 لإنشاء متحف ومعهد للآثار الفرعونية في مصر، كما أسهم كُتاب أوروبيون وبعض الكتاب العرب من المتعاونين مع حملات التبشير بإعادة كتابة التاريخ، فقد كلف الآباء اليسوعيون في بيروت ثلاثة من الرهبان بكتابة تاريخ بلاد الشام فقسموه إلى ثلاثة عصور: العصر الآرامي والفينيقي، والعصر اليوناني والروماني، والعصر العربي (محمد محمد حسين؛ الاتجاهات الوطنيه في الادب المعاصر؛ ص 126 – 128) .

وقد أغرت هذه الجهود لا في بعث الشعور القومي فحسب، بل وفي إحياء النعرات الإقليمية الاضيق من القومية وبخاصة في المنطقة العربية، وظهر دعاة إلى عودة مصر إلى الفرعونية وقطع علاقاتها حتى بالعرب فضلا عن المسلمين، ودعا كاتب مثل طه حسين في الثلاثينيات إلى أن ارتباط مصر بمجموعة أقطار حوض البحر الأبيض المتوسط أقوى من ارتباطها بالشعوب العربية والإسلامية، وبذلك تكون مصر أقرب إلى اليونان وإيطاليا وفرنسا، منها إلى سوريا والحجاز فيقول طه حسين مثلا: لا تصدق ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون

للعروبة، فالفرعونية متأصلة في نفوسهم وستبقى كذلك، إن الاكثرية الساحقة من المصريين لا تمت بصلة إلى الدم العربي بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء، ورفض احمد لطفي السيد أي رابطة لمصر مع العرب.

أما في سوريا فقد نادى أنطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري برفض القومية العربية على أساس أن الأمة السورية أمة مستقلة بذاتها ومنفصلة عن شعوب المنطقة، وأن الدعوة إلى العروبة "مرض نفسي شوه العقل السوري والادراك والمنطق" ونعت العقلية العروبية بانها لا قومية واتكالية ولا تعميرية أي لا تشجع على العمران والحضارة (السيد ياسين؛ تحليل مضمون الفكر القومي العربي؛ ص 96 – 97)، وقد جمح الخيال بالكثير من دعاة الإقليمية ووقعوا في تناقض غبي عجيب، إذ بينما نراهم يرفضون الإسلام بحجة أنه رجعي قديم نراهم يتحمسون لبعث حضارات بائدة، فنرى كاتبا مثل محمد حسين هيكل إبان ضلاله الفرعوني يدعو إلى العودة حتى إلى الوثنية الفرعونية، وينادي إلى إقامة النهضة الحديثة على بعث المجد الفرعوني القديم مثلما قامت النهضة الأوروبية على بعث المجد اليوناني واللاتيني القديم، وذلك بالبحث في مواضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتب العقائد وطقوس العبادة، بل يذهب في خياله إلى أبعد من ذلك فيتخيل الفرعونية دينا جديدا سيغزو العالم بمبادئه (الاتجاهات؛ محمد محمد حسين، ص 136).

وقد أدى قيام الجامعة العربية إثر الحرب العالمية الثانية إلى تثبيت الكيانات الإقليمية العربية، إذ قامت هذه المؤسسة على الاعتراف بهذه الكيانات والتنسيق فيما بينها، وبالضرورة فإن ميثاقها يؤكد على شرعية هذه الدول وبالتالي عدم جواز التعرض لأي قطر من هذه الأقطار أو الغاء كيانه ولو بقصد توحيد قطرين أو اكثر دون موافقة السلطات الحاكمة فيه.

لقد أدى هذا الوضع إلى ثبات هذه الدويلات بل وازدياد عددها إلى اثنين وعشرين دولة في قارتي آسيا وافريقيا، وإلى قيام كل منها ببعث تراثها المحلي وإنشاء

المتاحف والتنقيب عن الآثار المحلية ومحاولة إيجاد مُتكآت حضارية وتاريخية وثقافية وتراثية لكل دويلة من هذه الدويلات، وعلى الرغم من أن هذه الدول لا تزال تدّعى قولا بأنها دول عربية إلا أنه في الحقيقة ليس بينها من الإتصال والإنفتاح ما بين أي منها وبين أكثر الدول الأجنبية.، فلا يستطيع العربي من دمشق أو عمان أو القاهرة مثلا أن يسافر إلى الكويت أو أبو ظبي أو الرياض أو حتى مكة والمدينة دون الحصول على تاشيرة قد يحتاج إلى أشهر للحصول عليها، أما الإقامة في تلك الأماكن فهي ضرب من المستحيل إلا من خلال إجراءات معقدة وطلب للعمل بشكل رسمي ومقنن، أما حق تملك العقارات ونقل الأموال بين هذه الأقطار فمعدوم نهائيا وبينما يستطيع أي مواطن من هذه الدول أن يتملك في إنجلترا وفرنسا أو أمريكا وكندا وأستراليا دون أي تعقيد فإنه لا يستطيع أن يمتلك ولو بمقدار قبر في أي بلد عربي غير بلده حتى ولو ولد في ذلك البلد طالما أنه لم يحصل على جنسيته، وقد ازدادت الإقليمية رسوخا في تطور وسائل الإعلام في السنوات الاخيرة، إذ أسهمت الإذاعات والصحف ثم التلفزيون ووسائل الاتصال الحديثة على إبراز اللون المحلي واللهجة المحلية واللباس المحلي في كل قطر من هذه الاقطار، وشجعت الحكومات القائمة على هذا التوجه عبر وسائل الإعلام الرسمية والمسرحيات والأفلام ونحو ذلك.

ومن الطبيعي أنه كلما زادت الإنقسامات وكلما صغرت دوائر التاريخ والثقافة والتراث، كلما كان ذلك أبعد عن الإسلام الذي يرفض التشرذم والتفرق السياسي أو الثقافي، ومن هنا حرص الإسلام على تحقيق أكبر قدر ممكن من الثقافة المشتركة بين المسلمين بتوجيه المسلم إلى أنماط معينة من السلوك كطريقة الأكل والشرب والنهي عن أنواع معينة من اللباس أو مظاهر العيش حتى يتحقق بين افراد الأمة الإسلامية وشعوبها أكبر قدر ممكن من السلوك وأنماط المعيشة لتوثيق أواصر الأخوة الإسلامية والوحدة الإسلامية القائمة أصلا على وحدة العقيدة والاشتراك في أساليب العبادة والعادات الإسلامية الحميدة، كما أن الإسلام لم

يشجع النظر إلى الآثار البائدة إلا من خلال الاتعاظ بما أصابهم من اندثار وزوال نتيجة إغراقهم في الظلم والفساد وطغيانهم كقوله تعالى: ألم تر كيف فَعَلَ رَبك بعاد، إرَمَ ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصبّ عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد. (الفجر 6– 14).

والغريب في منطق القومية العربية الحديث أنه يرفض الرابطة الإسلامية خوفا من أن تؤدي إلى انقسام بين العرب المسلمين وغير المسلمين، فساطع الحصري يعترف بقوة الرابطة الإسلامية إلا أنه يرى في وضع مصر كمثال أن وجود ما يقارب من مليون ونصف مسيحي فيها يفرض إيجاد رابطة تجمع بين جميع أبنائها وأن الرابطة الوطنية والقومية يجب أن تتقدم على الرابطة الدينية (46).

إن قراءة تاريخ العرب تظهر المغالطة الواضحة في ما ذهب اليه القوميون وتؤكد أن العرب كانوا متفرقين قبل الإسلام وأنهم اتحدوا سياسيا وثقافيا وبشريا في ظل نظام الإسلام فقط، وأنهم عادوا للتفرق ومعاداة بعضهم بعضا في ظل الحكم القومي والاقليمي الحديث، وأن انضمام غير العرب إلى الدولة الإسلامية كان مصدر قوة لهذه الدولة مكنتها من رد أخطر تحديين في تاريخ المنطقة التي يقطنها العرب من العالم الإسلامي؛ التحدي الصليبي، هزمه الكردي المسلم صلاح الدين الايوبي، والتحدي المغولي، هزمه التركي المسلم قطز. وأن تاريخ العرب لم يعرف فترة أسوأ من المرحلة الحاضرة التي يمرون فيها إذ يملكون أعظم مصدر من مصادر القوة الإستراتيجية والإقتصاية، وليس هناك أي بوادر أن العروبة بطريقها إلا إلى مزيد من الضعف والخذلان.

وقد سجل القرآن الكريم حالة الفرقة والخذلان في ظل الجاهلية، وحالة الألفة والوئام في ظل الإسلام، قال تعالى : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ آل عمران 103﴿.

ولعل ما يجرى الان من اقتتال أبناء القطر الواحد فيما بينهم مثل ما جرى في العراق وسوريا واليمن وليبيا أوضح دليل على فشل الرابطة الإقليمية بل والرابطة القومية، وخاصة في ظل الخلافات بين الأقطار العربية التي تحولت في اكثر من موقع إلى حروب مدمرة للإنسان والإوطان.

تجربة الفكر اليساري

في ضوء الفشل الذريع للنظم القومية والاقليمية توجه عدد من المفكرين والدارسين العرب إلى تبني الافكار التي راجت في اوروبا بداية القرن العشرين، وبخاصة الفكر الشيوعي الذي تبنته روسيا آملة أن يمتد منها إلى سائر القارة الاوروبية ومنها إلى سائر أنحاء العالم. وهكذا تأسست أحزاب وحركات على أساس المباديء اليسارية التي تبنت الفكر الماركسي الشيوعي من النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية التي دعت إلى محاربة الدين ؛ أي دين.

وانتشرت الأحزاب والحركات اليسارية في كثير من الأقطار الاسلامية ومنها العربية، وظن هذا الفريق من اليساريين أنهم سينجحون في إنقاذ أوطانهم من الفساد السياسي والخلل الاقتصادي، وأنهم سينقلون أقوامهم من الفقر إلى الغنى، ومن التخلف إلى التقدم، وعلى الرغم من سقوط وفشل التجربة الشيوعية في مهدها روسيا، إلا أن عددا من الأحزاب اليسارية في البلدان العربية وغيرها التي وجدت فيها هذه الأحزاب بقيت تدافع عن وجودها كمنقذ لواقع أقطارها، ولم يعد لتلك الأحزاب والحركات سوى مواقعها الهزيلة على الخارطة السياسية، ولم تستطع خلال ما يزيد عن نصف قرن من وجودها في ديار الاسلام أن تقدم للأمة أية بارقة أمل لا في الاصلاح السياسي ولا الاقتصادي.

تسلط الاحباط واليأس على المخلصين

لقد أدت هذه المعايب في أنظمة الحكم إلى إصابة الأكثرية من أبناء الأمة وبخاصة المحبين لأمتهم وأوطانهم الحريصين على مصالحها بالإحباط واحياناً باليأس من تحقيق الإصلاح الحقيقي لأحوال الأمة.
وقد أدى انتشار مشاعر الإحباط واليأس إلى انقسام أبناء الوطن بالنسبة لمواقفهم من هذه الاحوال إلى طوائف:

الطائفة الأولى: هي طائفة عجزت ثم يئست عن إحداث التغيير المنشود في الواقع السيء، ولم تغامر في تحدي النظم الطاغية التي تتربص بكل من يتصدى حتى لتوجيه النقد أو الإشارة لمواقع الفساد والبغي والنيل منهم وإيقاع الأذى عليهم وتهديد حياتهم أو حياة أسرهم وذويهم، ومحاربتهم في أرزاقهم، وإقصائهم عن أي موقع فيه نفع لهم أدبي أو مادي؛ إن هؤلاء من أبناء الوطن آثروا الانطواء على أنفسهم والانسحاب من أي نشاط قد يؤدي إلى ايقاع الاذى بهم والإنصراف إلى شؤون حياتهم والإبتعاد عن الإهتمام في الأمور العامة، وقد يرضون عن أنفسهم أنهم لم ينغمسوا في الفساد ولم يصبحوا جزءاً من أركانه وأعوانه واكتفوا بالإنكار بالقلب.

الطائفة الثانية: وهي الطائفة التي لم ترض بما يصيب الوطن من بلاء، ولم تستطع أن تنسحب أو تختار الانطواء على الذات، ولم تكتف بالإنكار بالقلب وهو رخصة بالمفهوم الإسلامي، وإنما اختارت ممارسة محاولة التغيير ولكن دون المجابهة العلنية خوفاً من بطش السلطة فالتجأت إلى العمل السري، لمحاولة النيل من أركان النظام الفاسدين، وكثيراً ما تقع هذه الطائفة في اجتهادات علمية أو شرعية خاطئة تزين لهم مشروعية تصرفاتهم التي قد تستحل دماءً وأموالاً لا يقر

المنطق الوطني ولا الدين الصحيح استحلالها، وغالبا ما يغيب عن عقولهم واجتهاداتهم أن اغتيال فرد أو أفراد لا يصلح واقعا ولا يردع ظالما بل قد يؤدي إلى تسلط من هو أظلم من الأول وأطغى، وقد ذاقت بعض البلاد الإسلامية بل وغير الإسلامية نتائج كانت في منتهى السوء سواءا من قبل السالكين لهذا النهج أو من قبل السلطات الحاكمة التي كثيرا ما تبالغ في الإنتقام ممن ارتكب أو ممن لم يرتكب تلك الأعمال، إن انتشار هذا الأسلوب يمكن أن يوقع البلاد في حالة من عدم الأمن والاستقرار وسوء الواقع المعيشي لكل أبناء الوطن في كل صنف ولو كان بريئاً.

الطائفة الثالثة: وتضم هذه الطائفة كثيراً من أبناء الوطن المحبين لبلادهم الحريصين على استمرار الحياة على أدنى قدر من الإستمرارية ما أمكن ذلك، مع العمل لإحداث الإصلاح ولو بشكل جزئي تطبيقا لمبدأ ما لا يدرك كله لا يهمل أو يترك بعضه، إذ عسى أن يكون مثل هذا الإصلاح الجزئي المحدود فاتحة لمزيد من الإصلاح من ناحية، وإعذاراً لله عز وجل وللوطن بأنهم يفعلون من الخير على قدر طاقتهم آخذين بمبدأ التكليف على قدر الممكن لقوله تعالى: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

الفصل الرابع

نماذج من الدول القومية والإقليمية القطرية

أهم العناصر المساعدة على تحليل أوضاع النظم القومية والإقليمية

بعد عرض الأصول الفكرية للأنظمة القومية والإقليمية القطرية التي تشكلت بعد الحرب العالمية الأولى وانحلال دولة الخلافة العثمانية، أكتفي باستعراض ما حققته أو ما لم تحققه هذه الأنظمة في ثلاثة قضايا كان لها تأثير بيّن على واقع هذه الأنظمة، وهذه القضايا تشمل: القوانين، والوحدة العربية، والقضية الفلسطينية، وذلك أن سلوك دول هذه الأنظمة تجاه هذه القضايا الثلاثة يشكل معلما مهما في اختلاف هذه الانظمة عن النظام الإسلامي الذي استمر مدى خمسة عشر قرناً في تشكيل الدول والنظم السياسية على اختلاف أسمائها منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى زوال الخلافة بداية القرن العشرين.

ويجدر بي أن اشير إلى أهم عناصر هذه القضايا الثلاث فيما يلي قبل الخوض في واقع الانظمة على ضوئها:

أولا : القوانين

وذلك ان الأقطار الإسلامية بقيت منذ القرن الهجري الأول وعبر جميع الدول على اختلاف أسمائها ملتزمة بالقوانين والأنظمة المستمدة من الشريعة الإسلامية على الرغم من ظهور مدارس فقهية متعددة عبر التاريخ الإسلامي، تأخذ بعض هذه الدول بمذهب من المذاهب التي ترسخت وتأخذ أخرى بمذهب آخر لكنها كلها مستمده من الأصلين الرئيسيين للإسلام؛ القرآن الكريم والسنة النبوية.

ثانيا : الوحدة

فوجئت الأمة الإسلامية بكل مكوناتها بخاصة شعوب المنطقة العربية بزوال كل مظاهر الوحدة والتواصل بين أجزاء الأمة، وتوقفت حرية انتقال الاشخاص والمجموعات والأموال بين المناطق، وذلك بعد قيام الدول القومية والإقليمية إثر زوال دولة الخلافة التي كانت تمثل سهولة التواصل من أقصى شرق العالم الإسلامي إلى أقصى مغربه، حتى مع تعدد أسماء الدول وإستقلال الحكام عن بعضهم بل والمنازعات فيما بينهم، ولكن دون تأثير يقيد التواصل وحرية الحركة تحت مظلة ما يعرف بأمة الإسلام، ولم تحاول أي من تلك الدول أو حكامها عرقلة أو منع هذا التواصل بين أقطار الأمة الإسلامية.

ثالثا : القضية الفلسطينية

كان صدور وعد بلفور عام 1917 وما سبقه من اتفاق سايكس بيكو بين البريطانيين والفرنسيين أشد احداث القرن العشرين إيلاما لجميع المسلمين وبخاصة بعدما تمكنت الدول الأوروبية ومعها أمريكا من تحقيق هذا الوعد وإقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين عام 1947. ولقد بقيت القضية الفلسطينية منذ ذلك الوقت وحتى اليوم المقياس لجميع المسلمين الذي يحكمون بموجبه على أي من الأنظمة القائمة في العالم الإسلامي عامة وفي الوطن العربي خاصة على أي نظام منها في ضوء التزامه وسلوكه تجاه القضية الفلسطينية، وما يبذله النظام أو ما لا يفعله من أجل تحرير فلسطين وفيها ثالث مقدسات الإسلام؛ المسجد الاقصى.

وعلى الرغم من أن جميع الدول التي تقطنها أغلبية اسلامية عموما والدول العربية على وجه الخصوص لا تنفك عن ترديد اهتمامها والتزامها بالقضية الفلسطينية ويصفونها باستمرار بأنها قضية العرب الأولى، إلا أنهم جميعا لا يفعلون شيئا ذا

تأثير لهذه القضية، لذلك فان تحليلي لواقع هذه الأنظمة سيأخذ بالاعتبار موقفها من هذه المسائل الثلاثة: القوانين، الوحدة والقضية الفلسطينية.

إستعراض وتحليل نماذج من الدول والقومية والإقليمية

مصر

تعد مصر أهم دولة في المنطقة وتنبع أهميتها من نواح عدة، فهي من المناطق التي لها طابعها الخاص، وكانت منذ الفتح الإسلامي وعبر كل النظم السياسية التي قامت، تعتبر ولاية لها قدر كبير من الحكم الذاتي كما تبوأت مركز القيادة في المنطقة بعد ضعف الخلافة العباسية وانتقال مركز الخليفة من بغداد إلى مصر.

كما كانت تنبع أهمية مصر من وجود الأزهر فيها، ولسبق مصر سائر الأقطار العربية في إقامة الجامعات واحتكاكها في الحضارة الغربية إثر غزو نابليون ومحاولته نقل أكبر قدر من الثقافة الغربية إلى مصر تمهيدا لتمديدها إلى سائر المنطقة، وتم إرسال أعداد كبيرة من الطلبة المصريين إلى فرنسا لدراسة مختلف العلوم، وكان التركيز على الدراسات الأدبية والثقافية.

ولا ننسى أن مصر كانت منذ الفتح الإسلامي ذات ثقل واضح في مجال العلوم الإسلامية وبخاصة الفقه. لقد كان أحد أئمة المذاهب الاربعة لأهل السنة الإمام الشافعي قد أقام فترة في مصر أثرت على فقهه، حتى أن الدارسين له قسموا فقهه إلى فترتين أطلقو عليهما قديم مذهبه وهو فترة ما قبل مجيئه إلى مصر، وجديد مذهبه وهو فترة إقامته في مصر وما بعدها. وكان لمصر موقع سياسي هام على مدى العصور، وقامت فيها أنظمة سياسية كان لها آثار لا يمكن أن تنسى مثل رد العدوانين الصليبي والمغولي عن المنطقة، فقد كان الجيش المصري فيهما القوة الرئيسة في معركة حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وفي معركة عين جالوت

بقيادة قطز وبيبرس، ولا ننسى كذلك أن والي مصر محمد علي في أواخر فترة الخلافة العثمانية تطلع إلى أن يكون البديل والوارث للدولة العثمانية، وكاد ينجح بالقوة العسكرية في السيطرة على مفاصل الدولة، إلا أن القوى الاستعمارية الأوروبية استطاعت أن تحول بينه وبين تحقيق تطلعه لإقامة دولة جديدة تخلف الدولة العثمانية التي كان الأوروبيون يلقبونها بالرجل المريض، وهم لا يريدون أن يحل محلها الرجل القوي الصحيح بقيادة محمد علي وابنه إبراهيم الذي دخل بجيشه الحدود التركية التي تعد قلب الدولة العثمانية بعد أن اجتاح سوريا وأخضع الجزيرة العربية. ولا ينبغي أن نغفل أن حمله نابليون جلبت معها عوامل ثقافية وعلمية كانت تهدف إلى جعل مصر بعد استقرار الإحتلال الفرنسي لها امتدادا لفرنسا علميا واجتماعيا وثقافيا، وكذلك فان وجود الأزهر كان له تأثير واضح في تأثير مصر بسائر الأقطار العربية والإسلامية في آسيا وافريقيا.

كل هذه العوامل كانت تهيئ لتجعل مصر بلدا متقدما يقود المنطقة، وكانت تعد خلال فترة حكم أسرة محمد علي أنموذجا للدول الصاعدة في المنطقة بل وفي الأقطار البعيدة عنها، فقد كانت اليابان مثلا تتطلع إلى مصر لتحذو حذوها في نهضتها العلمية والصناعية. أما من الناحية السياسية فقد كان النظام في عهد اسرة محمد علي اقرب إلى النمط العثماني.

الاتجاهات الرئيسية في النظام المصري

أ – **الاتجاه الإسلامي؛** الذي يدعو إلى تأييد الخلافة الإسلامية سواء تحت قيادة الدولة العثمانية أو سواها، وبرز قادة كان لهم أثر واضح في التأثير على الجماهير العربية والإسلامية في مصر وسائر الاقطار.
ومن ابرز هؤلاء القادة كما أسلفت جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعلوبة باشا المصريين، وكان لهذا الاتجاه صدى في سوريا ولبنان وفلسطين والعراق.

ب – **الاتجاه العروبي؛** وكان يتأرجح ما بين الإتجاه القومي العربي والإتجاه الإسلامي، ومرت فترة ضعف فيها هذا الإتجاه لغلبة الإتجاه القومي المصري، الذي كان يرى أنه أولى بمصر التطلع إلى الإرتباط بتاريخها القديم الفرعوني الممتد آلاف السنين وكان أهم داعم للإتجاه العروبي وللإسلامي كذلك كثير من الأدباء المصريين من كتاب وشعراء امثال عباس محمود العقاد والمنفلوطي والشاعر أحمد شوقي والشاعر أحمد محرم وغيرهم، وكانت مجلة الرسالة الذي يرأس تحريرها أحمد حسن الزيات ومجلة الثقافة التي يرأس تحريرها أحمد أمين من أهم الروافد للفكر الإسلامي والعروبي مع ميل الرسالة للإسلامي والثقافة للقومي العروبي وأحيانا المصري.

ج – الإتجاه القومي المصري؛ سبق أن بينت في بداية الحديث عن الإتجاه القومي والإقليمي أن هذا التوجه مر بفترة صعود بل هياج في مطلع القرن العشرين، وأصبح لدعاته منابر إعلامية وثقافية مؤثرة من أمثال طه حسين ومحمد حسين هيكل وغيرهما، وظل دعاة هذا الإتجاه يرفضون الإسلام أو العروبة بل واللغة العربية ويدعون إلى فرعونية مصر منسلخة عن كل ما يمت إلى الإسلام واللغة العربية، من هؤلاء الكاتب المسيحي سلامة موسى وبعض المريدين له.

الا انه سرعان ما انطفأ هذا التوجه وخمد مثل نار القش تخدع مشاهدها في أول اشتعالها إلا أنها تذوى وتنتهي كسرعة شبوبها.

القوانين في ظل الحكم المصري

أما من حيث القوانين فإنه على الرغم من وجود الأزهر الذي يعد قلعة للشرع الإسلامي إلا أن موجة تحديث القوانين بدأت في ظل حكم أسرة محمد علي، ولم يأخذ التحديث تطوير الفقه الإسلامي الذي هو أساس القوانين التفصيلية سواءا في القوانين المدنية التي تختص بالمعاملات والحقوق المالية وغيرها، أم في القوانين الجزائية التي تختص بالعقوبات على الجرائم والجنح وسائر أنواع الأفعال التي توقع عليها العقوبات من أي نوع.

وتوجهت الدولة المصرية في عهد الملكية إلى اقتصار التقيد بالشرع الإسلامي على قوانين الأحوال الشخصية المتعلقة بالأسرة فقط من زواج وطلاق ونفقات وميراث.

وعلى الرغم من صدور دراسات موسعة لجوانب شتى من شرح لأحكام الشريعة الإسلامية في كافة المجالات المدنية والجزائية إلا أن الحكومات المصرية المتعاقبة بقيت على ابتعادها عن مصادر التشريع الإسلامي وتعصبها إلى المصادر الأوروبية بحجة حداثتها وتوافقها مع الحياة المعاصرة، وقد كانت الحكومة المصرية التي قامت إثر الانقلاب العسكري على الملكية عام 1952 أكثر ابتعادا عن التشريع الإسلامي ومحاربة له، وقد أقدم النظام السياسي المصري عام 1954 على إعدام أحد أبرز علماء القانون الجنائي الإسلامي على الرغم من خلفيته كمحام درس القانون في كليات الحقوق وليس في جامعة الأزهر؛ هو المرحوم عبد القادر عودة الذي أعدمته الحكومة المصرية في عهد عبد الناصر بعد محاكمة هزليه عام 1954، كما أعدمت الحكومة المصرية أحد أدباء

مصر ومفكريها رغم أنه لم يعرف بتعرضه للقوانين وإنما اقتصر إنتاجه على النقد الأدبي والشعر وعلى فلسفة الحكم، وهو الكاتب والأديب الناقد سيد قطب.

الوحدة في ظل الحكم المصري

عندما كانت مصر ولاية عثمانية كانت لها علاقات وثيقة مع جيرانها من الدول العربية بل والإسلامية الأبعد، وكانت حركة السكان منها وإليها دائمة، وثمة كثير من القبائل والأسر في مصر ذات أصول سورية أو عراقية أو مغربية أو تركية أو من وسط آسيا وكان لمصر علاقة خاصة بمكة والكعبة، إذ كانت الكسوة السنوية للكعبة تنسج في مصر وتنقل إلى مكة في كل عام باحتفال بهيج مفرح ويطلق على القافلة التي تحمل الكسوة المحمل، وتنشد في المناسبة الأناشيد وتؤلف القصائد الشعرية، وظل هذا العرس الديني المبهج للشعب المصري في يوم المحمل إلى قيام النظام الجمهوري العسكري في مصر حيث توترت العلاقة بين مصر والمملكة العربية السعودية المشرفة على موسم الحج لأسباب سياسية فانقطع هذا التهادي المحبوب بين القطرين.
وكان أدباء مصر وكتابها بمنتهى الحساسية لكل ما يصيب أي قطر من أقطار الإسلام فقد نظم الشاعر المصري احمد شوقي قصائد في عدد من هذه المناسبات، مثل الخوف على مسجد أياصوفيا واسطنبول؛ وما أصاب سوريا من الإحتلال الفرنسي وغيرها.

وكان ملك مصر من الناحية الشكلية يلقب رسميا بملك مصر والسودان؛ وكان الذي يحول بين تحويل هذا الإصطلاح الشكلي إلى حقيقة هو وقوع السودان تحت الاحتلال البريطاني ومصر تحت الوصاية البريطانية، وكان الأمل أن تتحول هذه العلاقة بعد استقلالهما إلى وحدة حقيقية إذ أن الصلات بينهما ضاربة في أعماق تاريخهما حتى من عهد الفراعنة القديم.

ولكن وبعد قيام الحكم الجمهوري العسكري انقطع هذا الترابط البسيط وانفكت العلاقة بين مصر والسودان وأعلن استقلال السودان عن مصر ، ولم يقف مسلسل الانقسام، وأصبح السودان سودانين ؛ شمالي وجنوبي ، ونسأل الله أن لا يقع مزيد من الانقسام فيها. وبعد قيام النظام الجمهوري في مصر واستقلال سوريا قامت أول تجربة وحدة بينهما، ولكن لم يكتب لها النجاح ولم تستمر سوى أقل من اربع سنوات والأرجح أن سبب فشل المحاولة أنها أولا لم تقم على قاعدة فكرية ولا حتى سياسية، سوى رغبة قادة طرفيها في التأثير على الجماهير العربية، وإبراز أنفسهم أنهم عروبيون يستحقون قيادة الشعوب العربية، ومن أهم أسباب الفشل كذلك أنها لم تراع أهمية إرادة الشعبين والمساواة بينهما في إطار الدولة الجديدة الموحدة، مما أشعر القادة في سوريا أن القيادة المصرية تريد أن تكون لها اليد العليا، وهكذا كان اختلاف القادة والزعماء سببا في وأد هذه التجربة الرائدة لتكون بداية لتوحيد أوسع بين العرب.

اما المحاولة الثانية للتوحيد فقد كانت في أقصى جنوب الجزيرة العربية إذ شجع النظام المصري حليفه السلال في اليمن على القيام بإنقلاب عسكري، وعندما عجز الإنقلابيون عن التوسع في بسط سيطرتهم أرسل عبد الناصر قوات كبيرة من الجيش المصري لدعم النظام الاشتراكي الجديد، والقضاء على النظام الملكي القائم، وعلى الرغم من الاسلحة السوفيتية مع الجيش المصري والأعداد الكبيرة التي تفوق أسلحة وعدد المحاربيين في الجيش الملكي اليمني فقد منى الجيش المصري بهزائم مؤلمة مما اضطر عبد الناصر إلى سحب الجيش من اليمن في نهايات عام 1966.

ولم تنتج هذه التجربة كما كان يأمله عبد الناصر من مد نفوذه على اليمن، كما خلفت هذه التجربة المرة تباعدا وتباغضا بين القطرين، أما نتيجتها على الجيش المصري فقد كانت كارثية من ناحيتين؛ الأولى إضعاف الجيش المصري قبيل الحرب الإسرائيلية على جميع الدول العربية المحيطة بها عام 67 مما ساهم في

هزيمة الجيش المصري، مما أدى إلى احتلال اسرائيل لسيناء، والثانية أن هذه المغامرات الفاشلة قد عمقت الفجوة بين مصر ومعظم الدول العربية وبخاصة السعودية.

لقد اعتمد النظام المصري في الترويج للوحدة العربية تحت القيادة المصرية على عاملين؛ الأول؛ القومية العربية كبديل عن الجامعة الإسلامية التي تمزقت بسقوط الخلافة العثمانية، والعامل الثاني؛ الإشتراكية المتحالفة مع النظام السوفييتي، والبعد عن النظام الرأسمالي الغربي.

لقد استطاع عبد الناصر تكوين جبهة شعبية واسعة في الوطن العربي للقومية العربية تحت قيادته ولكنا رأينا كيف فشلت لانها لم تقم على أساس فكري ولا تنظيمي شوري أو كما يقال ديموقراطي.

أما التوجه الإشتراكي فقد قسم النظم العربية إلى معسكرين؛ يتمسك أحدهما بالدولة الرأسمالية الأوروبية، ويتمسك الآخر بأهداب المعسكر الاشتراكي، وعلى الرغم من تمسك النظام المصري بالعروبية إلا أن عبد الناصر أيد الاشتراكي نيريري في احتلاله لقطر عربي هو جزيرة زنجبار على الساحل الشرقي لإفريقيا التي كانت تشكل وحدة سياسية مع سلطنة عمان مع أن نيريري قتل وشرد ما يزيد على خمسة عشر ألف عربي في زنجبار عندما ضمها إلى تنجانيقا تحت اسم تنزانيا عام 1963.

القضية الفلسطينة في ظل الحكم المصري

عندما كانت مصر ولاية عثمانية في ظل الحكم المصري كانت متابعة لسياسة إسطنبول في معارضة الهجرة إلى فلسطين،إلا أن وقوعها تحت الإنتداب البريطاني جعل معارضتها ضعيفة، ولا يفوتنا أن مصر إبان الحرب العالمية الأولى كانت مركزا هاما للسياسة البريطانية في المنطقة، وكان مقر مكماهون الذي تولى تطويع الشريف حسين والتراسل معه في القاهرة في نفس الفترة التي منح بريطاني اخر هو بلفور الوعد لليهود أن بريطانيا ستعمل على إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، وعندما شرعت العصابات اليهودية القادمة من أوروبا في الهجوم على المدن والقرى العربية، وأعلنت بريطانيا إنسحابها من فلسطين وتركها للعصابات اليهودية عام 1948، تداعت الدول العربية لإرسال جيوشها إلى فلسطين وقسمت المهمة من حيث مواقع الدول من فلسطين، فكان موقع الجيش المصري شرق سيناء.

وعلى الرغم من زعم قادة العرب آنذاك أن التنسيق قائم بين جبهات الجنوب المصرية والسورية من الشمال والأردنية المدعومة من العراق في وسط وشرق فلسطين، إلا أن الواقع العسكري والنتائج التي تمخضت عن الاصطدامات التي حصلت بين اليهود وكل من هذه الجبهات أثبتت انعدام أي خطة موحدة لمجابهة العصابات اليهودية مما أسفر عن كارثة 1948، ولم يتقدم الجيش المصري سوى أقل من عشرة كيلو مترات شرقي سيناء ثم تقلص وجوده في فلسطين إلى ما يسمى اليوم قطاع غزة متخليا عن شرق القطاع الذي كان من السهل السيطرة عليه لربط القطاع بما عرف من بعد بالضفة الغربية التي كانت من حصة الحكومة الأردنية.

كما تخلت مصر عن الجزء الذي يربط سيناء المصرية بالعقبة الأردنية وهكذا تم الفصل الجغرافي نهائيا بين مصر وقطاع غزة وبين الوطن العربي كله، وأصبحت

الدولة اليهودية فاصلاً وسداً منيعاً بينهما. وقد أثيرت خلال هذه الفترة وما بعدها فضيحة الأسلحة الفاسدة التي زودتها الدولة المصرية لجيشها وكان لذلك أثر في عجز الجيش المصري عن مجابهة العصابات اليهودية .

وأثير كذلك أن بعض ضباط الجيش المصري كانت لهم صلات قرابة مع عناصر يهودية وساهمت هذه الصلات بتسليم بعض المواقع لليهود، وفي عام 1956 عندما شنت الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا واسرائيل عدوانها على مصر الذي عرف بالعدوان الثلاثي احتلت تلك الدول قطاع غزة وسيناء كلها وكادت تعبر قناة السويس إلى قلب مصر، الا أن الولايات المتحدة الامريكية أجبرت الدول الثلاث على سحب قواتها إلى ماقبل هجومها وبذلك تجمد الوضع بين مصر وفلسطين في وقوف مصر على حدود غزة مع بقية فلسطين التي أصبحت اسرائيل.

لقد بقي الوضع على حاله بعد ذلك إلى أوسط عام 1967 حيث قامت أزمة بين مصر واسرائيل على حرية الملاحة في خليج العقبة، وأصر عبد الناصر على إغلاق ممر خليج العقبة في وجه الملاحه الاسرائيلية القادمة عبره إلى ميناء إيلات الاسرائيلي الذي أصبح نهائيا في يد اسرائيل بعد حرب عام 1956، وقد أخطأ عبد الناصر في حساباته لقدرة حليفه الاتحاد السوفييتي وقدرته على دعم خطته ضد الملاحة الاسرائيلية، ويبدو أن اسرائيل كانت على تفاهم مع الاتحاد السوفييتي على وقوفه على الحياد في أي نزاع مع عبد الناصر بالإضافة إلى ثقتها المطلقة بالولايات المتحدة في دعمها وتأييد موقفها.

ولم تكن الولايات المتحدة آنذاك راغبة في وقوع الحرب، إلا أن الاستخبارات الاسرائيلية كانت على دراية في مواقع الضعف في الجيش المصري وكذلك الجيشين السوري والأردني، وأرسلت إسرائيل في حينها وزير خارجيتها أبا ايبان إلى واشطن لإقناعها بعدم الإعتراض على حرب ستشنها اسرائيل على مصر، وقد شاهدتُ في حينها على التلفزيون الامريكي مقابلة مع وزير خارجية اسرائيل قال فيها أن اسرائيل تريد شن الحرب وانها مصرة على ذلك لانها من مصلحتها.

ويبدو أن القادة العرب لا يقرأون ولا يسمعون وبالتالي لا يستعدون، لقد استطاع عبد الناصر أن يضم إلى جبهته كلا من سوريا والأردن والعراق وبعض دول المغرب العربي غير مدرك لواقع جيشه العائد مثخنا من اليمن ولا إلى مستوى جيوش الدولتين سوريا والأردن والعقيدة القتالية لكل منهما، لذلك كانت النتيجة الكارثية المؤلمة لحرب عام 67، واستطاع الجيش الاسرائيلي إحتلال الضفة الغربية من الأردن، وبذلك أتمت اسرائيل في إحتلالها للضفة الغربية إمتلاك ما تبقى من فلسطين، وإحتلال سيناء المصرية إلى قناة السويس وهضبة الجولان السورية، وقد أثبتت هذه النتائج المخزية لتلك الحرب الإنهيار السريع للجبهات العربية الثلاث؛ مصر في سيناء، والأردن في الضفة الغربية، وسوريا في الجولان على الرغم من أعداد جيوش تلك الدول وامتلاكها للكميات الهائلة من السلاح التي تزودت بها من المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي.

ولم تستطع هذه الدول القومية الإقليمية أن تواجه دولة لا تتجاوز مساحتها نصف عشر المجموعة العربية المنهزمة ولم يتجاوز مقدار ما لديها من السلاح عُشر ما لدى مجموع ما لدى الدول العربية الأربع إلى جانب ما لدى الدولة الخامسة المجاورة تقريبا لمنطقة الحرب وهي المملكة العربية السعودية.

لقد أثبتت هذه الكارثة العسكرية عن عجز النظم كلها سواء التي مضى على قيامها نصف قرن أو التي ورثت النظم القديمة مثل مصر ومضى على قيام نظامها الجديد أكثر من خمس عشرة سنة كانت كافية في ظل أي نظام صالح غير دكتاتوري فردي لإعادة بناء القوة العسكرية. ولم تستفد هذه الدول من تبعيتها ولا من معاهداتها مع دول أي من المعسكرين سواءا النظام الاشتراكي أو النظام الرأسمالي بينما تمكنت الدولة اليهودية من استثمار تبعيتها للغرب إلى أبعد الحدود كما أنها تمكنت من تجميد وإفشال علاقات الدول العربية حتى مع حلفاء تلك الدول، مما يؤكد على الفشل المزدوج لهذه الدول سياسياً وعسكرياً.

لقد حاولت القيادة المصرية بعد عبد الناصر أن تنهج نهجا مختلفا في علاقتها مع الدولة اليهودية، وكانت تجربة حرب 1973 التي تأمل فيها العرب أن تكون فتحا جديدا يمحو مصائب ماقبلها، إلا أنه على الرغم من البداية المفرحة إلا أنها تمخضت عن إتفاقيات كانت بمنتهى الذله والفشل للأمة.

سوريا

كانت سوريا من حصة الإستعمار الفرنسي بموجب اتفاقية سايكس بيكو، وعندما كانت سوريا ولاية في الدولة العثمانية كانت تضم سوريا الطبيعية الممتدة من جبال طوروس شمالا إلى ما بعد تبوك جنوبا ومن البحر الأبيض المتوسط غربا إلى بادية الشام شرقا، بذلك كانت تضم ما يعرف اليوم بسوريا وفلسطين و الأردن ولبنان، مع وضع خاص لجزء صغير من جبل لبنان الذي كانت تسكنه أقلية مسيحية، ووضع خاص للقدس لمنزلتها الخاصة في الإسلام إذ كانت تتبع العاصمة اسطنبول مباشرة، وبموجب اتفاقية سايكس بيكو سلخت منها فلسطين لتوضع تحت الوصاية البريطانية بشكل مباشر، ولبنان لتصبح دولة منفصلة يرأسها مسيحي وشرق الأردن التي منحت للامير عبدالله بعد أن ارتحلت العائلة الهاشمية بقيادة والده الحسين بن علي عن الحجاز وسائر ما كان تحت ولايته من الجزيرة العربية.

لم يكن لسوريا خلال فترة الإنتداب الفرنسي أي أثر إيجابي فقد كانت كل مفاصل الدولة تحت سيطرة المعتمد الفرنسي مباشرة، وبعد أن حققت استقلالها انشغلت الدولة بإعادة بناء ذاتها، ولو استعرضنا ما تم فيها في كل من العناصر الثلاثة المشتركة لوجد أنها من حيث القوانين والأنظمة إتجهت مثل سائر جاراتها من الدول العربية إلى الأخذ بأكبر قدر من القوانين الأوروبية، ومع أن الجامعة

السورية تضمنت كلية للحقوق والقانون الا أن اهتمامها في الفقه والشريعة الإسلامية لم يتعد دراسة هذه المواضيع في بعض جزئيات الدراسات القانونية.
أما من ناحية الوحدة العربية فقد مر معنا فشل تجربة الوحدة بين مصر وسوريا، وبذلت محاولة لإقامة إتحاد ثلاثي بين مصر وسوريا والعراق، إلا أنها فشلت كذلك. ومما يزيد تباعد النظم القومية الإقليمية عن أي نوع من التوحد أو التقارب أن نظامي الحكم في كل من العراق وسوريا كانا تحت حزب واحد هو حزب البعث العربي الاشتراكي، ومع ذلك لم يستطع هذان النظامان أن يحققا أدنى قدر من الوحدة بينهما رغم الشعارات الواحدة لهما.
أما من حيث علاقتها بالقضية الفلسطينية فقد حركت الدولة السورية جيشها إلى جهة شمال فلسطين عام 48 لكنه لم يحقق أي اختراق لحدود فلسطين القائمة أيام الإنتداب البريطاني عليها، ولم تستطع سوريا ضم ولا قرية فلسطينية واحدة آنذاك إلى الحماية السورية، بل إن أعداداً من الفلسطينيين القاطنين في الحدود المتاخمة لسوريا فروا من تهديد قوات العصابات اليهوديه إلى سوريا حيث أصبحو لاجئين فيها، وما زالوا بعد سبعين عاما لاجئين يتطلعون للعودة إلى ديارهم.
لقد شُغلت الدولة السورية منذ حصولها على الإستقلال في أربعينيات القرن الماضي بسلسلة من الإنقلابات العسكرية، التي حالت دون قيام حالة من الإستقرار السياسي أو الفكري.
وفي حرب عام 1967 دخلت سوريا في حلف ثلاثي ضد الدولة اليهودية بينها وبين مصر والأردن، ولكن كلنا يعلم أن سوريا لم تكن أقل خسارة لجزء هام من أرضها للدولة اليهودية، وما زالت الجولان تحت الإحتلال الصهيوني منذ تلك الحرب، ولم تقم الدولة السورية منذ هزيمة جيشها وتركه للجولان منسحبا بأي محاولة لاستعادة هضبة الجولان ولا لجزء منها، بل إن الدولة العبرية أصدرت بعد احتلالها قانوناً ينص على أن الجولان ليست أرضا محتلة بل أعلنت ضمها للدولة العبرية على أنها جزء من هذه الدولة، وينعم الإحتلال الاسرائيلي للجولان بطمأنينة

وثقة بإستقرار الوضع الراهن لهذا الجزء المغتصب من سوريا، بل إن الكيان الاسرائيلي أشد اطمئناناً أن يعمل النظام السوري على تحرير أرضه المحتلة أكثر من باقي كل الأراضي المحتلة .

لبنان

قد تكون القوانين في لبنان أكثر قوانين الدول العربية التصاقاً بالأصول القانونية للغرب ذلك أن لبنان تعد أكثر هذه الدول قبولا للثقافة الغربية والنفوذ الأوروبي. أما في مجال الوحدة فان القطر اللبناني لم يدع أحد من مكوناته السكانية إلى العودة إلى سوريا الأم الذي كان جزأً منها، وذلك أن قيام النظام الطائفي فيه جعل من المستحيل التخلي عن خصوصيته وتفرده عن الدول الأخرى بالمنطقة مع أنه كان من الدول المؤسسة لجامعة الدول العربية، وهذا ما يزيد اطمئنانا إلى بقاء الحال على ما هو عليه إذ أن ميثاق جامعة الدول العربية ينص على المحافظة على التعددية القائمة ويجعل من محاولة أي قطر ضم قطر آخر اليه مخالفة لهذا الميثاق ويسمح لجميع الدول مقاومة ذلك بقوة السلاح.

أما فيما يتصل بقضية فلسطين؛ فإن بعض مكونات المجتمع اللبناني كانت تتصل باليهود قبل قيام الدولة اليهودية، ولم يخف عدد من قادة الموارنة إتصالهم مع الوكالة اليهودية، وتوثقت العلاقة بين الجانبين بعد قيام الدولة اليهودية، وقد تجاوزت العلاقات بينهما إلى حد التنسيق والتعاون العسكري، وقتال بعض الكتائب المسيحية إلى جانب القوات الاسرائيلية.

ومن المعلوم أن اللاجئين الهاربين من شمال فلسطين عبروا إلى لبنان على غير رغبة من الحكومة اللبنانية إلا أن ضغط الدولة اليهودية والدول الغربية على لبنان سمح بعبورهم لأن خروج اللاجئين الفلسطينين يعمل على تفريغ فلسطين من سكانها لإحلال اليهود القادمين من أصقاع الأرض مكانهم.

ومع أن جميع اللبنانيين يعرفون أن هؤلاء اللاجئين لم يأتوا إلى لبنان مختارين أو راغبين في تبديل وطنهم فلسطين بغيره إلا أن بعض القوات التابعة لأحزاب مسيحية اشتركت مع اليهود عندما دخلو لبنان في مذبحة مخيمي صبرا وشاتيلا التي قتل فيها المئات من الفلسطينين من رجال ونساء واطفال، أما الجيش اللبناني فلم يعلم عنه أنه حرك جنديا ولا أطلق طلقة على أي جندي أو موقع اسرائيلي، ولم يتعد دور هذا الجيش المهمة الأمنية داخل لبنان.

الأردن والعراق

عندما كانت منطقة شرقي نهر الأردن جزءا من ولاية الشام في عهد الدولة العثمانية كان التنظيم الإداري لجنوب الولاية شاملا لضفتي الأردن؛ غربي النهر وشرقيه، وعندما أصدرت بريطانيا وعد بلفور بأن تكون فلسطين وطنا لليهود سلخت الضفة الشرقية من ذلك التنظيم وأسمتها Trans Jordan أي عبر نهر الأردن، ثم وضعت لهذا الجزء الاسم العربي إمارة شرق الأردن تحت إمارة إبن الشريف حسين الشريف عبدالله في حينه.

وبعد صدور وعد بلفور كانت مهمة التنسيق مع الوكالة اليهودية للأمير فيصل بن الشريف حسين الذي اجتمع مع وايزمن أحد مؤسسي الكيان الصهيوني أكثر من مرة في العقبة ثم في لندن عندما ذهب إليها فيصل خارجا من سوريا بعد أن نصب ملكا عليها ولم توافق عليه فرنسا.

عندما انسحبت بريطانيا من فلسطين عملت قبل انسحابها على تمكين اليهود من السيطرة على معظم الأراضي الفلسطينية، وسُمح للجيش الأردني بالبقاء على جزء صغير منها عرف فيما بعد بالضفة الغربية للاردن، ولم يستطع الأمير عبد الله حينها التمسك ببعض المناطق التي كان يظن أنها خارج الدولة اليهودية مثل صفد

واللد والرملة إذ أصرت بريطانيا على ضمها للجزء المخصص للدولة اليهودية، ويجدر بنا أن نذكر أن قيادة الجيش الأردني كانت للضابط البريطاني كلوب باشا.

لقد فرضت طبيعة تكون الدولة الأردنية المضى في موضوع علاقتها بالقضية الفلسطينية، ذلك أن نشأة الدولة ارتبط بداية بهذه القضية، لقد قرر الملك عبد الله عام 1951 الاعلان رسميا عن ضم الضفة الغربية إلى المملكة الأردنية الهاشمية. وهكذا استقرت فلسطين على ثلاثة كيانات، أكبرها تحت الاحتلال اليهودي وأخذت اسم دولة اسرائيل والثاني ما تبقى من فلسطين عدا قطاع غزة تحت اسم الضفة الغربية للأردن وتضم القدس وفيها المسجد الاقصى، والثالث المكون من الشريط الحدودي الضيق جنوب فلسطين والمسمى قطاع غزة تحت إدارة السلطة المصرية.

واستمر هذا الحال حتى عام 1967 حيث دخلت الأردن مع سوريا ومصر في حرب مع دولة اسرائيل نجم عنها هزيمة ساحقة للدول الثلاث فقدت فيها الأردن الضفة الغربية برمتها وفيها ثالث المقدسات الاسلامية وهو المسجد الاقصى، وأصبح نهر الأردن ومن بعده البحر الميت ثم الغور الجنوبي كلها فاصلة بين أرض فلسطين المحتلة والمملكة الأردنية الهاشمية.

أما بالنسبة للعراق فانه على الرغم من الإعلان أن الجيش العراقي تهيأ ليكون رديفا للقوات السورية والأردنية في كل من عام 1948 وعام 1967 إلا أنه لم يقم بأي تحرك فعال يغير النتائج المؤلمة في أي منهما.

اما من حيث القوانين في كلا البلدين العراق والأردن، فقد كانت مستمدة غالبا سواء المدنية أو الجنائية من القوانين الأوروبية أو المصرية المرتبطة أيضا مع القوانين الأوروبية من فرنسية وبريطانية وألمانية وغيرها، وبقيت القوانين الخاصة بالأسرة من زواج وطلاق ونفقة وميراث تحت اسم قوانين الأحوال الشخصية ولها محاكم خاصة بها غير المحاكم المدنية والجزائية يطلق عليها اسم المحاكم الشرعية، حتى في الحيز الضيق من القوانين فقد بقيت قوانين الاحوال الشخصية

في العراق منقسمة إلى قوانين ومحاكم لأهل السنة وقوانين ومحاكم للشيعة من العراقيين.

أما ما يتصل بموضوع الوحدة العربية فكانت أول تجربة للأردن فيها هو ضمها للضفة الغربية. وفي عام 1957 توصلت المحادثات بين الحكومة العراقية التي يحكمها الملك فيصل الثاني آنذاك وبين الحكومة الأردنية التي يحكمها الملك الحسين ابن عم الملك فيصل إلى إقامة إتحاد عربي يجمع القطرين، وأعلن عنه في شباط 1958، ووضع له نظام يكفل التقاسم بين النظامين من ناحية و يوحدهما من ناحية اخرى، إلا أن هذا النظام لم يعمر طويلا إذ قام انقلاب عسكري في العراق في نفس السنة 1958 أثناء وجود رئيس الوزراء الأردني مع بعض وزرائه، وكان الإنقلاب دمويا ذهب ضحيته ملك العراق فيصل وعدد من أفراد العائلة المالكة ورئيس الوزراء والوزراء كما قتل فيه رئيس وزراء الأردن وبعض من كان معه، وهكذا انهارت تجربة الإتحاد العراقي الأردني كما انهارت تجربة الاتحاد المصري السوري، وكذلك السورى المصري العراقي، وختم بعد ذلك على أي محاولة إتحادية بين العرب.

دول الجزيرة العربية

كانت الجزيرة العربية تحت حكم الخلافة العثمانية بثلاث ولايات رئيسة؛ هي الحجاز ونجد واليمن، وكان لكل من هذه المواقع الثلاث أهمية خاصة لدى بريطانيا بشكل خاص، ولدى الدول الأوروبية بشكل عام وتشتمل أهميتها على عناصر السياسة والاقتصاد والموقع الاستراتيجي. أما من الناحية السياسية فقد ادركت بريطانيا أهمية الحجاز تحت قيادة الشريف حسين في تفكيك الخلافة العثمانية عن طريق خداع الشريف ووعدهم له بالموافقة على توحيد العرب في منطقة شرق البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر تحت مملكة عربية واحدة تكون وارثة للدولة العثمانية مع استثناء منطقة فلسطين، إذ كانت بريطانيا قد قررت أنها ستكون وطنا قوميا لليهود، ومنطقة اليمن لأنها موقع استراتيجي بمنتهى الأهمية لوجود مضيق باب المندب فيها الذي يعد أهم ممر يربط أوروبا بممتلكات بريطانيا في الهند وشرق آسيا.

وكان في وعد بريطانيا للشريف حسين خدعة أخرى تتعلق بسوريا ولبنان اللتين كانتا حسب اتفاقية سايكس بيكو من حصة فرنسا وبالتالي فلا يمكن أن يكونا جزءا من المملكة العربية الموعودة، لذلك عندما استقر الأمر لبريطانيا في تفكيك الدولة العثمانية، وإمعانا في خديعة الشريف سمحت للجيش العربي المتمرد على الدولة العثمانية بالدخول إلى سوريا بقيادة فيصل ابن الحسين إلا أن الفرحة لم تتم لا لفيصل ولا للشعب السوري بالمملكة العربية الموعودة، وتركت للجيش الفرنسي إنهاء هذه المملكة وغادرها فيصل إلى إنجلترا، وبذلك تم القضاء على المرحلة الأولى للملكة العربية، وسمحت بريطانيا في نفس الوقت لعبد العزيز آل سعود ببسط سيطرته على الحجاز والتجأ الشريف وأسرته إلى منطقة العقبة واكملت جريمتها في حق الشريف بنفية إلى قبرص. لقد كانت عين بريطانيا على منطقة

الجزيرة العربية الشاملة لسواحل الخليج بعد أن تأكد لها أن هذه المنطقة تضم اكبر مخزن للنفط.

وعلى الرغم من صعود الحركة الوهابية في شرق الجزيرة العربية التي قامت على توجه شرعي جديد رافض للمذاهب الإسلامية التي كانت المصدر الاساسي للفقه والتشريع في الدولة العثمانية، لم تعترض بريطانيا على مبالغة الحركة الوهابية الرافضة للمذاهب السنية التي تشكل القاعدة العقائدية والفقهية للمنطقة العربية، وهكذا تمخضت الحركة الوهابية عن انقسام شرعي للمنطقة كان ممهداً للانقسام السياسي، إذ استقرت الحركة الوهابية في منطقة الحجاز ونجد والمذهب الحنفي والشافعي في العراق وبلاد الشام، والمذهب الشيعي في ايران وجنوب العراق، والمذهب الزيدى والشافعي في اليمن، والشافعي والإباضي في عُمان، والشافعي والحنفي في مصر، والمالكي في أقطار المغرب في الشمال الافريقي.

وكما رأينا سابقا اتجهت مناطق مصر وبلاد الشام والعراق إلى الأخذ بالقوانين الأوروبية في القوانيين المتعلقة بالحقوق المدنية وكذلك بالقوانيين الجنائية، وتجمد التشريع في ظل الدولة السعودية على الفقه الوهابي الذي قال فيه الوهابيون انه يعتمد على فقه المذهب الحنبلي والفقه الظاهري، وسواء صحت هذه الدعوى أم لم تصح فان القوانين والانظمة لم يتح لها في ظل الحركة الوهابية أي مستوى من التطوير أو التحديث، مما انعكس على العقلية الموجهة للجماهير العربية في تلك المنطقة بسيطرة قدر من التشنج والجمود وسيطرت توجهات عنيفة ضد المخالفين للوهابية مما ساعد على بروز قدر من التعصب العنيف لدرجة وصف المسلمين خارج الوهابية بالكفر، وامكانية استحلال وجودهم ورفض واقعهم.

أما من حيث دور هذا النظام بالنسبة للوحدة فقد رضخ النظام للسياسة البريطانية في سلخ مواقع هامة شرق الجزيرة وعلى سواحل الخليج وإقامة مشيخات ودويلات صغيرة تسهل على بريطانيا فرض سيطرتها عليها لضمان سيطرتها على إنتاج النفط دون منازع.

ومع أن بريطانيا منحت تلك المشيخات والدول إستقلالها بعد الحرب العالمية الثانية إلا أن ذلك لم يغير من الواقع السياسي لتلك المواقع، ذلك أنه لم يكن لأي منها أي قدرة على أن تكون دولة لها وزنها لا من حيث المساحة ولا من حيث السكان إذ لم يكن بعضها يتجاوز سكان حي في مدينة معتبرة.

وكانت عائدات النفط في كل هذه الكيانات تفيض بشكل واضح عن احتياجات سكانها، فقد سيطرت عليها حالة من الإيغال في الترف، والاعتماد على استقدام الأيدي العاملة من مختلف بقاع الارض حتى أصبحت نسبة العاملين في هذه الاقاليم ضعفي عدد السكان الأصليين فيها، وبددت ثرواتها في أبنية شاهقة وشراء مقتنيات ومواد استهلاكية تتجاوز حاجتها، وهكذا تبددت ثروات هذه المنطقة.

وقد أقامت دول الجزيرة العربية باستثناء اليمن نوعا من الوحدة الشكلية فيما بينها تحت اسم مجلس التعاون الخليجي لكن هذه المؤسسة لم يقم فيما بينها لاعملة واحدة ولا نظام سياسي ولا قوة عسكرية فعالة ذات أثر في مناطقها فضلا عن خارجها.

أما من حيث دورها فى القضية الفلسطينية فإنها لم تفعل أي فعل مؤثر فيها سواءا قبل قيام الدولة اليهودية عام 1948 أم بعدها ولا في حرب عام 1967 الكارثية ومن المؤلم والمؤذي في موقف بعض هذه الدول من مقاومة اهل فلسطين للاحتلال اليهودي ووصفهم للعناصر الفلسيطينية في مقاومة العدوان اليهودي على الارض والمقدسات والسكان بأنها حركات إرهابية متابعين في ذلك حلفاء الدولة اليهودية وبخاصة الولايات المتحدة الامريكية التي ما زالت تقود العدوان على فلسطين أرضا وشعبا ومقدسات، بل لقد نقل عن السلطان عبدالعزيز مؤسس المملكة العربية السعودية موافقته على اعطاء فلسطين لليهود المساكين بناء على طلب السفير البريطاني يوسي كوكس.

دول المغرب العربي

وقعت دول المغرب العربي تحت الإحتلال الفرنسي قبل انحلال الخلافة العثمانية وسيطرت فرنسا على جميع أقطار المغرب بعد الحرب العالمية الأولى واشتركت إيطاليا بنصيبها عن طريق احتلال ليبيا.

وقد عملت السيطرة الأوروبية على المغرب إلى إبعاد نظمه عن الالتزام بالشريعة الإسلامية مثل سائر الأقطار العربية في المشرق وأصبحت اليد العليا القانونية في دول المغرب للمصادر الأوروبية، باستثناء قوانين الأحوال الشخصية التي تعتمد فيها الشريعة الإسلامية، الا أن بعض هذه الدول حاولت الخروج على أحكام الشريعة حتى في مجال الأحوال الشخصية وبخاصة في مجال ميراث المرأة إذ حاولت تلك الأنظمة الغاء التفريق بين الذكر والانثى في المواريث، وقد واجه هذا الإتجاه وما زال مقاومة الشعوب الإسلامية في المغرب العربي، وذلك أن نظام المواريث في الشريعة الإسلامية إنما هو جزء من نظام النفقة في الأسرة الذي يرتب على الرجال مسؤوليات كاملة في الأنفاق على الأسرة وعلى ذوي الأرحام مقابل تميزهم في حصة الميراث على النساء في أحوال محددة فقط.

أما من حيث الوحدة فقد عجزت دول المغرب بعد استقلالها عن تحقيق أي مستوى من التوحد أو حتى التقارب والتفاهم السياسي أو الإقتصادي فيما بينها، بل لقد عجزت حتى عن الاحتفاظ بوحدة بعض الأقطار الإقليمية التي كانت لفترة طويلة من تاريخها موحدة، فقد انفصلت المنطقة الجنوبية من المغرب وقامت فيها دولة موريتانيا، ثم عملت بعض دول شمال افريقيا على تقسيم المغرب مرة أخرى بسلخ منطقة الصحراء الغربية عنها، وعملت على خلق حزب سياسي تحت اسم البوليساريو يعمل على فصل الصحراء عن دولة المغرب، وفي احدى المناسبات التقيت ببعض قادة هذا الحزب وقلت لهم هل ينقص الأمة العربية مزيد من التجزئة لجزء صغير سكانيا وممتد حضاريا مع المغرب؟ فقالوا أن النظام السياسي

فاسد فقلت حاولوا إصلاح الفساد فتصلحون الجزء الاكبر بدلا من تقسيم المقسم. وقد حاولت دول المغرب في اواخر القرن العشرين اقامة اتحاد مغربي فيما بينها ولكنه لم يكن خيراً من محاولات الإتحاد المتعددة التي قامت في المشرق، وما زال هيكل هذا الإتحاد جسدا بلا روح وشكلاً بلا حقيقة.

أما من ناحية القضية الفلسطينية فقد كان لدول المغرب مساهمات سلبية تجاه، فلسطين إذ سمحت هذه الدول لأعداد كبيرة من اليهود الذين كانوا فيها بالهجرة إلى فلسطين ومد دولة اسرائيل بقوة بشرية وإقتصادية تجعلها أقدر على المزيد من التمكن على الارض ومغالبة الفلسطينين على أرضهم ومقدراتهم. ولم تحرك أي من دول المغرب أية قوة مؤثرة على القضية الفلسطينية عام 1948 حيث قامت الدولة اليهودية وأدى قيامها إلى تشريد مئات الالوف من ارضهم وتفرقهم لاجئيين في أصقاع الكون. وكذلك لم تفعل أي من هذه الدول أي فعل مؤثر في حرب 1967 سوى الشجب والاستنكار.

فلسطين

كما نعلم كانت فلسطين إبان الخلافة العثمانية جزءاً من ولاية الشام، وعندما انحلت الخلافة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى احتلت بريطانيا فلسطين وحكمتها حكما احتلالياً مباشراً، ولم تضع عليها ملكا أو رئيساً مثل المناطق العربية الأخرى. ذلك أن بريطانيا استثنتها من سائر المنطقة لتنفيذ وعد بلفور بإقامة دولة يهودية فيها.

وفي عام 1948 انسحبت بريطانيا وقامت بعدها دولة اسرائيل، التي نتج عن قيامها تشريد أهل فلسطين ليصبحوا لاجئين في الأقطار المجاورة، وتمخضت جهود الدول العربية وجامعتهم العربية منذ 48 إلى 64 عن قيام حركة فتح لمقاومة الاحتلال اليهودي، واتجهت حركة فتح وسائر تشكيلات المقاومة في

النهاية إلى إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية لتكون مسؤولة عن مهمة إستعادة فلسطين المحتلة.

منظمة التحرير الفلسطينة

أُنشئت هذه المنظمة من تحت عباءة النظام العربي القائم على الأساس القومي وتبعاته واشتقاقاته من النظم الإقليمية، فعلى الرغم أن منزلة فلسطين عند كافة المسلمين لا تنبع من أهمية إقليم فلسطين ولا من أهمية القومية العربية، وإنما من كونها ارضاً اسلامية فيها ثالث أقدس الأماكن في الإسلام وهو المسجد الاقصى الذي أكد القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم على قداسته ومباركة كل ما حوله، إلا أن سيطرة التوجه القومي والاقليمي وبخاصة في الفترة الناصرية وجهت جميع المحاولات الفلسطينية وجهة عروبية من ناحية ووجهة اقليمية تحت إسم فلسطين من ناحية أخرى، وعندما قررت الأمم المتحدة الموافقة على إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين عام 1947 انقسمت الدول العربية إلى معسكرين معسكر يضم مصر والسعودية وسوريا ولبنان واليمن يتبنى إقامة دولة في فلسطين وتقرر تسميتها حكومة عموم فلسطين انبثقت عن الهيئة العربية العليا، وعقد مؤتمر في غزة في 1948/12/1 أُسندت رئاسته إلى الحاج أمين الحسيني، وانبثق عن المجلس تشكيل ما أطلق عليه حكومة عموم فلسطين برئاسة الفلسطيني أحمد حلمي، ولم يكن لهذه الحكومة أي مقر معتمد داخل الأرض الفلسطينية وإنما ظلت تائهة في مقر الجامعة العربية في القاهرة، وكان تشكيل هذه الحكومة لتكريس مسؤولية القضية الفلسطينية ومجابهة الدولة اليهودية (اسرائيل) على عاتق الفلسطينين، وبمثابة صك براءة للدول العربية وبالتالي الدول الإسلامية من المسؤولية السياسية والأخلاقية عن القضية الفلسطينية.

أما المعسكر العربي الثاني الذي رفض إقامة دولة عموم فلسطين فقد كان من دولتين عربيتين هما الأردن والعراق، ودعت هذه الكتلة إلى ضم ما بقي من

فلسطين إلى حكومة شرق الأردن (المملكة الأردنية الهاشمية) ومبايعة الملك عبد الله ملكاً على كل فلسطين إلى جانب شرق الأردن وأن يعمل الملك الأردني على استعادة فلسطين كلها.

إن هذا التوجه لا يختلف في حقيقة الأمر عن حكومة عموم فلسطين من حيث إلقاء المسؤولية لتحرير فلسطين على أضعف كيان عربي آنذاك وانسحاب سائر الدول العربية ومن ثم الإسلامية عن المسؤولية السياسية والاخلاقية تجاه فلسطين، وعقد مؤتمران الأول في عمان والثاني في أريحا أواخر عام 1948 لإضفاء الشرعية على ضم ما تبقى من فلسطين للدولة الأردنية وأُطلق على هذا الجزء "الضفة الغربية" أي الضفة الغربية لنهر الأردن، وأن الجزء الأساسي للدولة هو الضفة الشرقية التي كانت تعرف بشرق الأردن .

وحيث أن الواقع للارض الفلسطينية دخل ضمن الدولة الأردنية فقد انحلت تدريجياً حكومة عموم فلسطين، وأصبحت الضفة الغربية وهي ما تبقى من فلسطين خارجا عن الدولة اليهودية جزءاً من النظام الأردني وضمن مسؤوليته.

إلا أن الدول العربية الأخرى لم تعترف بهذا الضم، وعلى الرغم من سقوط الضفة الغربية تحت الإحتلال اليهودي في حرب1967 إلا أن النظام الأردني ظل يعتبر نفسه مسؤولاً عن الضفة الغربية، ويسعى بالطرق الدبلوماسية والسياسية لاستعادتها، وفي عام1974 أعلنت الدول العربية في اجتماع مجلس الجامعة العربية بالرباط وبمباركة من ياسر عرفات أعلن قادة العرب أن منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد لفلسطين وشعبها، وطلب من الملك حسين التخلي عن مسؤولية الأردن عن الضفة الغربية، وبناء على ذلك أصدر الملك حسين إعلاناً بفك ارتباط الضفة الغربية بالمملكة الأردنية الهاشمية لتصبح تحت مسؤولية منظمة التحرير ودولة فلسطين المنبثقة عنها.

وبذلك تحقق الفصل النهائي بين فلسطين وشعبها مع آخر حبل كان يربطها بنظام سياسي معترف به دولياً وواقعياً، وأصبحت دولة فلسطين التي لا تملك أي سلطة

على ارضها لا واقعياً ولا حتى دولياً والشعب الفلسطيني الواقع برمته تحت الاحتلال اليهودي اصبحا منقطعين عن أي مسؤولية حقيقية لأي من العرب الذين لم يبق من تأييدهم لفلسطين سوى تصريحات متكررة بأن قضية فلسطين هي قضية العرب الأولى وليس لهذه الصفة من الأولوية سوى التصاريح المجردة عن أي قوة أو فائدة. وبهذا انضمت فلسطين إلى النظام الإقليمي المسيطر على الوطن العربي كله ولم يعد للمعنى القومي العربي على الرغم من تفككه وضعفه أي مسؤولية لا سياسية ولا أخلاقية ولا واقعية عن فلسطين التي أصبحت على الرغم من عروبتها أضيَع من الأيتام على مائدة اللئام.

مهزلة الدولة الفلسطينية

واختتمت مهزلة أقلمة دولة فلسطين بالسلوك المهين لمسؤولي منظمة التحرير ودولة فلسطين بقبولهم أن تمنح اسرائيل مبنى في مدينة رام الله الفلسطينية مقراً للحكومة، وحَسبُ هذه الدولة أن يُستقبل رئيسها من بعض المواقع السياسية وكأنه رئيس دولة تملك زمام أمرها، وإمعاناً منه ومن رفاقه في تصديقهم لهذا الوهم شرع في التفاوض مع ساسة اسرائيل وتحت مظلة أهم حليف لها (الولايات المتحدة الامريكية) وبمباركة من معظم الدول العربية أو سكوتها وعدم الاعتراض عليها تم عقد الاتفاقية المشؤومة مع اسرائيل اتفاقية كامب ديفيد ومن بعدها اتفاقية اوسلو.

الاتفاقيات الفلسطينية مع اليهود (اسرائيل)

كانت اتفاقية كامب ديفيد التي عقدت بين الكيان الصهيوني (اسرائيل) وبين منظمة التحرير الفلسطينية برعاية أمريكية ومصرية تمهيداً لسلسلة من الاتفاقيات بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وأشدها تفريطاً بالحقوق الفلسطينية اتفاقية اوسلو، وقد كرست هاتين الاتفاقيتين فصل فلسطين فصلاً كاملاً عن محيطها العربي ومن ثم الإسلامي وأصبحت فلسطين بقيادة مسخ الدولة الفلسطينية وحدها بين فك اسرائيل وحليفاتها من الدول الغربية المسيحية بزعامة الداعم الأقوى للكيان اليهودي، الولايات المتحدة الامريكية، وقد نتج عن هذا الوضع المهين لفلسطين انهيار جدر الدعم العربية للقضية الفلسطينية وعقدت كل من مصر والأردن كل منهما معاهدتها الخاصة مع الكيان الصهيوني، هاتين المعاهدتين جعلتا كلا من مصر والأردن كيانا منفردا في العلاقة مع اسرائيل بمعزل عن فلسطين وحقوق شعبها المهجر المشتت في وطنه فلسطين المحتلة وخارجها في كل أرجاء الأرض.

جامعة الدول العربية

بعد أن استقرت كيانات الدول الإقليمية العربية بعد الحرب العالمية الأولى، شعرت الشعوب العربية بالخذلان والغضب على ما آلت اليه مناطقها من التقسيم والفرقة على يد المسؤولين والقادة الجدد الذين كانت لهم اليد قي تمزيق الوطن وتشتيت الأمة بالخضوع والخنوع للقوى الاستعمارية الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا، وكذلك شعرت بريطانيا نفسها أن المنطقة بحاجة إلى بديل عن الوحدة السياسية والعسكرية والسكانية التي كانت قائمة، وفي ضوء هذا التحسس من جميع الأطراف تداعى حكام الدول الجديدة إلى إقامة نوع من التقارب بين دولهم، ونجم عن ذلك تأسيس جامعة الدول العربية بمباركة من بريطانيا و الغرب، وقد ضمت

الجامعة في بداية تأسيسها دول: مصر، سوريا، العراق، السعودية، اليمن، شرق الأردن ولبنان. وصدر أول بيان لإقامة هذه الجامعة التي كانت بمثابة ناد لهذه الدول واختاروا مصر مقراً لها ومنها أول أمين عام لها، واستمر انضمام المزيد من الدول العربية لجامعة الدول العربية بعد استقلال كل منها حتى أصبح عدد أعضاء الدول المنتمية لها اثنتين وعشرين دولة.

على الرغم من قيام أحزاب وحركات في معظم الأقطار العربية تدعو إلى قوميات أخرى غير القومية العربية، مثل الدعوة إلى المصرية التي كانت تعد نفسها امتداداً للحضارة الفرعونية القديمة في مصر، وفي سوريا، قامت دعوة إلى الفينيقية الأثرية البائدة تحت اسم الحزب القومي السوري وقامت حركات لبعث القومية الكردية في العراق، والبربرية أو الأمازيغية في شمال افريقيا وغيرها من القوميات الإفريقية، إلا أن عددا من القيادات العربية استطاعت التغلب على هذه النزعات ولو مؤقتا، ونجحت في تأسيس النادي العربي باسم الجامعة العربية، وأعلن عن ولادة جامعة الدول العربية في سنة 1945م.

وعلى الرغم من اتساع قاعدة هذه الجامعة بانضمام جميع الدول العربية التي حصلت على استقلالها بعد عام 1946 لتضم الدول العربية في شمال افريقيا ودول الخليج العربي، فقد بقيت جامعة للدول والحكام وليس للشعوب العربية، ولم تستطع مؤسسة جامعة الدول العربية أن تحقق أية مكاسب ذات تأثير على أوضاع تلك الدول أو شعوبها، ويمكن الإشارة بوضوح إلى عجز هذه المؤسسة التي كلفت شعوب المنطقة نفقات باهظة على إنشائها ودفع رواتب وتكاليف موظفيها الدائمين ونفقات اجتماعاتها على كافة مستوياتها من لقاءات القمم للقادة؛ إلى اجتماعات الفنيين والمتخصصين في مختلف النواحي.

ففي المجال السياسي لم تنجح الجامعة في تحقيق أي مستوى من التجمع السياسي الفعال حتى في أهم القضايا المصيرية مثل القضية الفلسطينية التي نجم عنها سلخ أهم جزء في المنطقة العربية حيث فصلت الدولة اليهودية بين جناحي العرب في

آسيا وافريقيا. وكذلك الأمر في الجانب العسكري حيث فشلت الجامعة عام 1948 في تجييش أي قوة في وجه المنظمات اليهودية القادمة من أوروبا والتي استطاعت التغلب على الجيوش العربية الهزيلة آنذاك.

وقد يتقبل البعض اعتذار تلك الجيوش بأن البلاد العربية في حينها كانت محتلة من قبل الدول الإستعمارية الإوروبية، ولكن من المستحيل قبول أي تبرير لهزائمها المخزية عام 1967 على الرغم من أن كل تلك الدول كانت قد حققت استقلالها، وقامت في بعضها أنظمة حكم عسكرية أو شبه عسكرية ادعت لنفسها أنها إنما استولت على الحكم لانشاء دول قوية في جيوشها قادرة على حماية الأوطان ورد العدوان.

وعجزت الجامعة العربية كذلك عن تحقيق أي نوع من التكامل الاقتصادي أو إزالة الحواجز التي تحول دون انفتاح بعضها على بعض، وبقيت هذه الدول ضمن الجامعة بعضها من أغنى دول العالم وأخرى من أفقر دول العالم قاطبة. ولم تنجح الجامعة في إقناع هذه الدويلات صغيرها وكبيرها بالإتفاق على عملة واحدة تساعد على مزيد من حركة رؤوس الأموال والإستثمار بين هذه الدول، حتى في المجال الثقافي الشامل للتربية والتعليم فإن الجامعة لم تنجح في إحداث أي تغيير يساعد على التوحد أو على التقارب بين مستويات التعليم سواءا الجامعي أو ما قبل الجامعي في تلك الدول.

وقد عجزت جامعة الدول العربية حتى عن المحافظة على السيئ ومنع الاسوأ وهو وقوع مزيد من الانقسام الأشد ألما وحسرة على واقع هذه الدول المنضوية تحت مظلة هذه الجامعة، فلم تستطع المحافظة على الكيانات التي كانت قائمة عند قيام الجامعة، لقد كان بين مصر والسودان نوع من التوحد حتى مع وجود الوصاية البريطانية على السودان، وكان لقب الملك المصري ملك مصر والسودان، إلا أنه بعد أن خرجت السودان عن الوصاية البريطانية واستبدل بالنظام الملكي في مصر

النظام الجمهوري بقيادة عبد الناصر، أعلنت مصر والسودان إنفكاكهما النهائي وأصبحت كل منها دولة مستقلة.

أما الانقسام الثاني فقد حدث في ساحل شرق افريقيا، حيث كانت سلطنة عمان تشتمل على الجزء الأكبر من جزيرة زنجبار وكان سلطان عمان يلقب بسلطان مسقط وزنجبار، وكانت إمارة تانجنيقا المجاورة لزنجبار تتمتع بحكم مستقل وحصل فيها انقلاب بزعامة الاشتراكي نيريري المتحالف مع المعسكر الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، وقد عمل نيريري على مهاجمة الجزء العربي من زنجبار واجتياحه بحجة اقامة دولة اشتراكية تتوحد فيها زنجبار مع تانجانيقا واطلق على الدولة الجديدة اسم تانزانيا، ونجم عن هذه العمليه مقتل آلاف من العرب في زنجبار وتشريد الآلاف، وكان أقوى مؤيد لجريمة نيريري على قتل وتشريد عرب زنجبار هو جمال عبدالناصر الذي عده العرب آنذاك نبي القومية العربية وباعثها.

أما الأقطار العربية في شمال افريقيا فقد كانت تتطلع إلى إقامة وحدة مغاربية بعد استقلالها عن فرنسا، ولكن لم تتخذ أي من هذه الدول أي خطوة حقيقية مع أي من جيرانها، بل إن بعضها عمل وما زال يعمل على تقسيم بعض الدول المجاورة له، أما ما أعلنت عنه مجموعة الدول المغاربية في بداية استقلالها من إقامة وحدة مغاربية فيما بينها، فانه لم يكتب لها الحياة، ولحقت بمحاولات الوحدة التي ماتت واندثرت بين مصر والعراق وسوريا أو بين مصر وسوريا أو بين العراق والأردن .

الفصل الخامس

الحركات الإسلامية

إن المتتبع للأحداث التي ألمت بالأمة الإسلامية منذ التوجه الاستعماري الاوربي مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى في الربع الاول من القرن العشرين، يتبين له أن مقاومة هذا الزحف الاستعماري كانت تقع على كاهل دولة الخلافة، إذ كان ذلك الكيان السياسي ممتد من اقصى الغرب في افريقيا إلى حدود دولة روسيا القيصرية والى تخوم الصين في أقصى الشرق، ولم يكن ذلك خافيا على القوى الاستعمارية سواءا لدى قياداتها السياسية أو العسكرية أو الفكرية الثقافية. إن طبيعة وتاريخ الإسلام منذ انبثاقه في الجزيرة العربية تحت قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده قادة الدولة الإسلامية، أثبت أن هذا الدين قادر باستمرار على تجديد مجتمعة على الرغم من كل القوى التي كانت تستهدف القضاء على الوجود الإسلامي.

ولا شك أن تجربتَي التصدي للغزو الصليبي والغزو المغولي ستبقى معلما للقدرات الإسلامية الذاتية التي تولدت من رحم الكيان الإسلامي القادر بإستمرار على تجديد ذاته، وقد بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته بميزتها على تجديد ذاتها، ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها (الجامع الصغير شرح العزيزي ج1 ص 410).

وإن المتتبع لأحوال الأمة الإسلامية لينبهر بكثرة دعاة الإصلاح والمقاومين لمحاولات القضاء على قوة المجتمع الإسلامي، في طول ديار الاسلام من أقصاها إلى أدناها، ويبرز الدعاة وقادة الفكر في كل أقطار الإسلام من الهند وأفغانستان وإيران وتركيا والعراق والجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر والسودان

والمغرب وإفريقيا، ولم ينفك هؤلاء الدعاة عن الدفاع عن الإسلام والوقوف في وجه الغزو الفكري والثقافي الإستعماري الذي استطاع أن يجند لنفسه دعاة ومتفلسفين أقاموا مع القوى الثقافية الوافدة مع القوى الاستعمارية والتغريبية منابر لدعوتهم الهادفة لنشر التغريب، وإبعاد الشباب المسلم عن التمسك بمبادئ الإسلام بإيهامهم أن تقدم الأمة ورقيها إنما يكون بتقليد المنهج الأوروبي في السلوك والاخلاق والقيم تحت شعارات الحرية والمساواة وحقوق الإنسان وغير ذلك من الشعارات التي بدأت تسيطر على قطاعات ليست قليلة من أبناء الأمة، ومما قوّى هذا التوجه، الإنبهار الشديد بالتقدم العلمي والصناعي في أوروبا، وأن مستقبل الشعوب الشرقية وبخاصة الإسلامية إنما هو في متابعة الغرب من جميع النواحي الثقافية والسياسية إلى جانب الابتعاد عن الدين، إذ كان الدين إبان النهضة الأوروبية هو المسؤول عن التخلف والظلم ومحاربة الحرية، غير مدركين أن مبادئ الإسلام إنما كانت عبر تاريخه هي الحامية للحرية والحاضنة للتقدم العلمي، وأنها هي أهم العوامل في توحيد الأمة وحمايتها من أسباب الفرقة والضعف والتبيعة.

وعلى الرغم من أن القوى الإقليمية والقومية كانت في الغالب في صف التغريب الأوروبي وضد التمسك بعناصر الثقافة الإسلامية ووحدة الأمة على أساسها فإن هذه القوى المعادية للإسلام لم تستطع طمس الجهود الإسلامية، فقد كانت القوى الغربية المتعاونة مع محاولات التغريب في حالة مستمرة من الكر والفر في المعركة مابين القوى الإسلامية متمثلة بالدعاة والحركات الإسلامية من جهة ومن يحاول إجهاضها من قوى التغريب تحت شعار التحديث والنهضة من الجهة الأخرى.

وهكذا فإن المؤرخ للحركات الإسلامية المعاصرة يواجَه بأسماء شتى وألوان متعددة من الجماعات والأحزاب والحركات الإسلامية من بداية القرن العشرين في أواخر دولة الخلافة العثمانية وإلى وقتنا الحاضر.

وسوف أحاول أن أستعرض أبرز هذه الجماعات والحركات والأحزاب التي تشكل ألوان الإتجاه الإسلامي وأطيافه فيما يلي :

المحاولات الدعوية الفردية

يمكن القول أنه في أواخر الدولة العثمانية لم يتجه دعاة الإصلاح الإسلامي إلى تكوين أحزاب أو تجمعات على الرغم من بدء تكون تجمعات قومية وإقليمية في تلك الفترة مثل الحركة القومية التركية، والحركة القومية العربية وغيرهما وكانت هذه الحركات إما سرية أو شبه سرية لأنها تتعارض مع مبادئ الدولة العثمانية، أما الدعاة الإسلاميون فلم يشعروا بالحاجة إلى تكوين تجمعات إذ أن هدفهم الاساسي هو إصلاح الدولة العثمانية وليس تغييرها أو تبديلها كما كان هدف الحركات القومية.

لقد كانت معظم الأقطار الإسلامية تموج بالتطلع إلى النهضة الشاملة سياسيا وإقتصاديا، ونشط كثير من المفكرين الإسلاميين إلى الدعوة لإصلاح أحوال الأمة، وكان معظم هؤلاء المفكرين الإصلاحيين يبنون برامجهم على الإعتماد على إصلاح النظم السياسية التي كانوا يعيشون في ظلها وأهمها دولة الخلافة الإسلامية إذ كانوا يرون أن صلاح هذه الدولة سيكون له أبعد الأثر في إصلاح الأمة عامة، وكان من أهم الدوافع على هذا التوجه ما كان يراه هؤلاء المفكرون من محاولات الدول الغربية العنيفة للنيل من دولة الخلافة إما عن طريق حروبها المباشرة ضدها كما كان من محاولات روسيا القيصرية من شرقها أو بريطانيا من غربها وجنوبها، وإما عن طريق إقتطاع ما تستطيع الدول الأوروبية من أجزاء من الأقطار التي كانت جزءا من الخلافة أو متفاهمة معها ومؤيدة لوجودها، ومن أبرز معالم هذا الأسلوب سيطرة بريطانيا على الهند وإقامة حكم إستعماري فيها وسيطرة فرنسا وإسبانيا على مواقع في شمال وغرب افريقيا، وقد كانت هذه المواقع

تشكل أجنحة تمد دولة الخلافة بالتأييد السياسي بل والمالي، وكلما استطاعت دولة من الدول الأوروبية انتزاع جزءِ من هذه الأجنحة فإنها كانت تقص جناحا من أجنحة الدولة الإسلامية .

إن هذا الواقع المؤلم لأحوال أمة الإسلام كان من أهم أسباب نشاط قادة الفكر والإصلاح الإسلامي، لقد رأينا من هؤلاء المصلحين من تصدى للغزو الفرنسي في المغرب، ومنهم من دعا إلى مقاومة الإنجليز في الهند أو مقاومة روسيا في أقطار وسط آسيا .

جمال الدين الأفغاني

قد لا تحتمل هذه الدراسة المحدودة الإحاطة بتفاصيل حياة ونشاط هؤلاء الدعاة المصلحين في كل تلك الاقطار، إلا أن أحد هؤلاء الدعاة المفكرين كان له اثر قوي في أكثر من موقع في البلاد الإسلامية، هو السيد جمال الدين الافغاني، لقد بدأ جمال الدين الافغاني دعوته للإصلاح في بلده أفغانستان، وحاول أن يوجه حكامها إلى تحديث دولتهم وإشراك اهلها في الحكم على مبدأ الشورى والتمسك بالشريعة، إلا أن حكام أفغانستان شعروا أن هذه الدعوة الإصلاحية يمكن أن تشكل خطرا على حكمهم الفردي وهكذا اضطر جمال الدين إلى الهجرة عن بلده واقام فترة في الهند، ولكنه اضطر ايضا إلى تركها فذهب إلى إيران ثم إلى الحجاز ثم غادر إلى مصر، وعندما ضاق به حاكمها الخديوى توفيق غادرها إلى إسطنبول، والتف حوله عدد كبير من الأتباع في إسطنبول مؤيدين لدعوته إلى الإصلاح السياسي والتعليمي والإقتصادي، فضاق به بعض المسؤولين واضطر إلى مغادرة عاصمة الخلافة لأقل من سنة ثم عاد إليها، وترددت إقامة جمال الدين الافغاني ما بين مصر وإسطنبول وباريس وبطرسبيرج بروسيا وإيران وألمانيا وقبلها في أفغانستان والهند والحجاز، وفي كل هذه الاماكن كان له تأثير على

الحياة السياسية من خلال دعوته الإصلاحية، وقد استطاع أثناء إقامته في مصر خاصة تشجيع عدد من الكتاب والادباء في مصر على الكتابة لنهضة الأمة، ويمكننا أن نعد جمال الدين الافغاني أنموذجا للمفكرين الإسلاميين الذين بذلوا جهودهم الشخصية في هذا السبيل دون أن ينجحوا في إنشاء أحزاب وتنظيمات سياسية أو غير سياسية لتحقيق هذه الأهداف، وقد لخص الإمام الشيخ محمد عبده أحد أبرز تلاميذ الافغاني منهج أستاذه بقوله "كان له من حياته مقصدان؛ أحدهما علمي؛ وهو تنبيه المسلمين إلى الإصلاح الديني والعلمي بالكتابة والخطابة وثانيهما سياسي اجتماعي؛ وهو ترقية دولة اسلامية، أية دولة كانت" وحسبك أنه بدأ عمله في إمارة تابعة لدولة أخرى غير وطنه وهي مصر، فقد كان يرمي إلى تمدينها وتعزيزها حتى تكون في القوة والعلم والمدنية كأحسن البلاد الأوروبية، ثم تعلق أمله بالسودان ثم بإيران ثم بالدولة العثمانية (تاريخ الاستاذ محمد عبده ج1 ص 73)،إن هذا المصلح المفكر حاول تكوين مجموعة من العاملين الذين يمكن أن يتحقق على أيديهم مستوى من الإصلاح، فقد توسط لدى الفرنسيين للمساعدة على تأسيس الحزب الوطنى الحر في مصر، كما حاول في بعض فترات نشاطه دخول الماسونية ظانا أنه من خلال التجمع الماسوني قد يستطيع التأثير في ترقية الدولة التي كان يعيش فيها ولا شك أنه قد خدع بهذا التجمع العالمي دون أن يدرك جذوره اليهودية والاستعمارية.

لقد كانت حياة هذا المفكر ملء زمانه، وامتد تأثيره إلى عدد من الأقطار الإسلامية على الرغم من أنه لم ببلغ من العمر عند وفاته الا ثمانية وخمسين عاما أمضى منها أربعين عاما متنقلا في بلاد الإسلام مُعلما ومُصلحا وداعيا إلى التغيير والنهضة، وحسبنا أن نعد له من آثاره الباقية عدد من التلاميذ المريدين الذين كان لهم آثار باقية في النهضة المعاصرة أمثال: الشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا وغيرهم، وقد أخذ عليه تورطه مع الأحزاب

والشخصيات القومية الرافضة للإصلاح الإسلامي، كما أُخذ عليه عدم إدراكه الخطط الأوروبية في القضاء على الخلافة العثمانية.

مصلحون آخرون

لقد ظهر في معظم الأقطار الإسلامية مفكرون يضيق المقام عن استعراضهم، قادوا الحركات الإصلاحية وبخاصة في الأقطار التي ابتليت بالإستعمار الغربي الأوروبي، ووجهوا نشاطهم بالدرجة الأولى لمقاومة الهجمة الإستعمارية في المغرب العربي ومنطقة بلاد الشام ووسط آسيا وشرق آسيا كإندونيسيا والهند من أمثال الثائر الأمير عبد القادر الجزائري ذي الأصل البربري في الجزائر وعمر المختار في ليبيا وعبد الكريم الخطابي في المغرب، وانتهى جهاد معظمهم بالاستشهاد على يد القوات الإستعمارية قبل أن يتمكنوا من تأسيس مجموعات أو أحزاب منظمة تستمر بعد استشهادهم أو نفيهم من الأقطار التي حاولوا تحريرها من قبضة القوى الاستعمارية، ولا تزال مثل هذه الشخصيات الإصلاحية الثائرة نماذج مضيئة في بلادهم وفي خارجها على الرغم من عدم بروز كيانات سياسية مستمرة، إلا أن بعض هؤلاء المصلحين نجحوا في تأسيس حركات حزبية إصلاحية ذات توجهات مختلفة، فمنها من تركزت على الجانب الدعوى وأخرى على الجانب السياسي وأخرى اختارت الوجهة التعبدية أو الصوفية أو الإصلاح العقدي والفكري، وامتد وجودها عبر مختلف الأقطار الإسلامية على درجات مختلفة في الإنتشار، فمنها من عبرت دعوته حدود الأقطار التي انبثقت منها ومنهم من بقيت دعوته محلية ضمن قطره، ويجمعها كلها أنها ذات طابع إسلامي استمدت أصولها من جانب أو أكثر من ميادين الفكر الإسلامي الواسع.

وقد برز عدد من الدعاة والاصلاحيين ، ومؤسسي الحركات والاحزاب الدعوية والسياسية في كل الأقطار الإسلامية خارج الوطن العربي، أمثال ابو الحسن

الندوي في الهند من حركة التبليغ التي تأسست في الهند أواخر القرن التاسع عشر على يد محمد الياس الكاندهلوي. ويمكن هنا الإشارة إلى نشاط المذهب الشيعي خارج موطنه في أيران بعد قيام الدولة الاسلامية فيها عام 1979، ويبدو أن النشاط الشيعي المعاص خارج أ]ران قد يؤدي إلى توتر وربما نزاع بين مذهبي أهل السنة والشيعة ، وأبو الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية في باكستان، وغيرهما في أندونيسيا وماليزيا والفيلبين وعدد من الأقطار الافريقية، وسوف لن تعنى هذه الدراسة بهم لأأنها قاصرة على الحركات في الوطن العربي.
وسوف أحاول استعراض عدد من هذه التكتلات أو التجمعات الإسلامية العربية دون الخوض في تفاصيل نشأتها كلها بل في التركيز على واقعها ومدى تأثيرها في الوطن العربي أولا وفي الأمة الإسلامية، مكتفيا باستعراض وتحليل أهم هذه الحركات وأبعدها أثرا في العالم الإسلامي وهي:

الصوفية

لا شك أن الحركة الصوفية عرفت عبر التاريخ الإسلامي منذ بدايته، وقد انصب اهتمام هذه الحركات بالدرجة الأولى على التطهير النفسي من خلال التركيز على العبادات والتربية الشخصية للمسلم مع التوجه نحو التطهير الذاتي وإبراز المحبة لرسول الإسلام أولا ثم إلى قادة ومؤسسي هذه الحركات وإضفاء قدر كبير من المحبة عليهم وإلتزام نهجهم وطاعتهم، لدرجة يمكن أن توصف بالغلو والمبالغة.
ويصف بعضهم العلاقة بين الشيخ وتلميذه بعبارة مشهورة عنهم (المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي المغسل).
وتعويضاً عن مساهمة الحركات الصوفية في الإصلاح السياسي، إنحرفت هذه الحركات في توجيه أتباعها إلى المزيد من مظاهر العبادات والرياضات دون أي مساهمة ذات تأثير حقيقي في الإصلاح السياسي أو في مقاومة القوى

الاستعمارية التي أحكمت قبضتها على مفاصل الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد التي سيطرت عليها.
بل إن الحركات الصوفية لم يكن لها أثر كبير عبر تاريخها في محاربة الهجمات الأوروبية أو غيرها في فترة الحروب الصليبية قديماً أو الإحتلالات الإستعمارية المعاصرة، حتى بالنسبة للقضية الفلسطينية، فإنه لم يكن للتوجه الصوفى جهود فعاله في مقاومة الهجمة اليهودية على فلسطين منذ بدايات محاولاتها لإقامة الدولة اليهودية ولا بعد أن نجحت الحركة الصهيونية في إقامة الدولة، بل ولا في الوقت الحاضر على الرغم من إيغال الدولة اليهودية في قضم فلسطين وتشريد أهلها الذي يزداد في كل يوم شراسة وقسوة كما نرى في مشاريع الاستيطان في ما تبقى من فلسطين، أو في حصار غزة وخنق أهلها والمحاولات المستمرة لتهجير اهل فلسطين فضلا عن منع أي لاجئ فلسطيني من الدخول إلى فلسطين، وسيبقى المسجد الاقصى ومدينة القدس اوضح دليل على تقصير معظم الحركات الإسلامية ومنها الصوفية في الانخراط بمقاومة الدولة اليهودية والاكتفاء بمزيد من قصائد المديح للرسول صلى الله عليه وسلم والدعاء للمسلمين بالنصر ولأعدائهم بالهلاك، وقد كان الأجدر بكل العناصر الإسلامية الإقتداء برسول الله الذي كان يجتهد بالدعاء ولكن مع الأخذ بكل أسباب القوة العسكرية ومقاومة القوى المعادية للإسلام عسكريا وسياسيا إلى جانب الدعاء إلى الله عز وجل، وقد يستثنى من ذلك دور بعض الحركات الصوفية في شمال افريقيا وبعض الاقطار الافريقية في مقاومة الهجمة الاستعمارية على المنطقة في اواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

السلفية

إن أصل الدين الإسلامي قائم على المصدرين الرئيسين لهذا الدين، وهما القرآن الكريم والسنة النبوية، ولقد كان علماء الصحابة ومن بعدهم التابعين في معظمهم يعتمدون على هذين المصدرين مباشرة لتصريف شؤون الافراد والمؤسسات من خلال فهمهم لهما ودقة تفسيرهم، لتمكنهم من الفهم الصحيح لنصوصهما، ولعل حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى الصحابي معاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن يؤكد منهج جيل الصحابة لفهم أحكام الشريعة، فقد سأل الرسول معاذا بم تقض فقال: بكتاب الله فان لم أجد فيه ففي سنة رسول الله فسأله فإن لم تجد في أي منهما؟ فقال أجتهد رأيي ولا آلو(مسند ابو داود ج2 ص 272).

وعندما امتدت الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة العربية ودخلت أمم شتى ضمن النظام الإسلامي، منهم من أسلم ومنهم من بقي على دينه، ولم تعد الدولة الإسلامية كما كانت في المدينة، ولم تعد المشاكل التي تواجه المجتمع الإسلامي بحدود ما واجهته الدولة في المدينة المنورة، ولم تعد اللغة العربية هي اللسان الأوحد في تلك الدولة المترامية الأطراف التي ضمت أمماً وأعراقاً ولغات شتى، وواجه علماء الشريعة تحديات جديدة لحل المشكلات والتعقيدات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية للسكان المتعددي الأصول واللغات وما ينجم عن هذا التنوع السكاني والجغرافي في الدولة، وبرز في كل من هذه الأقطار علماء وفقهاء احتاجوا إلى مزيد من التوسع في تنزيل نصوص القرآن والسنة على الأوضاع المستجدة في كل قطر من هذه الاقطار، وتعددت مصادر التعلم في هذه الاقاليم حسب من استقر في كل منها من الصحابة أو الجيل الذين جاءوا من بعدهم، وهكذا بدأت تظهر اجتهادات وآراء بين هذه الأقطار وفي داخل كل قطر كذلك، ولم ينقضِ القرن الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تبلورت هذه الاجتهادات ليصبح كل منها مدرسة لها طابعها وخصائصها، تتفق أحيانا مع

بعضها في جوانب وتختلف في أخرى، وعرفت من بعدُ بالمذاهب الفقهية، وقد استقرت هذه المذاهب في العالم الإسلامي على ثلاثة أصول هي مذاهب اهل السنة، ومذاهب الشيعة، ومذاهب ائمة الفقه الظاهري، وثمة مذاهب اكثر محدودية من هذه الاصول الثلاثة، لكنها ليست ذات تأثير واسع في العالم الإسلامي المترامي الاطراف مثل مذاهب الإباضية وما في مستواها، وعبر التاريخ الإسلامي الممتد حتى اليوم لخمسة عشر قرناً كانت تبرز من خلال هذه المذاهب أو من خارجها اجتهادات تدعو إلى العودة إلى الأصلين الرئيسين؛ القرآن والسنة، وعدم الالتزام بالمذاهب الفقهية في الأحكام الشرعية.

وإلى جانب المذاهب التي كانت تركز على القضايا الفقهية والشرعية ظهر علماء من داخل المذاهب أو من خارجها صبوا اهتمامهم على المسائل العقائدية، على أساس أن عقيدة التوحيد وما يتفرع عنها سواء ما اتصل منها بالأمور الغيبية كمسائل الآخرة وما بعد الموت،أو ما يتصل بالحكم على الأشخاص أو تقييمهم في ضوء الأصول العقائدية في الإسلام، وعرف هذا الاتجاه بأهل الكلام ويعنى بالدرجة الأولى بهذا الجانب من الدين دون الخوض في المسائل الأخرى من الدين كالعبادات والمعاملات إذ كانوا يرون أن هذا الجانب قد كفاهم مؤونته علماء المذاهب على اختلافها.

وقد تباينت آراء العلماء والمفكرين المسلمين في موضوع العقيدة، فقد كان بعضهم أقرب إلى الإلتزام بالنص القرآني بالدرجة الأولى، وإلى حد أدنى بنصوص السنة، وذلك أن الموضوع العقدي يعتمد على النص القطعي وهو القرآن، أما السنة فقد وضع كثير من نصوصها على التمحيص، مما أدى إلى اعتماد بعضها اعتمادا تاما وهي الأحاديث التي بلغت الحد القطعي في ثبوتها وهي ما صنفت بالأحاديث المتواترة أي التي وصلت عن رسول الله من مجموعة إلى مجموعة يستحيل اجتماعها على الكذب أو الخطأ أو النسيان، وتكاد مثل هذه النصوص تصل إلى درجة النص القرآني من حيث ثبوتها، وفي هذه الحالة تصبح مصدرا للعقيدة،

وحيث أن مثل هذه النصوص محدودة العدد بالنسبة لنصوص القرآن الكريم التي تعد كلها قطعية الثبوت، إلا أن علماء العقيدة احتاجوا في دلالة مثل هذه النصوص إلى تحكيم العقل والمنطق للوصول إلى دلالاتها، وذلك أن إنكار العقيدة يمكن أن يؤدي إلى الخروج عن الدين الإسلامي إلى دائرة الكفر أو الشرك على خلاف الخروج على النصوص الخاصة بالأعمال أو الواجبات السلوكية أو نحوها فقد يؤدي ذلك إلى وصف مخالفها بالمعصية دون أن تعرضه إلى الخروج من الدين.

وفي ضوء هذا الفهم اتجه علماء العقيدة إلى الاستفادة من مناهج التفكير العقلي الانساني، وتطبيق مقاييسه على الأمور العقدية التي تحتاج إلى جانب النص المنقول، المنهج العقلي المقبول .

وقد عرف المنهج العقلي في بعض الأمم السابقة وأبرزها المنهج العقلي لفلاسفة اليونان القدماء، وقد اعتمد علماء العقيدة الإسلامية منذ القرن الثاني الهجري المنطق اليوناني الذي وضعه الفيلسوف اليوناني ارسطو، وهكذا أصبحت الفلسفة اليونانية التي ترجمت إلى العربية مصدرا للتفكير والمحاكمة العقلية لدى عدد من علماء العقيدة في الإسلام .

وقد برزت عدة مدارس فكرية عقدية تأخذ كل منها قدرا من مناهج الفلسفة اليونانية ويمكننا الإشارة إلى أشهر ثلاثة من هذه المدارس لأهل السنة؛ هي المعتزلة والماتريدية والأشاعرة. وتعد المعتزلة اكثرها تأثراً بالفلسفة وأقل منها الماتريدية وأقل منهما مذهب الأشاعرة.

وقد شهد القرن الثالث الهجري طفرة للفكر الفلسفي في تأثيره على عقول عدد من علماء الفلسفة الإسلامية المتأثرة بالفلسفة اليونانية، وقام صراع بين أنصار الفلسفة ودعاة التمسك بالنهج الأصولي، وبلغ الخلاف ذروته بين الاتجاهين عندما تجاوز الخلاف بينهما محيط المفكرين والعلماء عندما حاول الإتجاه الفلسفي ربط العقيدة الإسلامية بقواعد الفكر الفلسفي، حيث اعتزل عدد من علمائها منهج غالبية

العلماء الأصوليين الذين رفضوا تدخل المنهج الفكري الفلسفي في الدين وبخاصة في العقيدة، وهكذا أطلق على أنصار تدخل الفلسفة في الدين اسم المعتزلة، وقد استطاع هذا الإتجاه المعتزلي إستمالة الخليفة المأمون إلى جانبه فاحتدم النقاش الفكري بينهما وكان لتبني الخليفة لهذا التوجه أثر واضح وقوي على انتشار مذهب الإعتزال إلى العامة بعد أن كان مقصورا على المحيط الدراسي على مستوى الخاصة، وتدخل الخليفة المأمون الذي مال إلى تبني الإعتزال والضغط على العلماء الأصوليين الذين رفضوا الخضوع للخليفة، وقاد الإمام أحمد بن حنبل رابع أئمة مذاهب أهل السنة هذا الإتجاه عندما رفض تدخل الفكر الإعتزالي بأمور العقيدة ومعه جماهير الأمة، وأمر الخليفة بالقبض على الإمام ابن حنبل، وبلغ إرهاب الدولة ذروته زمن الخليفة المعتصم، إلا أن الإمام أحمد بقي متمسكا بموقفه الرافض لفكر المعتزلة على الرغم من تعذيبه في سجن الخليفة وتحول الأمر إلى فتنة عامة وبخاصة في بغداد المركز العلمي الأقوى لكلا الإتجاهين.

واستمر الخلاف على أشده بين الإتجاهين إلى أن توفي الخليفة المعتصم، والواثق بعده وتولى الخليفة المتوكل الذي أنهى تدخل السلطة في هذه المعركة، وأطلق سراح الإمام أحمد الذي أصبح بعد ذلك المذهب الأصولي السائد بين عامة الناس وسائر علماء الإسلام، وتراجع فكر المعتزلة إلى دائرة فئة المثقفين والدارسين، وحيث أن المجتمع الإسلامي لم يعرف قبل هذا الخلاف بين الاتجاهين تدخل السلطات الحاكمة، فقد بقي الخلاف يطغوا أحيانا وينام اخرى عبر التاريخ الإسلامي، وكان يبرز بين الفينة والفينة علماء لكلا الفريقين، وتمسك الفريق المخالف للفكر الفلسفي بمنهج علماء السلف القائم على اتباع أصلَيّ الدين؛ القرآن والسنة ومنهج من سبقهم، وأصبح لقب السلفيين عنوانا لهذا الإتجاه، ومن أبرز علماء هذا الإتجاه إبن تيمية الذي قاد الفكر السلفي إبان حكم المماليك وفترة الغزو الصليبي.

ولم يتدخل حكام المماليك ولا العثمانيين في مسائل الإعتقاد وإنما توجهوا إلى الإهتمام بالأحكام الشرعية ضمن مذاهب أهل السنة في كل منطقة، حيث سارت الدولة العثمانية على المذهب الحنفي مع أن جماهير الناس ضمن أقطار الخلافة كانوا اتباعا لأي من المذاهب الاربعة لأهل السنة أو مذهب الشيعة في مناطقها، وقد كان للصوفية في هذه الفترة أثرها في مجال العبادات والأخلاق والسلوك إلى جانب حبهم لمقامات الصالحين التي لم تخل منها منطقة في المجتمعات الإسلامية.

وكثيرا ما كان عدد من دعاة الإصلاح يدعون إلى تنقية المجتمع من مظاهر الاحترام لدرجة التقديس للمقامات لمخالفتها لمباديء أساسية في عقيدة التوحيد حيث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بناء القبور في المساجد حتى لا يتطور ذلك إلى تقديس الأشخاص أو قبورهم ومقاماتهم، إلا أن هذا التوجه لم تتبناه لا دولة الخلافة ولا أي سلطة في أي من الأقطار الإسلامية.

وفي بداية القرن الثامن عشر تأسست الدولة السعودية تحت قيادة محمد بن سعود الذي اتفق مع محمد بن عبد الوهاب الذي دعا إلى تنقية الدين من الخرافات وتقديس المقامات، وكانت بلدة الدرعية عاصمة تلك الدولة وتم الإتفاق بين محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب على اقتسام السلطة، فكان لمحمد بن سعود السلطة السياسية ولمحمد بن عبد الوهاب القيادة الدينية للدولة، وذلك عام 1727 ميلادية. واستمرت هذه الثنائية في جميع مراحل تطور تلك الدولة حيث عرفت باسم المملكة العربية السعودية، وأصبحت ثنائية الدولة سعودية الحكم وهابية العقيدة.

وتبنت الحركة الوهابية مبدأ السلفية والدعوة إلى اعتماد المصدرين الأساسيين؛ القرآن والسنة، وعدم الأخذ بأي من المذاهب السابقة؛ لامذاهب أهل السنة الأربعة، ولا مذهب الشيعة الامامية، وبالغ الوهابيون في بداية سيطرتهم العقائدية والشرعية في رفض واقع المجتمعات الإسلامية واتهموها أحيانا بالخروج على الإسلام، واستباحوا قتل مخالفيهم وبخاصة داخل الجزيرة العربية، حتى شن فريق منهم

هجمات على أطراف الجزيرة العربية في محاولة لفرض نفوذهم، ووقعت مصادمات مسلحة بينهم وبين منطقة جنوب ولاية الشام زمن الدولة العثمانية وقتل عدد من أهل منطقة جنوب سوريا.

وهكذا أصبح للسلفية الحديثة دولة تتبناها وتلتزم بها ضمن حدود الدولة السعودية، وقد تأثر أعداد من أبناء الأمة الإسلامية بالدعوة السلفية بقيادة الوهابية، وقد رأت بعض هذه الجماعات أن هذه السلفية قد تكون الحركة القادرة على تنقية الإسلام من تقديس الأشخاص وتحكم علماء المذاهب. وكان لاكتشاف البترول وتحول الدولة السعودية من دولة فقيرة محدودة القدرات إلى دولة غنية تملك أكبر احتياطي للنفط في العالم ما أثر في انتشار المذهب السلفي في عدد من الأقطار الإسلامية وغيرها من المناطق التي وجدت فيها أقليات إسلامية.

وقد تطورت بعض هذه التجمعات السلفية إلى حركات أو جمعيات أو أحزاب واستطاع بعضها التأثير على الحياة السياسية والفكرية في تلك المناطق، وبخاصة المناطق التي تعرضت لهجمات سياسية أو عسكرية من قوى خارجية، وكان من أبرزها مقاومة سيطرة الإتحاد السوفييتي على أفغانستان، فقد أمدت المملكة السعودية فئات من الذين تصدوا للغزو السوفييتي، واستطاعوا بالتحالف ايضا مع الولايات المتحدة الامريكية على هزيمة القوات السوفييتية وطردها من أفغانستان.

واستقلت بعض الحركات السلفية عن التبيعية للسعودية وتبنت مبدأ محاربة كل من عادى الأمة الإسلامية ولو كانوا من حلفائهم سابقاً، وقاموا بمحاولات قتالية في أقطار إسلامية وغير إسلامية في أوروبا وأمريكا، وتسمت بعض هذه الحركات بأسماء أخرى كالجهادية والقاعدة، والدولة الإسلامية وغيرها من الاسماء، وقد أطلقت عليها الدول التي رفضت هذا النوع من التنظيمات اسم الارهاب، وتكاتفت معظم هذه الدول على محاربة هذه التنظيمات الارهابية.

موقف السلفية من القضية الفلسطينية

إن أيا من الحركات السلفية سواءا صنفت إرهابية أو لم تصنف، لم يكن لها أي تأثير على أهم كارثة نزلت بالأمة الإسلامية في القرن العشرين وهي قيام الدولة اليهودية في فلسطين وفيها المسجد الاقصى، وعلى الرغم من أن الدولة السعودية الوهابية السلفية لا تبعد إلا بضعة كيلو مترات عن دولة اسرائيل اليهودية إلا أنها لم تشارك في أي جهد ضد احتلالها لفسطين وتشريد أهلها وغالبيتهم مسلمون ولا فى ما سبق من المؤامرات اليهودية في القرن التاسع عشر والعشرين التي نجم عنها إصدار بريطانيا لوعد بلفور عام 1917 الذي أسس لإقامة الدولة اليهودية في فلسطين، كما أنه لم يسجل التاريخ أي جهد للدولة السلفية في أحداث عام 1948 الذي تمخضت عن قيام دولة اسرائيل ولا في حرب عام 1967 التي نتج عنها إحتلال اسرائيل لما تبقى من فلسطين بما فيها المسجد الاقصى إلى جانب إحتلال سيناء المصرية ومنطقة الجولان السورية.

السلفية والوحدة العربية أو الإسلامية

أما بالنسبة لموضوع الوحدة العربية أو الإسلامية لم يتمكن السلفيون من تحقيق أي مستوى من الوحدة حتى بين أقطار الجزيرة العربية وبخاصة منطقة الخليج التي أقامت فيها قوى الاستعمار الاوروبي دويلات فسيفسائية لا تقوى أي منها على حماية نفسها، ومع أن هذه الدول مع السعودية حاولت تكوين نوع من التقارب فيما بينها تحت اسم مجلس التعاون الخليجي، إلا أن هذه المحاولة لم تسفر عن تحقيق أي مستوى من الوحدة لا السياسية ولا الاقتصادية ولا حتى الثقافية، بل إن هذه المؤسسة لم تنجح في التغلب على رواسب الخلافات القبلية القديمة التي توتر العلاقة بين هذه الدول بين الفينة والفينة.

السلفية والتشريعات

أما من حيث التشريعات والقوانين فإنه على الرغم من أن الدولة السعودية الوهابية أبقت على اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا للأحكام القضائية، إلا أنها لم تُخضع مراقبة الأموال العامة لا قبضا ولا صرفا للمحاسبة وفق أحكام الشريعة الإسلامية التي تؤكد على المحاسبة الشفافة ولا سيما عائدات النفط الهائلة، حيث جمع ملوكها وأمراؤها ثروات طائلة قد تكفى ثروة واحد منهم لإنقاذ قطر كامل من أقطار الإسلام التي تعد من أفقر المناطق في العالم، بل إن الزكاة التي تتحقق على تلك الثروات يمكن أن تساهم في تحرير البلاد الإسلامية الواقعة تحت الطغيان والظلم والفقر وأولها فلسطين.

كذلك لم تبذل الدولة السعودية جهودا ذات تأثير على تطوير التشريعات الاسلامية بما يتناسب مع تغيرات الحياة المعاصرة في كل المجالات الاجتماعية والسياسية، وبخاصة الاقتصادية.

الإخوان المسلمون

كان من نتائج حملة نابليون على مصر في القرن الثامن عشر خروج أعداد من الدارسين المصريين إلى فرنسا، وأدت عودة هؤلاء الدراسين إلى مصر مشربين بالإعجاب الشديد بالحضارة الغربية والنهضة الأوروبية في جميع المجالات السياسية والإجتماعية والإقتصادية، وتشكلت نتيجة ذلك طبقة من المثقفين ترى أنه لا بد من تقليد الحضارة الغربية لتحويل مصر من بلد متخلف تحكمه أنظمة سياسية فردية النزعة ليصبح بلدا متقدما وقويا يتمتع بنظام سياسي وأسلوب حياة على النمط الغربي، وصاحبت هذه الموجة دعوات جريئة للتخلي عن الأساليب الحياتية المرتبطة بكل ما هو موجود ومسيطر على الحياة المصرية، ومن ذلك التقاليد الإسلامية التي كانوا يرون فيها حائلاً بين انتقال مصر إلى التقدم والمعرفة في كل مجالات الحياة فيها، ولم يتغير هذا التوجه بين طبقة المثقفين عندما اصبح الإنجليز القوة الإستعمارية المسيطرة مكان الفرنسيين .

وهكذا تكونت أحزاب وجمعيات تدعو إلى هذا التوجه وزادت حركة التغريب على يد قادة هذه الأحزاب والحركات حتى بالغ بعضها في الدعوة إلى قطع علاقة الأمة بكل تراثها القديم حتى اللغة، وأن مصر هي أقرب إلى أوروبا منها إلى البلاد العربية والإسلامية، واجترأ بعض كتاب هذه الفئات إلى تبني إحدى اللغات الأوروبية كالفرنسية أو الإنجليزية بدلا من العربية لغة العرب ولغة القرآن الكريم، ودعوا إلى كل ما هو غربي ولو كان ظاهر الضرر والفساد مثل شرب المسكرات وانتشار البغاء وتحرر المرأة المصرية من كل ما هو تقليدي من لباس أو سلوك لتقوم بدورها في حركة التغريب والفرنَجة كما سُميت من قِبل بعض الكتاب.

وعلى الرغم من قيام أعداد من الكتاب والمفكرين الإسلاميين وبخاصة من علماء الأزهر في مقاومة حركات التغريب وبالدعوة إلى التمسك بالتراث الإسلامي وبخاصة في مجالات السلوك والاخلاق والعلاقات الاجتماعية، إلا أن سيطرة ذوي

الإتجاهات التغريبية على كثير من مواقع المسؤولية في ظل الإنتداب البريطاني على مصر أكسب التوجه التغريبي مزيدا من القوة وبرز زعماء سياسيون بعضهم على رأس الأحزاب وبعضهم تولى مناصب رئيسة في الحكم مثل رئاسة الوزراء والوزراء في مختلف المواقع، أما دعاة التمسك بالتراث والثقافة الإسلامية فلم يكن لهم إلا أقلامهم يدافعون بها عن توجههم، حتى الأزهر الذي حاول علماؤه وتلاميذه الوقوف في وجه الهجمة التغريبية إلا أن القوى السياسية التغريبية تمكنت من إقصائه عن طريق تحديث النظام التعليمي أحيانا أو عن طريق عزل عناصره عن مواقع اتخاذ القرار والتأثير في الحياة السياسية.

وقامت في نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أنماط من الحياة الغربية تعمل على هدم كل ما يتصل بالاسلام وثقافته وشريعته مثل ترخيص دور الدعارة تحت شعار تنظيم وضبط العلاقات الجنسية وأصبحت مواخير الدعارة مؤسسات رسمية معترف بها تدفع رسوما للدولة مثل متاجر بيع الأطعمة والملابس ونحوها، بل إن بعض الإسلاميين لم يجرؤوا على رفض هذا الواقع العجيب، وامتلأت المواقع الإعلامية آنذاك بنتاج زعماء التغريب ودعاته أمثال سلامة موسى وطه حسين ومحمد حسين هيكل وغيرهم، أما تلاميذ الدعاة الإسلاميين من أزهريين أوغيرهم فقد توجهوا إلى أقلامهم للدفاع عن مواقفهم وقناعاتهم دون أن يكون لهم تنظيمات أو أحزاب ذات قدرة على مواجهة التنظيمات والأحزاب والسياسيين من الاتجاه الاخر، وعندما بدأ تكون الجامعات الحديثة وُجهت إلى معسكر التغريب في مواجهة مؤسسة الأزهر التقليدية المنكمشة على ذاتها، إلا أن الاتجاه الإسلامي استطاع أن يقيم مؤسسة تعليمية جامعية تقف في منتصف الطريق بين الإتجاهين مع المحافظة على الطابع الإسلامي وهي كلية دار العلوم التي حملت مسؤولية تدريس اللغة العربية وآدابها وعلوم الشريعة الإسلامية مستفيدة من أساليب الحداثة في التعليم الجامعي المعاصر.

مؤسس حركة الإخوان المسلمين – حسن البنا

هو حسن ابن أحمد عبد الرحمن محمد البنا ولد بمدينة المحمودية بمحافظة الدقهلية في مصر، ومع أن والده الشيخ أحمد كان يعتمد في معيشته على عمله في تصليح الساعات، إلا أنه كان عالما في السنة النبوية وقد عمل لمدة ثلاثين سنة من حياته في تحقيق مسند الإمام أحمد بن حنبل الذي يتألف من اثنين وعشرين جزءاً كبيرا وضم أربعين ألف حديث وهو: الفتح الرباني لترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيباني. في ظلال هذا التوجه كان أحمد البنا حريصا على تنشئة أبنائه وتوجيههم في طفولتهم وصباهم إلى التمسك بالدين والإقبال على تعلم القرآن الكريم واتباع السنة النبوية، في هذه البيئة ولد للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا إبنه حسن بتاريخ 1906/10/14 ورباه أبوه وسائر إخوانه على منهجه القائم على التمسك بالدين الإسلامي ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء به، وأنهى حسن مرحلة الدراسة الثانوية في المحمودية، ولم يتجه في دراسته الجامعية إلى الجامعة المصرية الحديثة ولا إلى الأزهر وإنما انتسب إلى دار العلوم التي تجمع بين الإتجاهين الحديث والتقليدي وتخصص في دراسة اللغة العربية، وعندما تخرج من كلية دار العلوم سنة 1927 عين معلما للغة العربية في مدينة الإسماعيلية ثم في مدينة قنا، ويبدو أن حسن البنا كان يشعر منذ كان طالبا في المدرسة ثم في كلية دار العلوم بحاجة المجتمع المصري إلى الإصلاح على منهج الإسلام لا سيما وأن الأحزاب القائمة آنذاك وكثير من المثقفين المتأثرين بالفكر الغربي يبذلون جهودا حثيثة على الترويج للتغريب الذي أُطلق عليه آنذاك "الفرَنجة" أي اتباع الإفرنج أي الأوروبيين في مظاهر الحياة مما أدى إلى شعور المتمسكين بالتقاليد الإسلامية بالخطر على شخصية الأمة وكثير من أفراد المجتمع نتيجة انبهارهم بالتقدم الذي حققته أوروبا في جميع المجالات في ظل النظام العلماني المتحرر من نفوذ الكنيسة ورجال الدين.

وهكذا اتجه الشاب حسن البنا الذي كان في سن الثانية والعشرين إلى تأسيس تجمع يقوم على التمسك بالشريعة وعلى الأخوة بين أفراد هذا التجمع، وهكذا ولدت في مدينة الاسماعيلية حركة تحت اسم جماعة الإخوان المسلمين عام 1928. وعلى الرغم من أنه استمر في العمل في حقل التعليم بأكثر من موقع حتى سنة 1946، إلا أنه استمر بالدعوة إلى الجماعة التي أسسها متجاوزاً بها مدينة الاسماعيلية الواقعة على رأس قناة السويس إلى عدد من المدن والأرياف المصرية، واصدر في بداية الأربعينيات جريدة لتساعد على نشر الدعوة للجماعة وتنطق باسمها وتشرح مبادئها وتوثق صلة أفراد الجماعة فيما بينهم بما ينشر فيها مما يزيد من التمسك بمفاهيم الجماعة ويعمل على حمايتهم من الوقوع تحت تأثير التيارات الفكرية والثقافية التي لا تتفق مع قيم الجماعة والأسس التي تقوم عليها والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها، واسم الجريدة "الشهاب"، وتفرغ الشيخ حسن البنا لإدارة الجريدة والاشراف على ما ينشر فيها عام 1946.

العناصر المؤثرة في شخصية حسن البنا

إن المتابع لشخصية هذا المؤسس من خلال نشاطه وسلوكه وما نشر من رسائل ومقالات يتبين أن شخصيته لم تكن ذات لون أو طابع واحد مثل كثير من العلماء المسلمين وقادة الحركات المجتمعية ويمكننا أن نشير إلى أبرز مكونات هذه الشخصية الفذة التي امتد تأثيرها زمانا ومكانا وعبرت حدودا ما عبرته غيرها من قيادات العمل العام

أ- اثر الأسرة: لا شك أنه كان لوالده أثر بيّن على شخصية حسن حيث وجهه والده إلى محبة القرآن والإقبال على حفظه وتلاوته وفهمه إلى جانب متابعته لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال قراءة سيرته وأحاديثه والالتزام بهديه وأخلاقه وسمعته ما استطاع.

ب–المشايخ والاساتذة الذين احتك بهم اثناء دراسته وبخاصة في كلية دار العلوم ومن هؤلاء أحد علماء التفسير وهو جوهر الطنطاوي صاحب كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم.

ج – مهنة التعليم؛ حيث زاولها لمدة تزيد على ثماني عشرة سنة ولا شك أن مهنة التعليم تساعد من يمارسها وبخاصة اذا أقبل عليها مختارا ومحبا لها، على أن تكسبه القدرة على فهم نفوس الطلبة على اختلاف أعمارهم وتزيد من قدراته على التأثير عليهم وعلى غيرهم، وتكسبه مرونه في التعامل مع الاخرين على الرغم من فوارق السن والبيئة فيما بينهم.

د– الجماعات على اختلاف مبادئها؛ أثناء دراسته في دار العلوم، لم يقصر حسن البنا صلته على المحيط التعليمي الاكاديمي وإنما كان يتصل بكثير من الشخصيات سواء ممن اتفق معهم أو خالفهم وكان ممن حرص على حضور مجالسهم الصوفية وبخاصة الطريقة الحصافية الشاذلية وأحب شيخها عبد الوهاب الحصافي.

وكانت علاقته بكثير من المثقفين وأصحاب الرأي والفكر علاقات طيبة مع أنه قد لا يكون موافقا لكثير من آرائهم وانتماءاتهم.

هذا الاتساع والتنوع في شخصية حسن البنا انعكس إيجابا على حركته المتمثلة بجماعة الإخوان المسلمين فلم يمض على تأسيسها عشرين سنة حتى انتشرت في معظم أرجاء القطر المصري وعبرت حدود مصر إلى الأقطار العربية المجاورة، وامتدت شرقا إلى الأقطار العربية والإسلامية وجنوبا وغربا في إفريقيا شمالها وشرقها وغربها، فمنها حركات وجماعات حملت نفس اسمها ومبادئها، واخرى أخذت حقيقتها ومبادئها واختارت أسماء أخرى خاصة بها حسب ظروفها وأحوال أقطارها، بل لقد امتدت هذه الحركة إلى كثير من التجمعات الإسلامية التي تقيم في أقطار تغلب عليها أكثريات دينية وفكرية غير إسلامية، واستطاعت حركة الإخوان المسلمين حتى الوقت الحاضر أن يكون لها تأثير سياسي واجتماعي في

عدد من الأقطار التي وجدت فيها وكان لجماعة الإخوان المسلمين سواء في الأقاليم والمناطق التي كان لهم فيها نفوذ سياسي أو في التي لم يكن فيها ذلك، بل حتى في الأقطار التي قاومتهم السلطات فيها واضطهدتهم وزجتهم في سجونها، كان للجماعة في كل من هذه المواقع آثار لا يمكن لأحد إنكارها في توجيه أعداد هائلة من السكان إلى حظيرة الإسلام وبخاصة عناصر الشباب وداخل المؤسسات التعليمية وشمل ذلك الذكور والاناث.

ولو أراد أي باحث أن تشتمل دراسته لكل المواقع التي وجدت فيها هذه الجماعة لاحتاج في ذلك إلى جهود لا يكفيها فرد واحد وإنما يحتاج ذلك إلى فرق تتنقل إلى تلك المواقع بإمكانات مادية ومعنوية حتى تكون مثل هذه الدراسة قادرة على إدراك واقع هذه الجماعات بكل إيجابياتها وسلبياتها لتكتمل الصورة وتصدق الدراسة والتحليل.

لذا وفي ضوء هذا الواقع الشاسع فسوف أكتفي باستعراض أنموذجين لجماعة الإخوان المسلمين كانت لي صلة بهما خلال الفترة التي انضممت فيها للجماعه في كل من مصر و الأردن، مع قدر أقل في العراق وسوريا.

الإخوان في مصر

لم أنل شرف الإتصال بمؤسس الإخوان في مصر إذ استشهد رحمه الله عام 1949 حيث كنت طالبا في المدرسة في عمان. ومع أنني ذهبت للدراسة في الأزهر في مصر عام 1952 إلا أنني كنت أشد رغبه في الاتصال بالجماعة آملا أن أتلقى من خلال ذلك تدريبا دعويا وحركيا أرى أني احوج اليه مما قد احصل عليه من دراستي في جامعة الأزهر، وذلك أنني كنت شديد الإعجاب بعدد من الدعاة الذين وفدوا إلى الأردن ما بين عام 1946 وعام 1952 أمثال سعيد رمضان وعبد الحكيم عابدين وعبد المعز عبد الستار وبعض الشباب الذين كنا شباب الحركة في الأردن نعدهم صفا ثانيا بعد كبار الدعاة.

ولقد بذلت خلال السنتين والنصف التي أقمت فيها في القاهرة جهدا مع الاخوان يفوق ما كنت ابذله من جهد في دراستي في الأزهر التي ابتعثتني اليها الدولة في الأردن .

وكان من حرصي على مزيد من الاتصال بالجماعة ونشاطاتها أنني تركت معيشتي مع بعض الزملاء من الطلبة الأردنيين في حي حدائق شبرا إلى حي الروضة إذ علمت أن كثيرا من قادة الاخوان كانوا يعيشون في ذلك الحي، وهكذا اشتركت مع صديقى سالم علي سالم رحمه الله في استئجار الجزء الخلفي من المبنى الذي كانت تشغله مجلة المسلمون التي يرأس تحريرها آنذاك المرحوم سعيد رمضان، وهو أحد الدعاة الذين ترددوا إلى الأردن وكنت مع شباب الإخوان شديدي الاعجاب به وبقدرته الفائقة على التأثير على السامعين لخطبه وبخاصة الشباب، وكان الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان يقطن في نفس الحي قرب المبنى الذي سكنته، وكان على الشارع الرئيسي في الروضة مسجد مقابل منزل الهضيبى علمت آنذاك أن الاخوان هم الذين خصصوا الأرض لهذا المسجد الذي كان عبارة عن جدران من القصب فقط وسقفه من الحصير أو نحو ذلك،

وكنت أصلي في هذا المسجد عندما أكون هناك وبخاصة صلاة الفجر، وقد فوجئت خلافا لما كنت أتوقعه أنه لم يكن يصلى في المسجد صلاة الفجر إلا عدد قليل من أهل الحي وباعة اللبن أي الحليب، فكنت أؤم المصلين في صلاة الفجر، ذكرت هذه المسألة لأنها شكلت عندي آنذاك أول نقد لقيادات الاخوان الذين لم أر أياً منهم ولا مرة واحدة في صلاة الفجر، ونحن كشباب نشأنا في ظل دعوة الاخوان كنا نعتقد أن المحافظة على صلاة الفجر في المسجد أساس في التربية؛ فكيف يتخلف عنها المربّون والقادة أنفسهم، وكان المسجد يمتلئ على سعته في صلاة الجمعة حيث كان يخطب فيه غالبا احد كبار الدعاة والمسؤولين من الإخوان.

وعندما التقيت في المركز الرئيسى للجماعة في الحلمية في القاهرة مع اثنين كنا نعدهم من قادة الدعوة هما كامل الشريف ونجيب جويفل سألاني كيف ترى الإخوان في مصر، كانا يعلمان شدة تعلقي ومحبتى للوصول إلى مصر عندما كنت أراهم في الأردن قبل ذلك، فقلت لهما بالحرف: عندما كنت في عمان كنت كغيري من شباب الإخوان نتطلع إلى الإخوان في مصر قدوة ومثلا أعلى، أما عندما عايشتهم واقتربت منهم خابت نظرتي إليهم وأراهم أقل كثيرا مما كنا نحسبهم في الأردن، فقالا لي وما الذي رأيته فيهم؟ فقلت لم أر أياً منهم يأتي لصلاه الفجر وهم يقطنون بجوار المسجد، فتبسما وسكتا.

ثم حدث أمران آخران في علاقتي بالإخوان في مصر أثرت على موقفي من قياداتهم، الأمر الأول: كنت مع مجموعة من شباب الإخوان في إحدى الليالي نجلس في مكتب الأستاذ سعيد رمضان في مجلة المسلمون نستمع لسعيد رمضان الذي نعده قدوة ومثلا رائعاً للداعية، ودخل على المجلس رجل مربوع القامة وكان يقطر رداؤه إذ كانت تمطر في الخارج، خلع معطفه المبلل وتبدو عليه معالم القلق والغضب وخاطب سعيد رمضان بحدة قائلا: يجب أن تذهب الآن إلى الأستاذ المرشد وتحذره فقد حدث هذا المساء في قيادة الجيش أمر سيكون له آثار سيئة

على الإسلام في مصر، وهو أن جمال عبد الناصر عزل الإسلامي الوحيد من مجلس الوصاية على العرش رشاد مهنا. ولم تتخذ قيادة الإخوان آنذاك أي تصرف ضد عبد الناصر الذي كان محسوبا على الإخوان،

لقد دل هذا الحدث الهام على عجز الجماعة عن استيعاب الاسلاميين من خارج التنظيم، وأعتقد أن هذا التوجه مازل سائدا حتى الان وهو عدم الرغبة أو القدرة على استيعاب الإسلاميين الآخرين.

الأمر الثاني: عندما عاد إلى مصر الشخص الذي عرفناه في الأردن بإسم عبد العزيز سالم ثم عرفت اسمه الحقيقي نجيب جويفل، وعندما لقيناه في عمان أحببناه على أنه من مجاهدي الاخوان الذين هربوا من مصر في عهد الملك فاروق بعد اغتيال المرحوم حسن البنا، وعندما اجتمعت به في القاهرة وأظن انه كان معجبا بي وبقدرتي على تنظيم وقيادة مجموعة الشباب في الأردن إذ كنت وأنا طالب في المدرسة مسؤول في الاخوان عن النشاط الطلابي، لقد طلب مني نجيب جويفل القيام بواجبين ضمن التنظيم؛ اولهما: رئاسة أسرة من مجموعة من ضباط الشرطة المصرية وتعد الأسرة في الحركة أول مستوى تنظيمي وتثقيفي فيها، وقد ترددت في قبول هذه المهمة إذ شعرت أن المسؤول عن مثل هذه المجموعة يجب أن يكون أكبر سنا مني وأعرق في سلم الحركة، إلا أن نجيب جويفل أصر على بقائي على رأس الأسرة وشعرت أنه يستهين بأعضائها من صغار الضباط.

لقد شعرت إثر هذا بضعف المستوى التنظيمي وعدم كفاءته في تنظيم آلاف العناصر من الشباب الذين انضموا اليها. وأعتقد أنه لو عاش مؤسس الحركة تلك الفترة لكان أقدر على تحقيق مستوى أعلى من التنظيم وتصنيف العناصر بمقاييس أفضل لما كان يتمتع به من قدرات تنظيمية وإدراك لأبعاد تطور الحركة التي أسسها.

أما الواجب الثاني؛ فقد كان القيام بحراسة المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبي ومرافقته بتنقلاته، ورافقته فعلاً في إحدى جولاته في منطقة بني سويف، كما كنت في منزله عندما زاره جمال عبد الناصر بعد أن أخرجه من السجن وكانت زيارته للهضيبي بمثابة اعتذار عن إيقافه مع بعض قادة الإخوان.
لقد كنت راضيا عن نفسي عندما شعرت بوصولي إلى هذا المستوى من الأهمية والقرب من أعلى قيادة في الجماعة، وتبين لي فيما بعد خلل التنظيم في تكليف شاب مثلي ما زال في السنة الأولى أو الثانية من دراسته الجامعيه، وقادم من خارج مصر ولم يمض عليه فيها سوى سنة وبضعة أشهر.
إن هاتين التجربتين اللتين مررت بهما أكدتا لي – ثم زاد تأكدي بعد ذلك– أن ثمة خللا في التنظيم من حيث تقييم العناصر البشرية سواءا ممن كانوا داخل التنظيم أم ممن يمكن الاستفادة منهم من العناصر الإسلامية من خارجه، وإنني أشعر أن طريقة النظر إلى الأشخاص أشبه بالنظم العشائرية لدى العرب القائمة على مبدأ أنا وأخي على ابن عمي وانا وابن عمي على الغريب.

المنهج التثقيفي التربوي لدى حركة الاخوان

إن للاخوان منهجا محددا تؤدي دراسته والالتزام به إلى توحيد فكري وسلوكي بين العناصر التي كانت تتدفق على الانضمام للحركة في اوائل الخمسينيات من القرن الماضي، فقد كان المصدر الاساسي الالتزام بالعبادات والأدعية والشعارات التي في رسائل المؤسس المرحوم حسن البنا، والقدرات الخاصة لرؤساء الأسر أمثالي كل حسب مستواه من الإلمام بمبادئ الشريعة وفقهها، بالإضافة إلى ما كان يلقى على المجموعات المنظمة منهم من دروس في الشعب المختلفة في الحركة، وبالنسبة لي باللقاء الاسبوعي الذي كان مساء الثلاثاء في المركز الرئيسي في الحلمية الجديدة في القاهرة، وقد استمعنا في تلك الأمسيات إلى عدد من القادة،

أتذكر منهم البهى الخولي وسيد قطب وصالح عشماوي رحمهم الله، بالإضافه إلى ما كان يدرس في اجتماعات قادة الأسر التي كانت تعقد في المركز العام وأحيانا عبر رحلات تنظم إلى مراكز وشعب الحركة خارج القاهرة، وقد اشتركت في عدد منها، مرة إلى بنها وأخرى إلى طنطا وأخرى إلى الاسكندرية، وفي إحداها إلى منطقة مرسى مطروح تحت اسم معسكر لمدة اسبوع تقريباً، إلا أن هذه اللقاءات والمعسكرات لم تتضمن سوى التوجيه السلوكي والعبادي العام وبعض المحاضرات لبعض القادة، مما لا يساعد على تكوين شخصية متجانسة للعناصر المنضوية تحت تنظيم الجماعة، وقد يؤدي ذلك إلى وجود مدارس وتوجهات متباينة وقد يقود ذلك إلى نوع من الصراع بينها يمكن أن يمزق وحدة الحركة ويتيح للقوى المتربصة بالحركة تخريبها من داخلها، ولعل ما أصاب الحركة على يد ضباط انقلاب 1952 بقيادة جمال عبد الناصر يرجع في معظمه إلى الخلل في تقييمهم للأشخاص وللتنظيمات المصاحبة للجماعة، فقد غرهم عبد الناصر في بداية قيام الحركة الإنقلابية ولم يحسنوا دراسة شخصيته وشخصيات من معه من الضباط بل اندفعوا في تبنى الحركة الانقلابية وكشفوا لقادتها مجموعة الضباط الذين كانوا من كوادر الاخوان مما سهل على عبد الناصر بعد أقل من سنتين ضرب حركة الاخوان ومحاولة تصفيتها وإعدام عدد من قادتها على رأسهم العالم والقانوني الشهيد عبد القادر عودة عام 1954 وعدد من قادة الإخوان والزج بالآلاف من الشيوخ والشباب وإعدام الكاتب والمفكر الأديب المرحوم سيد قطب عام 1966.

واستمر مسلسل أخطائهم مع الخصوم بل والقريبين منهم بعد عبد الناصر ومن بعده أنور السادات ثم حسني مبارك.

لا شك أن الفشل خلال هذه الحقب السياسية لم يكن كله ناجما عن أخطاء التنظيم فحسب، فقد كانت العداوة للفكر الإسلامي متعددة المصادر؛ محلية في نفس الأقطار الإسلامية وأجنبية من كل القوى الأوروبية والامريكية من المعسكرين المتنازعين في القرن الماضي؛ المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي، وكانت

آخر مصائب الحركة بعد الثورة القوية التي قادوها ضد نظام حسني مبارك لكنهم لم يحسنوا إدارة جني ثمارها على الرغم من أن جماهير الشعب المصري كادت أن تتوحد تحت قيادتهم عندما انتخب الدكتور محمد مرسي رئيساً للجمهورية، إلا أن عجزهم عن التعامل بهذا النصر الشعبي أجهض تجربتهم لأسباب أهمها:

أولاً: العجز والتردد في تثبيت النصر الذي منحهم إياه الشعب المصري، وأحسب أنهم لم يحسنوا لا اختيار الرئيس الذي لم يكن يتمتع بقدرات سياسية وإدارية تتناسب مع حجم المسؤولية الجديدة ولم يدركوا الفرق الشاسع بين إدارة حركة دعوية وقيادة دولة تحيطها تعقيدات تتجاوز قدرات من ترقوا في الحركة فقط مهما كانت منزلتهم السلوكية والدينية فيها.

ثانياً: ترددهم وضعفهم في التعامل مع العناصر التي يمكن أن تهدد النظام الجديد بقيادتهم، مع أن أدبيات السياسة عبر التاريخ السياسي للعرب والمسلمين وسواهم تؤكد أن الصراع على الحكم لا يعرف المهادنة ولا المجاملة ولا الاسترخاء في التعامل مع الخصوم القائمين أو الخصوم المتوقعين إذ لا ينبغي التساهل في التعامل معهم مهما كانت علاقاتهم الشخصية التي يمكن أن تكون خادعه، وقد قيل في ذلك الملك (أي الحكم) عقيم لا يعترف بقرابة ولا صداقة ولا علاقات شخصية إنما هي مصالح تقوم على الحفاظ على الموقع في مقابل كل ذلك، وقد رأينا عبر التاريخ حكاما قتلوا آباءهم أو أبناءهم أو أزواجهم أو إخوانهم أو أقرب المقربين منهم حفاظا على مواقعهم القيادية والأنظمة التي يحكمون بموجبها.

لقد كان فشل قيادة الحركة سواءا قبل انتخاب مرسي أو بعد انتخابه دليلا على عدم حزمهم في التعامل مع العناصر المحتمل اننتقاضها على النظام الجديد وبخاصة ضباط الجيش الذين ذاقوا منهم في السابق أقسى أنواع الاضطهاد والتعذيب، وكان ينبغي لقياداتهم أن يعلموا أن شهوة الحكم والتفرد فيه من قبل العسكر هي التي نالت منهم ومن كل محاولات الإصلاح عبر أكثر من سبعين سنة من انقلاب عبد الناصر وما بعده.

ثالثا: فشل الحركة في التحري عن كل العناصر سواء من داخلها أو من المقربين منها أو من خصومها.

إن تغلغل المنتسبين للجماعة في جميع فئات المجتمع المصري وفي المرافق الحكومية يمكنهم من التحرى الدقيق عن كل هذه العناصر وتقييمهم حسب موازين دقيقة سواءا من حيث تاريخ أسرهم أو نشأتهم أو علاقاتهم في الداخل أو في الخارج، لكنهم كانوا يُخدعون بمظاهر تَديّن هذه العناصر ويحسبون أن سَمت أحدهم أو صَلاته وحجاب امرأته يكفي في الحكم والاطمئنان له.

لقد انكشف بعد زوال حكم عبد الناصر أنه تربى ونشأ عند خالته ذات الأصل اليهودي، وتأكد ذلك أثناء حرب 1948 كما ذكر حسين الشافعي في مقابلته مع أحمد منصور، كما ركنوا إلى السادات فترة من حكمه، وكانت ثالثة الأثافي اطمئنان مرسي بعد انتخابه إلى مجموعة ضباط الجيش رغم تحذير بعض المقربين لمرسي وكان يقول عنه أنه عظيم الاطمئنان من جهتهم، دون أن يبحث في تاريخهم خاصة أثناء وجود عدد منهم في أمريكا حيث يمكن للاستخبارات الامريكية او غيرها استمالة بعضهم وتجنيدهم.

القواعد الاساسية لبناء المجتمع والدولة لدى الحركة

بدأ المرحوم الشهيد حسن البنا دعوته سنة 1928 في مدينة صغيرة في مصر هي الإسماعيلية ثم امتدت إلى المدن المصرية الكبرى القاهرة والاسكندرية وغيرهما، وكان رحمه الله يتطلع إلى امتداد دعوته إلى كل البلاد العربية والاسلامية، وهكذا فقد كان تصوره للدعوة أنها عابرة للحدود إلى كل بقعة يمكن الوصول إليها، وقد كانت مصر في بداية القرن العشرين تموج بحركات شتى منها القومية المصرية القائمة على الفرعونية القديمة، ومنها العربية، ومنها حركات بالغت في سلخ مصر عن محيطها العربي وإلحاقها بأوروبا على أساس منطقة حوض البحر الابيض المتوسط شماله أوروبا وجنوبه مصر وشمال افريقيا، وتشكلت أحزاب متعددة في مصر تمثل ةذه الاتجاهات، وكان ابرزها الأحزاب القائمة على القومية المصرية، أما بقية البلدان العربية فقد عرفت كذلك أحزاباً شتى كان أظهرها الأحزاب القومية العربية التي قامت في مواجهة التقسيم والشرذمة للوطن العربي من خلال إقامة دويلات صغيرة بعد توزيع المنطقة بين فرنسا وبريطانيا إثر تفكك الدولة العثمانية التي كانت تمثل الوحدة بين الأقطار الإسلامية ومنها العربية.

لقد كانت الأسس الإجتماعية بكل عناصرها من سياسية واقتصادية لمعظم هذه الأحزاب مستمدة من الفلسفة الاجتماعية التي سادت في أوروبا إبان عصر النهضة بعد القرن السابع عشر وامتدت إلى القرن العشرين وارتفعت في البلاد العربية ومنها مصر شعارات مستمدة من هذه الفلسفة مثل الحرية، الديموقراطية، السلطة الدستورية، والحقوق الإنسانية، ومن أخطرها العلمانية التي قامت في أوروبا على تحرير أنظمة الحكم الجديدة من تسلط الكنيسة ورجال الدين فيها، إذ كان النهضويون في أوروبا يرون أن تسلط المؤسسة الدينية يقضي على كل أسباب التقدم الصناعي والعلمي والإقتصادي، وصاحَب هذا الرفض لتسلط الكنيسة التمرد على النظام الاقتصادي القائم آنذاك على الإقطاع وتسلط اصحاب

الثروات واضطهاد الطبقات الفقيرة من العمال والفلاحين، واتجه دعاة الإصلاح القومي العربي الى تبني هذا التيار العلماني الجارف داعين إلى رفض كل ما هو قديم وديني مدّعين أن ذلك هو الطريق للتقدم والتحرر واللحاق بركب أوروبا القوية عسكريا، الغنية اقتصاديا، المتقدمة حضارياً وثقافياً. وكانت التكتلات الإسلامية القائمة آنذاك في مصر والبلاد العربية في معظمها منطوية على نفسها تهتم بالجانب العبادي من الدين ولا تتعرض للدعوة إلى الإصلاح السياسي أو الاقتصادي أو التقدم العلمي والتقني والصناعي.

تحت ظلال هذه الاجواء التي تدعو إلى مزيد من عزل الدين الإسلامي عن الحياة المعاصرة وقَصره على المساجد والحضرات الصوفية وأمثالها ظهرت حركة الإخوان المسلمين بقيادة الشاب خريج كلية دار العلوم المرحوم حسن البنا، وكان معظم اهتمامه منصبا على تنقية المجمتع من تسلط الاتجاهات التغريبية وتنقيته من المفاهيم الدينية التي تتعارض مع أهداف الإسلام في التقدم والترقي والعمل المنتج والارتقاء بالتعليم والثقافة بشكل أساسي وبناء قاعدة راسخة لنهضة إسلامية شاملة لكل مناحي الحياة. لقد استطاع حسن البنا استمالة أعداد كبيرة من المتطلعين للنهضة معظهم من الشباب، وقد كان خطابه لأتباعه خطابا إصلاحيا عاما يقوم على إصلاح العقيدة وتحرير الأمة مما سيطر على عقيدتها من خرافات وشكليات وطقوس لا تقرها مبادئ العقيدة ولا الشريعة الإسلامية، وحسبى أن أنقل نصا من بواكير خطابه لجماهير الدعوة الذي يقول فيه: "الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواءا بسواء" (رسالة التعاليم للامام حسن البنا ص15).

لقد تضمنت هذه الاسطر الاربعة ستة مبادئ أو قواعد يمكن أن تعد مدخلا لمناهج متعددة تشمل:

1- فلسفة الدولة

2- النظام الأخلاقي

3- النظام القضائي

4- النظام الإقتصادي

5- النظام العسكري

6- النظام الديني عقيدة وعبادة.

إن كل أساس من هذه الأسس والمبادئ الستة يحتاج إلى منهج تفصيلي تقدمه الحركه الناشئة للناس مقابل ما تموج به المنطقة من أحزاب وحركات لكل منها منهجها الذي تدعو إليه، وتمني أتباعها وسائر الناس الذين تدعوهم إلى الانضمام إليها بأن هذا المنهج سيضمن لهم الحياة الرغيدة وأنه سينقذهم من الواقع السيئ الذي يعيشونه في ظل الأنظمة القائمة، وكما أسلفت فإن معظم هذه المناهج مستمدة من تجارب أوروبا وفلسفتها في السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية.

ولم يكن بمقدور المؤسس أن يضع التفاصيل لكل المبادئ التي دعا إليها في باديء الأمر، إلا أنه مع انتشار الحركة بين قطاعات واسعة من المجتمع بدأت تستقطب الحركة دارسين وأكاديميين، وينشأ في ظلها كذلك شباب من طلبة الجامعات والمعاهد وممن سلكوا طريق التبحر في الدراسات الإسلامية وفي الثقافة الغربية وعلومها وبخاصة في فلسفة الفكر والسياسة والإقتصاد وسائر علوم الحياة، وشرعت هذه الفئات من الدارسين في نشر دراساتهم واجتهاداتهم في مختلف المناحي التي تتصل بحياة الأفراد والنظم؛ إجتماعية واقتصادية وسياسية وسلوكية وغيرها.

لقد بدأت تتكون داخل الجماعة قناعات ومفاهيم مستمدة من النتاج الفكري المتعدد الجوانب للدارسين والمتبحرين في دراساتهم، وكانت حركة الاخوان تعد هذه

الدراسات مصادر تمد جماهير شبابها بنتاج اولئك الدارسين وتشكل ثقافتهم وقبولهم للآراء والاجتهادات على مستويات مختلفة حسب تأثر المنضمين للحركة بواحد أو أكثر من فكر الدارسين والمؤلفين، إلا أن الحركة لم تتبنّ أياً من أفكارهم أو تعتمده منهاجا للحركة تلتزم به ويلتزم به أتباعها الذين بدأوا يشكلون قطاعا مهما من أبناء الأمة. ومع امتداد الحركة إلى عدد من الأقطار العربية وانضمام دارسين وقادة للرأي واتباع من جماهير تلك الأقطار تعددت المفاهيم السائدة بين عناصر الحركة سواء في مصر أو في سائر الأقطار التي امتدت اليها الحركة، ومع تطور الأحزاب والحركات الأخرى في هذه الأقطار وبخاصة بعد انقسام أوروبا إلى معسكرين رأسمالي واشتراكي ولكل منهما منهجه وفلسفته في السياسة والاقتصاد، توزعت الأحزاب والحركات القومية والوطنية في العالم العربي بين هذين الاتجاهين أو ضمن فلسفة توفيقية من كليهما أحيانا، وكانت توجه للحركة الإسلامية انتقادات لعجزها عن تقديم البديل المقنع لجماهير الأمة عن البدائل المطروحة من خارج الفكر الإسلامي.

بل لقد تشكلت أحزاب تتبنى صراحة مبادئ الشيوعية السوفييتية لا سيما بعد انضمام الصين إلى المعسكر الشيوعي وأحزاب تبنت الفكر الرأسمالي بعجره وبجره، وأحزاب تبنت الفكر الاشتراكي المتوسط بين المعسكرين، أما حركة الإخوان فقد تعددت فيها المناهج وبخاصة في الجانب الاقتصادي والسياسي، وأصدر عدد من القادة كتباً تبنّى بعضها المسار الاشتراكي، وأطلق على هذا الاجتهاد اسم الاشتراكية الإسلامية مثل مصطفى السباعي رئيس الحركة في سوريا، بينما اكتفى غيره من قادة الإخوان كالعراق والأردن بل في كثير من الأحيان في مصر تبني الشعارات العامة مثل الإسلام هو الحل دون تقديم أي منهج تفصيلي لهذا الحل سوى مبادئ وأسس عامة، وقد يضع بعض الدارسين والكتاب الإسلاميين ممن يحسبون على الحركة ويحتلون فيها مواقع قيادية حلولا تفصيلية احيانا، ولكنها تبقى اجتهادات شخصية قد يوافق عليها البعض أو قد

يخالفها، وقد تقود بعض هذه الاجتهادات إذا وُضعت موضع التطبيق إلى نتائج خطيرة على الحركة بل في بعض الحالات على المجتمع كله، وبخاصة في السياسة وأنظمة الحكم القائمة، من خلال تحميل بعض نصوص القرآن والسنة ما لا يتفق مع اجتهادات الأئمة، وقد يكون من المفيد في هذه الدراسة التوجه إلى بعض الأحداث التي نتجت عن هذه الاجتهادات.

رأي الحركة السياسي

من المسلّمات لأي حركة أو حزب سياسي أن يكون من أهدافه إقامة نظام الحكم وفق مبادئه وفلسفته، ولكن ما هو الأسلوب لتحقيق ذلك؟ فمثلا تبنت بعض التنظيمات السياسية في أوروبا طريق ما عرف فيها باسم الديمقراطية، وإحداث التغيير المطلوب عن طريق العمل السياسي السلمي للوصول إلى الأكثرية في المجالس البرلمانية على اختلاف أسمائها، بينما سلكت أحزاب وحركات اخرى طريق إحداث ثورة شعبية قد تلجأ إلى السلاح والعنف لإزالة النظم القائمة وإحلال النظام الذي دعت اليه تلك الحركات والأحزاب، ولعل الثورة الشيوعية في روسيا التي نجحت في تحقيق أهدافها من خلال الثورة مثال واضح على هذا الأسلوب لإحداث التغيير لنظام الحكم، وقد تلجأ بعض الحركات السياسية إلى التسلل إلى المؤسسة العسكرية في الدولة من خلال العمل السري حتى إذا أصبح لتنظيمهم القدرة الكافية قاموا بانقلابهم وسيطروا على مقاليد الحكم، ويمكن القول بأن حركة مصطفى كمال أتاتورك يمكن أن تصنف تحت هذا النهج في انقلابه على الخلافة العثمانية في بداية القرن العشرين، فماذا كان منهج حركة الاخوان المسلمين في إحداث التغيير الذي يمكن أن يؤدي إلى إقامة حكم إسلامي بديل عن النظام القائم آنذاك؟ قد يكون من المستحيل معرفة ما كان يتطلع اليه المؤسس حسن البنا لإحداث هذا التغيير، من الواضح أنه كان يتطلع إلى إصلاح شامل في الدولة،

وقد عبر الاستاذ صالح عشماوي في مجلة النذير التي كانت تنطق بلسان حركة الإخوان عن هذا الهدف البعيد في رسالته إلى رئيس وزراء مصر علي ماهر عند توليه رئاسة الوزراة في مصر عام 1939، إذ قال في رسالته: "إن الإخوان المسلمين ليسو حزبا وإنما هم دعوة إسلامية محمدية لها برنامج يرمي إلى تجديد الإسلام وصبغ الحياة المصرية بالصبغة الإسلامية، وهيمنة تعاليم القرآن في جميع مظاهر الحياة، من تشريع واجتماع واقتصاد، وتمضي الرسالة بعد ذلك في مخاطبة علي ماهر على أمل أن يعمل على إصلاح الأحوال ويقول له: المفروض في المسلم أن يحسن الظن بأخيه وليس ما يمنعنا أن نحسن الظن بعلي ماهر باشا، فقد عرف بالسرعة والجرأة في الإصلاح، سيجبرنا قريبا على الكلام له أو عليه فلنؤمل خيرا ولننتظر فلن يطول بنا الانتظار(مذكرات الدعوة والداعية لحسن البنا ص 277-278). ولو تتبعنا خطب وكتابات الأستاذ المؤسس لوجدنا أنها لا تعدو هذا المنهج الذي يأمل بإحداث الإصلاح عن طريق الدعوة متأملا أن يؤدي ذلك إلى إصلاح المجتمع دون التطلع إلى السيطرة على الحكم، ففي أحد خطبه يقول: " دعوتكم أيها الاخوان سلمية للغاية، أنتم تريدون أن تفهموا الإسلام، ثم تعملوا به، ثم تقنعوا الناس بما اقتنعتم به، فلستم طلاب حكم ولكنكم طلاب منهج، ففي اليوم الذي يتحقق فيه منهاجكم يكون في المحاريب مثواكم". وكثيرا ما كان يأمل تحقيق نهضة الإسلام عن طريق اقتناع الحاكم لإصلاح الواقع، ففي خطابه إلى رئيس الورزراء المصري سنة 1937: "من الإخوان المسلمين إلى صاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء؛ العالم العربي ينتظر من حكومة مصر عملا جديا لحل قضية فلسطين وإيقاف الظلم والعدوان". وفي مناسبة نظم الاخوان مسيرة إلى قصر عابدين مقر الملك وهم يهتفون الله اكبر ولله الحمد الاخوان المسلمون يبايعون الملك المعظم (مذكرات الدعوة والداعية ص245وما بعدها).

لا شك أن هذه الفترة التي امتدت قرابة ثلاثين سنة من عمر الحركة ركزت على الجانب الدعوي، استطاعت فيها الحركة أن تمتد في معظم أرجاء مصر من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب مع امتداد إلى السودان ومن ثم إلى منطقة بلاد الشام وبخاصة سوريا وفلسطين وشرق الأردن، وتميزت هذه الفترة بالتقرب من أنظمة الحكم القائمة على أمل أن يزداد اقترابها من الإسلام بشكل عام دون أن تعلن الحركة عن أي نظام سياسي بديل عن النظام القائم في مصر على الرغم من كونه إلى حد ما تحت مظلة التحكم البريطاني، غير أن القبول بهذا الواقع لم يمنع من التطلع إلى التحرر من النفوذ الاستعماري، وأن النظام الملكي مؤهل لقيادة هذا التحرر، وأن الحركة تستطيع أن تساهم في ذلك عن طريق تعبئة الأمة للمقاومة بجميع أشكالها لمواقع جيش الاحتلال الذي كان مسيطرا على ضفتي قناة السويس، وكانت عناصر أخرى من شباب الاخوان ترى أن الحكومة القائمة لا تصلح لتحرير الدولة من احتلال الجيش البريطاني لأرض القناة المصرية، ومن هنا كانت بعض عناصر الحركة ترى أنه لا فرق بين قوات الاحتلال و الحكومة برئيسها ووزرائها، وهكذا بدأت تتشكل في داخل الحركة مجموعات شبابية تتطلع إلى إزالة كليهما لكن دون التعرض للنظام الملكي القائم، وعلى الرغم من أن المرحوم حسن البنا وجه في أكثر من مناسبة رسائل إلى رئيس الوزراء يدعوه إلى قيادة عملية الإصلاح الداخلي ومقاومة الاحتلال البريطاني المسيطر والمستغل لأهم مصدر من مصادر الدخل وهو قناة السويس، وكذلك مد يد العون إلى فلسطين والأقصى من أطماع اليهود الذين تهيئ لهم الدولة المحتلة لفلسطين أسباب تحقيق وعدها لهم بإقامة دولتهم على أرضها، ولعل رسالة البنا المطولة إلى رئيس الوزراء مصطفى النحاس أكبر شاهد على آماله العريضة بإحداث الإصلاح في مصر دون المحاولة لإزالة الحكومة ولا التعرض لنظام الدولة القائمة، ولم يقصِّر رحمه الله في مجاملة رئيس الوزراء ووصفه بأنه يمثل آمال المنطقة وليس آمال مصر وحدها، كقوله في رسالته له: فدولتكم أكبر زعيم شرقي

عرف الجميع فيه سلامة الدين وصدق اليقين، وحذره من سلوك منهج أتاتورك الذي يتعارض مع الإسلام، كما خاطب البنا البريطانيين بكتاب وجهه إلى سفير بريطانيا في مصر بأن تكف عن تأييد اليهود ويحذرهم إذا استمرت بريطانيا في نهجها بدعم اليهود في فلسطين فقد تخسر صداقة العالم الإسلامي كله إلى الأبد (مذكرات الدعوة والداعية ص 242 وما بعدها).

الإخوان والتسلح

إن كل ما أسلفت من الأساليب الناعمة في خطاب البنا للملك والحكومات لم يمنع الحركة من سلوك طريق المقاومة المسلحة للقوات البريطانية المرابطة على قناة السويس، ولم يخفِ الاخوان أهدافهم في المعسكرات التي كانوا يدربون فيها الشباب على صنوف الرياضة واستعمال السلاح لهذا الهدف، إلا أنه على الرغم من ذلك فقد كان رحمه الله يحذر من إظهار السلاح أو استعماله في غير ميدان المقاومة للإنجليز في القناة، وعندما اندفع بعض شباب الاخوان في إحدى لقائه معهم إلى إطلاق العيارات النارية بادرهم بالقول: "على رسلكم يا إخوان ليس الميدان هنا وليس اليوم، فاصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون" (مذكرات الدعوة والداعية ص 276).

الدول الغربية الأوروبية والأمريكية ترفض جماعة الاخوان

إن نعومة خطابات البنا لرؤساء الحكومات المصرية منذ فترة سعد زغلول وخليفته النحاس ومن بعده حكومة السعديين علي ماهر باشا ومحمود فهمي النقراشي لم تشفع لدى حكومة النقراشي التي قررت إنهاء وجود الجماعة وحلها، ويؤكد بعض الدارسين لتلك الفترة أن دول انجلترا وأمريكا وفرنسا رأت في جماعة الاخوان خطراً على وجود القوات البريطانية على قناة السويس وخطرا على الدولة الربيبة لهم اسرائيل التي قرروا إقامتها في فلسطين بموجب قرار هيئة الامم المتحدة التي صنعتها تلك الدول لتنفيذ سياساتها حول العالم، وقد اتهمت هذه الدول أن الانفجارات التي حصلت في القاهرة عام 1948 إنما كانت من فعل الاخوان، وينقل جابر رزق في كتابه: أسرار رهيبة تنشر لأول مرة ما يلي: "وثيقة رقم 1843/ اس /48 تاريخ 1948/11/13 أنه اجتمع سفراء انجلترا وأمريكا وفرنسا في فايد في 1948/11/10 وقرروا اتخاذ الإجراءات اللازمة لحل جماعة الاخوان المسلمين، وبناءا على ذلك أبلغت السفارة البريطانية النقراشي بهذا القرار، وأبلغته شفويا أنه في حالة عدم حل الإخوان فستعود القوات البريطانية إلى احتلال القاهرة والاسكندرية، وهكذا أصدر رئيس وزراء مصر بتاريخ 1948/12/8 قرار حل الاخوان واقتحمت الشرطة المركز العام للإخوان واعتقلوا كل من فيه باستثناء حسن البنا الذى حاول أن يصعد إلى سيارة المعتقلين فرفضوا السماح له"، ويرى الكاتب أن عدم اعتقاله إنما كان لتنفيذ خطة اغتياله (صفحة13-15).

وعندما اغتيل بعد حل الاخوان رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي اتهمت الأجهزة المصرية جماعة الإخوان المسلمين المنحلة بذلك، وعندما تولى بعد النقراشي ابراهيم عبد الهادى نفذت الاجهزة الأمنية المصرية عملية اغتيال المرحوم حسن البنا وهو يهم بمغادرة مركز جماعة الشبان المسلمين في القاهرة بداية

عام1949، ويقول رواة الحدث أن الشرطة لم تسمح بنقل البنا إلى المستشفى إلى أن تاكدوا من موته وكان ذلك عام 1949.

الاخوان بعد اغتيال مؤسس الحركة

كان مقتل النقراشي ثم مقتل حسن بنا إيذانا بهوة عميقة وصراع غير متكافىء بين الطرفين، وزاد كره الإسلاميين والوطنيين عموما للنظام الحاكم لموقفه من الصراع الفلسطيني اليهودي حيث كان أمل الناس أن ينجح الجيش المصري في السيطرة على جنوب فلسطين حتى منطقة الخليل وبذلك يحافظ العرب على أكبر جزء من فلسطين بينما يسيطر الجيش السوري والمجاهدون الفلسطينون على شمال فلسطين، إلا أن كل هذه الآمال ذهبت أدراج الرياح وفشل الجيش المصري وهو أكبر جيش عربي في الاحتفاظ بأي جزء من جنوب فلسطين سوى الشريط الضيق الذي عرف بقطاع غزة.

الالتقاء مع ضباط الجيش المصري

لقد دفعت هذه الأحداث المتلاحقة الاخوان إلى البحث عن أي وسيلة للتخلص من النظام الملكي القائم في مصر، وشعر ضباط الجيش المصري وبخاصة الذين دخلوا فلسطين أن دولتهم قد خانتهم وتسببت في فشلهم وهزيمتهم أمام العصابات اليهودية المسلحة وعزوا ذلك إلى الأسلحة الفاسدة التي اشترتها الدولة بعقود شابها الفساد والرشوة، وشعروا أن السياسيين لم يكتفوا بالتخلي عن فلسطين لليهود وإنما تخلوا أيضا عن جيشهم وجنودهم وعرضوهم للقتل ولهزيمة مخزية في مواجهة القوات اليهودية.

لقد دفعت هذه الأحداث ضباط الجيش المصري الناقمين على دولتهم إلى تشكيل تنظيم سري أخذ على نفسه إنقاذ مصر من الطغمة الحاكمة الفاسدة وكان ضباط

هذا التنظيم من صغار الضباط الذين شعروا بالمهانة ثم بالغضب على السياسيين، وكان معهم عدد من الضباط على صلة بحركة الإخوان المسلمين الناقمة ايضاً على النظام القائم، وقد اطلق الضباط المنضوون للتنظيم على أنفسهم اسم الضباط الاحرار، وقد اعطى التقاؤهم بالعناصر المتصلة بالاخوان من زملائهم الضباط قوة أخرى، إذ شعروا أن دعم جماعة شعبية واسعة الانتشار لتنظيمهم يجعلهم أقدر على تنفيذ أهدافهم في القضاء على النظام الفاسد وإقامة نظام حكم بديل ينقذ الأمة من مفاسد ذاك النظام، وهكذا التقت اهداف تنظيم الضباط الأحرار وأهداف حركة الإخوان المسلمين في تغيير نظام الحكم، وشعر الاخوان أنهم سيكونون قادرين على أسلمة تنظيم الضباط الاحرار إذ لم تكن لهم أي خلفية فكرية أو انتماء حزبي يتعارض مع الأهداف الإسلامية لحركة الاخوان، ويبدو أن الضباط الاخوان داخل حركة الضباط الأحرار أكدوا ذلك لقيادة الإخوان بل توهموا أن قيادة الضباط الأحرار مقتنعة بفكر الإخوان وانتمائهم الإسلامي، وظنو أنهم استطاعوا ضم قيادة الضباط الأحرار إلى تنظيم الاخوان، ويبدو أن قائد الضباط الأحرار جمال عبد الناصر لم يمانع أن ينقل ضباط الإخوان لقيادتهم انضواء عبد الناصر وجماعته لفكر الاخوان وتنظيمهم، وهكذا عندما قام الضباط الأحرار ومعهم ضباط الإخوان بالسيطرة على مقاليد الحكم بانقلاب عام 1952، حسب الاخوان أن هذا الانقلاب سيمكنهم من إقامة الدولة التي طالما حلموا بها.

الخلاف بين الاخوان والضباط الانقلابيين

استردت جماعة الاخوان حرية العمل في مصر بعد نجاح الانقلاب العسكري على النظام الملكي وعادت شُعبهم لنشاطها في كل أرجاء القطر المصري، وانطلق عدد من خطبائهم ودعاتهم إلى البلاد العربية وبخاصة إلى سوريا والأردن، واستبشروا بعهد جديد للحركة الإسلامية في كل الأقطار بقيادة الحركة في مصر التي أصبحت على قاب قوس أو قوسين من تحويل مصر إلى قاعدة صلبة

للحركة الإسلامية، وعلى الرغم من تغلغل الإخوان في كل جوانب الحياة في مصر، إلا أنهم لم يحسنوا التحقق من شخصيات قادة الانقلاب ومدى التزامهم بالوعود التي قطعوها على أنفسهم، ولم يدركوا ما وصل اليه قادة الانقلاب من قوة تعلقهم بامتلاك السلطة بعد أن ذاقوا حلاوتها على الرغم من ظهور بوادر هذا التوجه مرتين بشكل واضح؛ الأولى عندما عزل عبد الناصر رشاد مهنا الذي كان عضو مجلس الوصاية على العرش قبل الإعلان عن إلغاء الملكية، وبذلك أبعد عبدالناصر أول عنصر اسلامي من أعلى مركز في السلطة، ولم يتحرك الاخوان ضد هذا القرار على الرغم من أن رشاد مهنا كان من قلائل كبار ضباط الجيش الملتزمين إسلاميا إلا أنه لم يكن من المنظمين في حركة الإخوان، وقد تنبه أحد ضباط الاخوان الذي كان له دور بارز في الانقلاب وهو معروف الحضري لخطورة هذا الاجراء ضد رشاد مهنا ورأى أنه بداية محاربة عبد الناصر للعناصر الإسلامية في الجيش والدولة، والثانية عندما اختار عبد الناصر اللواء محمد نجيب ليكون رئيسا لمجلس قيادة الثورة دون أن يكون للإخوان دور في هذا الاختيار، ثم عندما عزل عبد الناصر محمد نجيب عام 1953 لأنه رأى فيه خطرا على تفرده بقيادة الثورة، وقد كان عزل محمد نجيب مصاحباً لبدء الخلاف بين عبد الناصر والإخوان لذلك قاد الإخوان أكبر مظاهرة في مصر بعد الانقلاب وكان الهدف المعلن للمظاهرة هو الاحتجاج على عزل محمد نجيب، إلا أن حقيقة أهدافها هو شعورهم بالخطر من صعود عبد الناصر وبدء تعرضه للاخوان بالقبض على المرشد حسن الهضيبي، وقد توارت قوات الجيش عن التعرض للمتظاهرين الذين توجهوا إلى قصر عابدين من جميع مناطق القاهرة من جامعة القاهرة وجامعة عين شمس والأزهر وسائر المناطق، وأعتقد أنه كان بمقدور الاخوان في هذه المظاهرة الإعلان عن إسقاط حكم العسكر بقيادة عبد الناصر الذي تراجع يومها عن عزل محمد نجيب ووقف معه على شرفة قصر عابدين وأعلن كلاهما المصالحة فيما بينهما وطلبا من المتظاهرين الانصراف ولكن لم ينصرفوا واستمر الهتاف

ضد الانقلابيين، وقد كنت مع العناصر المشرفة على المظاهرة وأذكر منهم محمود الفوال، وقد طلبوا منى في حينه الذهاب إلى مكتب المرحوم عبد القادر عودة الذي كان قريبا من عابدين وإقناعه لمخاطبة المتظاهرين، وذهبت مسرعا إلى مكتب عبد القادر عودة ونقلت له الصورة في ميدان عابدين وقلت له أن كل المسؤولين عن المظاهرة يطالبونك بالمجيء باعتبار أنه كان قائما بأعمال مرشد الجماعة بعد إيقاف المرشد من قبل عبد الناصر، وقد رفض المرحوم باديء الأمر فكرة الانتقال إلى الميدان وقال لي يكفى أنتم للتصرف، والححت عليه بالتحرك ثم تحركنا معا باتجاه ميدان عابدين، ودفعنا المرحوم فورا إلى شرفة القصر حيث كان محمد نجيب وعبد الناصر، وأصعدنا معه إلى الشرفة أحد عناصرنا وهو الأردني المرحوم وليد الحاج حسن ومعه قميص أحد المصابين في المظاهرة وعليه دماء المصاب، وأود أن أسجل أنني ومن كان معي من قادة المظاهرة طلبنا من عبد القادر عودة أن نقبض على عبد الناصر ونتجه إلى السجن الحربي ونودعه به ونخرج الهضيبي ونعلن سقوط الانقلابيين وقيام دولة جديدة تتبنى النظام الإسلامي، إلا أن المرحوم عبد القادر عودة رفض الفكرة بقوة وصعد إلى الشرفة وخاطب المتظاهرين وكان من كلامه آنذاك أننا لسنا طلاب حكم، وأعلن أن المظاهرة قد حققت أهدافها وطلب منهم الانصراف وعدم التعرض بالعنف لأي كان من الجيش أو الشرطة، واستجاب مئات الألوف من المتظاهرين لخطاب عودة مع أنهم لم يتحركوا أدنى حركة عندما طلب منهم كل من محمد نجيب وعبد الناصر الانصراف، وقد انصرف المتظاهرون فعلا بكل هدوء وأخلوا ميدان عابدين في أقل من ساعتين .

إنني موقن أن عبد الناصر قد أدرك خطورة أمثال هذه القيادة للاخوان القادرة على تحريك مئات الالوف تجميعاً وتفريقا، وأنه صمم منذ تلك اللحظه على تصفية المرحوم عبد القادر عودة، ومع أن عبد الناصر على إثر هذه المظاهرة قد أفرج عن الهضيبي والمعتقلين من الاخوان وزار الهضيبي في منزله كأنه كان يعتذر

عن اعتقاله وتبادلا بعض عبارات المجاملة وغادر عبد الناصر، ورأيت أن الهضيبي لم يكترث كثيرا بزيارته فقد كان رحمه الله صامتا معظم وقته.
كانت فترة قصيرة عاد الإخوان إلى نشاطهم، ولكن لم يطل ذلك وقد وقع حدثان أديا إلى انهيار العلاقة بين الإخوان وحكومة عبد الناصر؛ أولهما مظاهرة طلبة جامعة القاهرة بقيادة حسن دوح وتأثير مشاركة الثائر الايراني آنذاك نواب صفوى الذي قدم من الأردن وكلفني الإخوان باستضافته ومتابعته في زيارته لمصر، وفي الليلة السابقة لمظاهرة طلبة الجامعة علم نواب صفوي بها وطالب بالتوجه إلى الجامعة فحاولت ثنيه عن ذلك إذ رايت في حينها عدم مشاركته لأنه أجنبي عن مصر، إلا أنه أصر على ذلك وذهب وشارك في المظاهرة وكان له دور في تأجيج حماس الطلبة مما أدى إلى وقوع أحداث عنف أحرقت خلالها سيارة للشرطة، واستطاع الاخوان تخليص نواب صفوي وأعادوه إلى شقتى مساء، وأعلنت الإذاعة المصرية ليلتها الحل الثاني لجماعة الاخوان، وفي الصباح طلب مني نواب صفوى أن أصله هاتفيا بجمال عبد الناصر وبعد محاولة متكررة وصلت إلى سكرتير الرئيس عبد الناصر فقلت له أن عندي السيد نواب صفوى وهو يريد أن يكلم عبد الناصر فقال أعطني نواب صفوى فأخذ التلفون وكرر طلب عبد الناصر إلى أن قال له السكرتير تفضل تكلم مع الرئيس، فانطلق نواب صفوى بصوت عال وانفعال شديد يا عبد الناصر كيف تحل الاخوان المسلمين؟ إن من يحلهم يحله الله، يا عبد الناصر كل المسلمين مع الاخوان لا تحلهم فيحلك الله، اتق الله يا عبد الناصر، وجاءه الجواب أنا سكرتير الرئيس وسوف أنقل له ما قلت فاعطاني التلفون صائحا يقول إنه ليس عبد الناصر، وبعد ساعتين أو اكثر تقريبا من هذه المكالمه الهاتفية اقتحم المنزل الذي أقطنه عدد من رجال الشرطة أو الجيش لا أعرف وأخذوا نواب صفوي وطلبوا منى مغادرة المنزل وشمعوا بابه بالشمع الأحمر وقالوا لي لا تعبث بالختم وراجعنا بعد ثلاثة ايام، ولجأت إلى منزل بعض اصدقائي من الطلبة القريبين مني إلى أن سمحت لي الشرطة بالعودة

لمنزلي، وعلمت أن بعض الاخوة رأوا نواب صفوي في سيارة الشرطة لليومين التاليين ثم سفّر إلى إيران.

وكان الحدث الثاني الذي أدى إلى انهيار أكبر وعمّق الكراهية بين الاخوان وعبد الناصر حادثة الاسكندرية الذي يرى معظم من تابعها أنها كانت مسرحية مرتبة، إذ زعمت السلطة أن أحد الاخوان وهو محمود عبد اللطيف كان من بين الآلاف في الساحة وعبد الناصر يخطب بهم وأنه أطلق النار وهو في وسط الجماهير الحاشدة على عبد الناصر وهو بعيد عنه في الشرفة التى يطل منها على المحتشدين وأن الرصاصات أخطأت عبد الناصر، كان هذا الحدث مؤذنا بالمحنة الكبرى التي نزلت بالإخوان وإعدام عبد الناصر ستة من عناصر الجماعة على رأسهم المرحوم عبد القادر عودة الذي كان محاميا وباحثا في الفقه الإسلامي ومؤلف موسوعته الشهيرة: (التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي)، وتصاعدت المحنة والعنف من سلطات الدولة على كل من له علاقة بالاخوان ونصبت محكمة الثورة التي لم تبخل على أي منتسب للحركة بإصدار أقسى الأحكام ابتداء من السجن أقله خمسة وعشرين عاما إلى الإعدام، وكيلت التهم جزافا حتى لأعداد كبيرة من الطلبة العرب الذين كانوا يدرسون في مصر وقد نالني وعددا ممن أعرف من أبناء الأردن أحكاما أو إبعادا، واستمرت المحنة إلى عام 1965 وامتلأت السجون بالشباب والشيوخ بل حتى بالنساء وأعدم الكاتب الأديب المفكر المرحوم سيد قطب عام 1965.

إيجابيات وسلبيات حركة الاخوان في مصر

- إن حركة الاخوان حركة دعوية مخلصة ملتزمة في تأسيسها ومؤسسها بالمبادئ الإسلامية خلافا لكل ما أثير حولها من خصومها التي كانت تحركهم الأنظمة السياسية المستبدة التي كانت تبذل أقصى جهودها لتصوير الحركة تارة بالعمالة وأخرى بالجهالة وتارة بالعنف وارتكاب الجرائم.
- إن شخصية مؤسس الحركة المرحوم حسن البنا لا يشوب سلوكه ولا نشاطه الدعوي منذ بدأ حركته وهو معلم في الاسماعيلية عام 1928 إلى أن اغتالته اجهزة الدولة عام 1949 أيّ شائبة لا في عقيدته ولا في سلوكه ولا في علاقاته سواءا مع مريديه وعناصر حركته أو مع خصومه أو مع المسؤولين في الدولة والحكومة
- إن حركة الإخوان المسلمين هي الحركة الإسلامية الوحيدة التي قامت بعد سقوط الخلافة الإسلامية واستطاعت أن تمتد خارج القطر الذي انطلقت منه إلى جميع البلاد العربية وامتد تأثيرها ايضا إلى عدد من الأقطار الإسلامية خارج الوطن العربي، والى التجمعات الإسلامية في الأقطار الأجنبية، وهكذا تطورت الحركة من حركة محلية إلى قطرية إلى عربية إلى إسلامية إلى عالمية، ولا يستطيع أي دارس لها أن ينكر عالميتها وعبور تأثيرها إلى كل أرجاء الأرض.
- إن الحركة خالفت معظم محاولات الجماعات الإسلامية التي اقتصرت على جانب واحد أو جوانب محدودة من النشاط الإسلامي مثل النواحي التعبدية لدى بعضها، أو السلوكية الأخلاقية، أو التعليمية والتربوية أو الخيرية والمساعدات الإنسانية وهكذا، أما حركة الاخوان بعد أن تمكنت في المجتمع المصري امتد نشاطها إلى معظم هذه الفروع من العمل الإسلامي وزادت عليها توجهها إلى ميدانين أثارا مخاوف السلطات منها، أولهما الدعوة إلى مواجهة القوى الاستعمارية في مصر ثم في الأقطار الأخرى مقاومة تصل إلى حمل السلاح ضدها، وثاني الميدانين

الدعوة إلى إصلاح أنظمة الحكم من جميع النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتطورت الدعوة الإصلاحية للأنظمة أحيانا إلى الدعوة إلى تغييرها وإقامة أنظمة الحكم وفق المباديء الإسلامية التي لا تتفق مع المباديء والأسس التي تقوم عليها هذه الأنظمة، سواءا في تبعيتها لمباديء وفلسفة الحكم الأوروبية أو لمخالفتها التامة للمصالح العامة للأمة ودين الأكثرية فيها وهو الإسلام.

- أدى حماس الحركة لتحقيق أهدافها خاصة في مجال إحداث التغيير السياسي إلى دخولها في ارتباطات مع حركات أخرى تتوافق مع حركة الاخوان في مثل هذا الهدف، وأبرز هذه الارتباطات كان مع مجموعة الضباط الأحرار في مصر بقيادة جمال عبد الناصر دون النظر المعمق وتقييم الحركة وفق مباديء الإسلام، وقد أدى هذا التحالف إلى نتائج خطيرة على تنظيم الإخوان من ناحية وعلى الأمة كلها من ناحية أخرى، وكانت أخطر نتائج هذا التحالف قيام نظام حكم استبدادى أسوأ من النظام الملكي الذي تعاون الطرفان على إسقاطه، وقاد ذلك إلى تمكن النظام الجديد من الإجهاز على حركة جماعة الاخوان عن طريق زجهم في السجون وقتل بعض قادتهم وتخريب كل منجزاتهم التي حققوها في المجالات الاجتماعية والخيرية والتربوية وغيرها، ولم تستطع حركة الإخوان في مصر التقاط أنفاسها والعودة إلى واجهة العمل الدعوي أو السياسي أو الخيري إلا بعد موت عبد الناصر وقيام السادات بعده ثم حسنى مبارك بعد السادات، ومع أن كليهما كان من المؤسسة العسكرية فإن الاخوان لم يحسنوا إعادة التقييم لما بعد عبد الناصر على أساس إسلامي بحت وخدعوا بالنافذة الضيقة من الحرية السياسية العامة التي فتحت للأمة، ولقد أحسن الاخوان بعد ذلك في قيادة السخط الشعبي العام على حكم حسنى مبارك واستطاعوا من خلال قيادتهم وتأثيرهم على جماهير الشعب إلى إسقاط حكم مبارك وإقامة حكم بدا في ظاهره أنه حقق قدرا هاما من الحرية قادت إلى انتخاب أول رئيس لجمهورية مصر العربية دون أن يكون عسكريا ولا وارثا من خلال صندوق الانتخاب، لقد حقق الاخوان ولأول مرة في

تاريخهم نصراً سياسياً أذهل خصومهم أكثر مما أفرح عناصرهم ومؤيديهم ومحبيهم.

تكرار الأخطاء

لقد كان من بديهيات الاستفادة من تجاربهم السابقة أن يعمل الإخوان سريعا وبحزم على تقييم الوضع الجديد وبخاصة بالنسبة للعسكريين الذين يمكن أن يفقدوا كل الامتيازات السلطوية والمالية التي تمتعوا بها طيلة الفترات السابقة التى امتدت ستة عقود. وعلى الرغم من قدرة الجماعة على الغوص على تاريخ جميع ضباط الجيش وسائر القوى السياسية المتمثلة بالأحزاب العلنية أو التي تعمل في الخفاء، إلا أنهم قصروا في ذلك تقصيراً واضحاً وألهاهم النصر الذي حققوه في الانتخابات وركن رئيسهم المنتخب إلى العسكر عندما قدم له قادتهم الشعائر الرسمية المعتادة وخدعته بعض المظاهر مثل حضورهم إلى المناسبات مع نسائهم باللباس الإسلامي، وعلى الرغم من تحذير بعض المقربين من الرئيس محمد مرسي له من العسكر، إلا أن ذلك لم يزده إلا ركونا إليهم وثقة بهم، وهكذا استطاع العسكر أن يلغوا كل ما تحقق من نصر لحركة الاخوان وقاموا بعزل الرئيس المنتخب والقبض عليه، وأدى ذلك إلى مذابح جماعية لحشود الاخوان تفوق في قسوتها مذابح النظام العسكري بعهد عبد الناصر.

وهكذا أضفت التجربة التي ظن الإسلاميون في كل مكان أنها حققت الحلم بعد ما يقارب تسعة عقود من قيام حسن البنا على تأسيسها عام 1928.

إن تكرار الأخطاء في معرفة الرجال والحركات والأحزاب استمر منذ عام 1949 إلى 2012، وصدق الله في قوله: ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون(هود 113).

فهل ترى يمكن للحركة الإسلامية بقيادة الإخوان المسلمين أن يتحقق على يدها بعد هذه التجارب القاسية ما يتطلع اليه ملايين المسلمين من استعادة لحكم إسلامهم وشريعته، التاريخ وحده هو الذي يحكم وفق أحداثه المستقبلية التى لا يعلم بها إلا الله عز وجل.

حركة الإخوان في الأردن

رأينا كيف عبرت الحركة إلى معظم الأقطار العربية وإلى غير العربية، وقد يكون من الصعب تحليل أوضاعها في كل مواقعها في هذه المحاولة المحدودة، إلا أنه بحكم الواقع الذي أعيشه لا بد من توجيه هذه الدراسة إلى وضع الحركة في الأردن حيث عايشتها من بداية عمرها وعمري تقريبا.

لقد قام بتأسيس الحركة في الأردن المرحوم الحاج عبد اللطيف أبو قورة، ومع أن المرحوم كان شخصا بسيطا تعلم على يد الشيخ عبد الحليم زيد في السلط ولم يتح له الدخول في المدارس أو الجامعة، إلا أنه كان منذ شبابه متحمسا للعمل الجهادي والاسلامي، وشارك في الثورة الفلسطينية عام 1936 وكان معه ابن أخته جمال الجقة الذي استشهد في فلسطين عام 1936. وفي بداية الأربعينيات اطلع الحاج عبد اللطيف على جريدة الإخوان المسلمين الصادرة في مصر فأعجب بالحركة التي تمثلها الجريدة ودفعه ذلك إلى الاتصال بقيادة الحركة في مصر ثم سافر إلى مصر، والتقى بمؤسس الحركة ومرشدها المرحوم حسن البنا وانتسب إلى الجماعة وأصبح عضوا في الهيئة التأسيسية للإخوان المسلمين في مصر، وعندما عاد إلى الأردن سارع إلى العمل على تأسيس فرع للجماعة وفعلا تم تأسيس الفرع عام 1946 وافتتحه الملك عبد الله ملك الأردن آنذاك، وانتخب بعد تأسيس الفرع عام 1947 الحاج عبد اللطيف أبو قورة كأول مسؤول عن جماعة الإخوان المسلمين في الأردن، وقد استهل نشاطه بالدعوة إلى تشكيل

مجموعة جهادية للتوجه إلى فلسطين التي بدأت القوات اليهودية بالتشكل فيها تحت رعاية سلطات الانتداب البريطانية، وفعلا تم تشكيل كتيبة أبو عبيدة تحت قيادة الحاج عبد اللطيف أبو قورة وتوجه بها إلى فلسطين، وحيث أن هدف هذه الدراسة هو دراسة وتحليل واقع الجماعة فلن نفصّل في تاريخ الشخصيات ومنها مؤسسها الحاج عبد اللطيف إلا بالقدر الذي يساعد على فهم تطور ونشأة الحركة.

إن حماس مؤسسي الجماعة للمساهمة في إنقاذ فلسطين من الهجمة اليهودية المدعومة من الغرب عموما صرفهم عن التعمق في أحوال الأمة تحت قيادات الدول الإقليمية وليدة اتفاق سايكس وبيكو، وظنوا أن جيوش هذه الدول ستكون الراعية للحركات الجهادية الشعبية التي كانت في معظمها من نتاج الإخوان المسلمين في مصر وسوريا والأردن بالدرجة الأولى، ولكن سرعان ما تبين صدق توقع الكردي أمين بروسك عندما قال في الاجتماع الذي عقد في عمان لهدف تشكيل كتيبة ابو عبيدة إذ قال بالحرف أن الجيوش العربية إنما تدخل فلسطين لحماية اليهود من أمثالكم من المتحمسين المجانين، وفعلا عاد المجاهدون من الإخوان مع غيرهم من فلسطين بعضهم إلى سجون الدول العربية مثل مصر وسائرهم يحمل اشد آلام النكبة الناجمة عن ضعف الدول وجيوشها إن لم نقل عن خيانتها لفلسطين أرض الأقصى ثالث الحرمين، وعاد عبد اللطيف أبو قورة من تلك التجربة الحزينة ولكنه لم يحبط واستمر في قيادته لجماعة الاخوان في الأردن، وتوسعت الحركة إلى معظم المدن في المملكة، وانضم إليها أعداد لا بأس بها من الناس منهم التجار والموظفون، والأطباء والمهندسون والحرفيون والطلاب، وشجع على استقطاب المزيد من الأعضاء إعجاب الناس بالدعاة الذين استقدمهم الحاج عبد اللطيف من مصر، وكان أكثرهم ترددا على الأردن سعيد رمضان وعبد الحكيم عابدين، وغالبا ما كان أبو قورة يستضيفهم في منزله ويتحمل أعباء إقامتهم ويرافقهم في تنقلاتهم، لقد استمر هذا الوضع حتى عام 1953 وكان عدد

من الموظفين والطلبة العائدين من دراساتهم الجامعية من مصر وسوريا قد بدأوا يعلنون أن الحركة تحتاج إلى التجديد في قيادتها بل لقد ذكر الحاج عبد اللطيف في أحد لقاءاته مع مجموعة من الاخوان أنه يشعر أنه لا بد للجماعة أن تعمل على تجديد ذاتها وقال عن نفسه إنني اشعر أن علينا أن نختار مسؤولا غيري من الاخوان من الحاصلين على قدر أعلى من التعليم، وهكذا قررت الهيئة الإدارية التي يرأسها أن تعمل على اختيار أحد عناصر الاخوان ممن أتموا دراستهم الجامعية وشُكلت لهذه الغاية لجنة برئاسة الحاج عبد اللطيف أبو قورة.

في هذه الاثناء بدأ القاضي الشرعي آنذاك الشيخ تقي الدين النبهاني الذي يتردد على دار الاخوان في عمان يجمع حوله عددا من عناصر الإخوان وكان يرى أن جماعة الاخوان تصب معظم اهتمامها على الجوانب التعبدية والسلوكية وأن الحركة تحتاج إلى توجيه عناية أكبر إلى التفكير العقلي والفقهي والسياسي، واستمال هذا التوجه مجموعة من منتسبى الحركة منهم الشيخ عبد العزيز الخياط الذي كان معلماً للتربية الإسلامية والقاضي محمد عبد الرحمن خليفة وهاشم أبو عمارة وغيرهم، ولم تعلن هذه المجموعة في بداية أمرها عن رغبتها في الخروج عن تنظيم جماعة الاخوان، واتخذوا من مكتب المحامي عبد الرزاق خليفة شقيق محمد خليفة مركزا رئيسا لتجمعهم، وعندما بدأوا يوجهون نقدا شديدا لحركة الاخوان لا في الأردن فقط وإنما لمركزها الرئيسي في مصر، شعر الاخوان بأن المجموعة تعمل على إقامة تنظيم إسلامي منافس لتنظيم الاخوان.

لقد أسرع ظهور هذه المجموعة في مزيد من شعور الاخوان بالحاجة إلى تغيير أسلوبهم وقيادتهم، وفي هذه الأثناء وصل الأردن أحد شباب الاخوان من مصر وقدم لشباب الحركة في الأردن على أنه من المطاردين من السلطات المصرية واسمه عبد العزيز سالم، وقد تولى الرجل متابعة اللجنة المشكلة لاختيار مسؤول غير الحاج عبد اللطيف ووقع الاختيار على حقوقي يعمل قاضيا في محاكم الأردن هو نايف الخطيب وعرضوا عليه موقع المسؤول عن حركة الاخوان في

الأردن وطلبوا منه التفرغ لهذه المهمة مقابل راتب يعادل أو يزيد قليلا عن راتبه في القضاء، ووافق نايف الخطيب على تولي المسؤولية من حيث المبدأ، الا أنه اشترط أن لا يستقيل من عمله في القضاء وأن لا يتقاضى راتبا منهم للسنة الأولى من اختياره، وبعد السنة يقرر الاخوان ويقرر هو إما الاستمرار وعندها يستقيل من عمله ويتفرغ لتحمل المسؤولية، أما اذا لم يرغب الاخوان أو لم يرغب هو بالاستمرار فيعمل الاخوان على البحث عن سواه، وكان رأي الحاج عبد اللطيف وبعض أعضاء اللجنة الموافقة على اقتراح نايف الخطيب بتولى المسؤولية لمدة سنة كتجربة لكلا الطرفين إلا أن عبد العزيز سالم وبعض أعضاء اللجنة رأوا أن وضع الاخوان يمكن أن يتعرض للاهتزاز بعد سنة التجربة، وأصروا أن يكون قبوله للمهمة نهائياً وأن يستقيل من عمله في القضاء، وهكذا تقرر صرف النظر عن اختياره وقرروا البحث عن مرشح غيره للمنصب، واتصلَت اللجنة بقاضٍ آخر هو محمد عبد الرحمن خليفة، وعرضوا عليه وقبل بشروطهم وأبدى استعداده لتركه الوظيفة الحكومية في القضاء وتولي المسؤولية عن جماعة الاخوان المسلمين، وكان من رأي الحاج عبد اللطيف وبعض أعضاء اللجنة التريث والبحث عن بديل آخر بسبب صلة محمد خليفة بمجموعة تقي الدين النبهاني، إلا أن عبد العزيز سالم ومن معه أصروا على محمد خليفة، وهكذا تم اختياره وبدأ محمد خليفة عمله مراقبا للاخوان المسلمين في الأردن ابتداء من آخر سنة 1953، وقد رأى بعض قادة الاخوان من أعضاء مجلس الشورى آنذاك أن يكون اختياره لمدة محدودة إلا أن محمد خليفة أصر على أن يكون اختياره لموقع المراقب العام للاخوان المسلمين مفتوحاً غير محدد بأي مدة.

وقد وقع خلاف واضح بين فريقين من الاخوان الأول كان يرى أن لا تحدد للمراقب العام مدة محددة ومعظم هذا الفريق من كبار السن، أما الفريق الآخر فكان من الشباب، وأيد عبد العزيز سالم الفريق الأول، قياسا على أن المرشد العام للاخوان المسلمين في مصر لم تحدد لولايته فترة زمنية.

وضع النظام الأساسي

لقد كاد الخلاف على مسألة المدة المقررة للمراقب العام للاخوان أن يؤدي إلى انشقاق في الجماعة، وحتى يخرجوا من هذا المأزق قرر مجلس شورى الاخوان وضع نظام للاخوان يعالج معظم المسائل التنظيمية والإدارية للحركة ومنها مسألة مدة تعيين المراقب العام، لقد اكتمل وضع النظام الأساسي للاخوان في الأردن على ما اعتقد عام 1954 أو 1955 وعلمت أن المراقب المعين لهذا المنصب رفض أن يحدد مدة لهذ المنصب الذي يعد أعلى مسؤول في الهرم التنظيمي للاخوان، لذا ترك النظام المدة مفتوحة وبقي الامر كذلك قرابة خمس واربعين سنة حتى عام 1994 حيث نافسه في الانتخابات للمنصب أحد الشباب وفاز عليه وحددت مدة المراقب بأربع سنوات.

لقد دفع هذا القرار في حينه عددا من عناصر الاخوان وبخاصة من الشباب إلى تجميد نشاطهم أو مفارقتهم للجماعة، وقد كنت من هذا الفريق، إلا أنني لم أتعرض للجماعة بالإساءة ولا لأي من مسؤوليها وبقيت علاقتي بهم جميعا علاقة مودة على الرغم من مقاطعتي لها من الناحية التنظيمية، وقد بذل عدد من زملائي في الدراسة من شباب الاخوان حوالي أواسط أو أواخر الستينيات جهودا لإقناع العناصر المبتعدة عن التنظيم للعودة إليه وقد كنت الوسيط في هذه المحاولة مع المكلفين بالتحدث مع العناصر وكانوا أربعة من خيار شباب الاخوان فقلت لهم إننا على استعداد للعودة بشرط أن تتعهدوا أنتم ومن معكم من الاخوان بالعمل معنا على تغيير النظام الذي ينص على بقاء المراقب العام مدى الحياة، فرفضوا ذلك بحجة أن إثارة هذا الموضوع قد يؤدي إلى انشقاق، وقد يستعين الرافضون لهذا التعديل للنظام بقوى من خارج الاخوان مما يؤدي إلى فتنة، وهكذا بقي الحال على ما هو عليه بعد هذا اللقاء قرابة ثلاثين سنة.

محاولة توسيع القاعدة السياسية للحركة الإسلامية

أثبتت كارثة عام 1967 تهلهل نظم الحكم العربية وجيوشها التي لم يصمد أي منها يوما في مواجهة الجيش الصهيوني الذي سحقهم في المواقع الثلاثة المجاورة له، لقد أدى ذلك بجميع فئات الأمة العربية إلى البحث عن مخرج من هذه النازلة، وفي الأردن تداعى نفر من الإسلاميين من غير الاخوان إلى محاولة إيجاد بديل يمكن أن يعمل للإنقاذ، وقد قام هؤلاء النفر بالدعوة إلى تشكيل تجمع إسلامي شامل في الأردن تحت عنوان الجبهة الإسلامية وأعلن عنها اواسط عام 1968، واعتمد موقع جمعية العروة الوثقى مركزا للجبهة ونشطت اللجنة المنظمة للجبهة وتم عقد عدة لقاءات لعدد من الشخصيات المهتمة، ونظمت بعض الندوات واللقاءات الجماهيرية لهذه الغاية، وتم الاتصال بالاخوان للمشاركة ووافقوا فعلا وانتدبوا منهم السيد عبد الرؤوف الروابدة، الذي شارك في عدد من اجتماعات اللجنة المنظمة المسؤولة عن الجبهة، إلا أن الاخوان رأوا تغيير مندوبهم عبد الرؤوف واختاروا بدله المرحوم محمد وهبة، وحضر مراقب الاخوان بنفسه بعض اجتماعات اللجنة وعندما تعددت نشاطات الجبهة طلب المرحوم الملك حسين الاجتماع باللجنة وقد حضر الاجتماع مع الملك على ما أذكر يوسف المبيضين وعبد الباقي جمو وكامل الشريف ومحمد خليفة وعزت العزيزي، وقد أثنى المرحوم الملك على فكرة الجبهة وتمنى لها التوفيق والنجاح، واستمر الاجتماع قرابة الساعتين، وفي اليوم التالي طلب الاجتماع باللجنة ايضا ولي العهد الامير الحسن، وكان الاجتماع معه كذلك مريحا له وللجنة، وطلب منها الاستمرار في نشاطها وأن تكون عونا للمملكة في التعافى من آثار النكبة.

ولم يكتب لمشروع الجبهة الاستمرار، ولا أريد أن أحمل المسؤولية في ذلك على جهة معينة، إلا أن الاخوان لم يتحملوا كما أعتقد أن يكونوا على نفس المستوى مع سواهم من العاملين في أمر مشترك، ومن خلال التجربة معهم فقد أجهضوا

في الستينيات كذلك محاولة لتشكيل نقابة للمعلمين وكذلك تشكيل هيئة لعلماء المسلمين عندما وجدوا أن الأكثرية الملتقية لهاتين المحاولتين كانت ترى أن لا يكون المسؤول الأعلى من شخصيات الاخوان.

الاخوان والحركات الحزبية

كانت الجماهير العربية في حقبة الخمسينيات والستينيات تتطلع إلى تغيير الواقع العربي الهزيل المنقسم على نفسه غير القادر في ظل أنظمة الحكم القائمة لا على تحسين الواقع الاجتماعي للشعوب العربية ولا على إقامة دول قوية قادرة على مجابهة القوى الاستعمارية المسيطرة التي تتخذ القرارات التي تخدم مصالحها ومصالح حلفائها وبخاصة الدولة اليهودية، وكانت دعاية عبد الناصر لجانبين هامين يدغدغان آمال العرب عموما وهما الوحدة العربية من الناحية السياسية والاشتراكية من الناحية الاقتصادية حافزا لبروز تكتلات سياسية واجتماعية تنادى بهما وأسفرت الانظمة العربية القائمة عن رفضها التسليم لعبد الناصر الذي كان يسعى لبسط نفوذه على اقطار تلك الانظمة، وكان النظام الأردني من أبرز الرافضين للنفوذ الناصري، وهنا التقى توجه النظام مع ميل الاخوان عندما أمعن النظام الناصري بالتنكيل بهم قتلاً وسجنا وتعذيباً، وعندما اندفعت الأحزاب القومية واليسارية في الأردن في رفض مشروع حلف بغداد الذي تبنته بعض دول المنطقة قامت مظاهرات في عمان ضد مشروع الحلف وتصدت الحكومة الأردنية لهذه المظاهرات ووقف الاخوان مع الحكومة، واعتقد أن كلا الجانبين الاخوان والنظام الأردني لم يكونا على قناعة بمشروع الحلف وإنما دافعوا عنه مخالفة لجمال عبدالناصر.

وهكذا ختم على الاخوان حينئذ بالعمالة لمشروع الحلف من ناحية وبالوقوف في وجه القومية العربية والإصلاح الاشتراكي من ناحية أخرى، وقد نتج عن هذا

الواقع غير المقصود إلى ضعف التفاف جمهور الناس في الأردن حول حركة الاخوان.

لقد تأثرت شعبية الحركة الإسلامية بهذه الاحداث وأسهمت في عزل الحركة عن شعبيتها مدة بلغت قرابة عقدين، ولم تتعاف إلا بعد فشل النظام الناصري في مواجهته للصهيونية المتمثلة في اسرائيل في حرب 1967 وبدأ تحرر الشعوب العربية ومنها الأردن من أثار الناصرية في أواسط السبعينيات.

الاخوان والمسألة الفلسطينية

لقد بينت سابقا أن الاخوان في الأردن شاركوا بقيادة رئيسهم الحاج عبد اللطيف ابو قورة بالحملة عسكريا ضد القوات اليهودية عام 1948، ورأينا كيف فشلت المحاولات الشعبية غير الحكومية وعادت إلى البلاد مكتئبة حزينة وذلك بسبب تخلى الجيوش الرسمية في كل البلاد العربية عن خوض أي حرب جدية ضد العصابات اليهودية.

قاد هذا الفشل المزدوج عام 1948 إلى نمو متصاعد بين عناصر من شباب الحركة الإسلامية إلى محاولة البحث عن وسيلة للتصدى للعدوان اليهودي على فلسطين، وفي أواخر عام 1963 تداعى عدد من الشباب الذين ابتعدوا عن تنظيم الاخوان إلى تشكيل مجموعة تقوم بمحاولة لإلحاق الاذى بالكيان اليهودي وقد كنت واحدا من هذه المجموعة التي بدأت باقل من عشرة أشخاص، لقد درسنا امكانية القيام بعمل واخترنا منطقة بحيرة طبريا ومحيطها لقربها من الأردن من ناحية ولأهميتها الاستراتيجية للكيان اليهودي من ناحية أخرى إذ أن الدولة اليهودية تعتمد على المياه المخزونة في البحيرة اعتمادا كبيرا وأن إمكانية إحداث تسميم للمياه يمكن أن يؤدي إلى نتائج مذهلة ضد الكيان اليهودي، كنا بضعة شباب إمكاناتنا المالية محدودة جدا ولم نشأ أن نتوسع في البحث عن مصادر

لتمويل ما كنا نتطلع اليه، وعلمنا بأن مجموعة من الشباب الفلسطينيين العاملين في الكويت يحاولون تشكيل تنظيم لنفس الهدف وتم الاتصال بهم وطلبوا منا أن نرسل من يتفاهم معهم على التعاون وانهم قادرون على المساهمة المالية وارسلنا فعلا أحدنا لهذه الغاية وعاد بموافقتهم على التعاون بشرط أن يكون التنظيم فلسطينيا ليست له اي صبغة فكرية إسلامية، ورحب كل الشباب بالانضمام اليهم باستثنائي إذ قلت أن العمل من أجل فلسطين إذا لم يكن قائما على أساس إسلامي فلا يهمنى الانضمام إليه، وهكذا انضموا إلى ما عرف آنذاك بحركة تحرير فلسطين ويرمز اليها بكلمة (حتف) ثم قلبت إلى فتح، ومع نمو الحركة أصبح الذين كنت معهم من كبار المسؤولين في حركة فتح واحتلوا مواقع مهمة فيها، وما زال بعضهم وبعض أبنائهم من المسؤولين، وانسحب بعضهم وانتقل بعضهم إلى رحمة ربه.

ذكرت ذلك لأننا تمنينا أن تكون حركة الاخوان هي المبادرة في هذا السبيل امتداداً لجهودهم التي كانت عام 1948 في الأردن ومصر آنذاك، ولكن يبدو أن ما كان واقعا بينهم وبين عبد الناصر من التباعد لدرجة المحاربة حال دون ذلك على الرغم من وجود عناصر في حركة الاخوان المصريين قد يرون إمكانية تجاوز الخلاف مع عبد الناصر وكان من هؤلاء من عرفناه باسم عبد العزيز سالم ثم عرفنا أن اسمه هو نجيب جويفل، وظننت بادىء الامر بعد قيام الانقلاب الناصري أن النظام الجديد رفع الطلب الذي وضعه النظام الملكي على نجيب وامثاله، ولم يخطر على بالي أن النظام الناصري قد جندهم عملاء له، إلى أن تأكد لي ذلك في علاقته مع الضباط الأردنيين الذين حاولوا الإطاحة بالنظام الأردني في أواخر الخمسينات وعند فشلهم هرب بعضهم إلى مصر وبعضهم إلى سوريا وحاول أحدهم تجنيدي مع عدد ممن يربطني بهم انتماؤنا السابق للاخوان من خلال نجيب جويفل الذى انتقل حينها إلى الإقامة في سوريا، وعلى الرغم من رفضنا لمبدأ الانضمام لاولئك المجموعة إلا أن النظام في الأردن أودع ثلاثة منا

السجن عام 1961 ثم أُفرج عنا عندما تبين لهم براءتنا، ومع ذلك لم أقطع صلتي الشخصية العادية بنجيب جويفل مع أنه لم تعد علاقته بالنظام المصري سرا بعد أن عين مسؤولا مهما في السفارة المصرية في الأردن، وعندما زرت مصر عام 1982 زارني نجيب مع زوجته إذ كنت مع العائلة في مصر في حينها، رحمه الله وقد أفضى إلى ما قدم.

عودة الإسلاميين للكفاح الفلسطيني

بعد كارثة وهزيمة العرب عام 1967 وظهور حركة فتح على الساحة الفلسطينية وظهور حركات أخرى بعد فتح من كل لون؛ قومية عربية ويسارية وغير ذلك من المرتكزات الفكرية –عدا الإسلامية– واجتمعنا المجموعة التي حاولنا في بداية الستينات تم انحلت عقدتنا عندما انضم معظمنا إلى حركة فتح، عدنا إلى الالتقاء وقررنا التنسيق مع حركة فتح وأقمنا معسكرا لتدريب المنضمين إلينا من المنتمين إلى توجهات إسلامية مختلفة كالصوفية وغيرهم ممن أرادوا المساهمة في تنظيم جهادي أسلامي، ورحبت قيادة فتح بهذا التوجه وانتدبوا من صفوفهم من يحسن التدريب وأرسلوه إلى معسكرنا، وحيث كنت قائدا مسؤولا عن المعسكر فقد قمت بتنظيم ملف لكل عنصر يشتمل على اسمه وأسرته وبلده الأصلي ومكان إقامته والمدارس التى درس فيها وأية بيانات شخصية وذلك بهدف عدم تمكين تسرب عناصر تشكل خطرا على المجموعة التي لم يتجاوز عددها آنذاك خمسين شابا، وعندما استكملت ملفات جميع الافراد المجندين شرعت في تنظيم ملف للمدرب الذي انتدبته فتح، وعندما سألته عن دراسته ذكر لي أنه أنهى دراسته الثانوية في كلية الحسين وظننت بادئ الأمر أنه درس في مدرسة الحسين الثانوية في الخليل فقال لي لا إننى درست في كلية الحسين في عمان، لم يخطر على بال هذا المدرب الفتحاوي أن قائد المعسكر الذي يسأله كان مديرا لكلية الحسين في الوقت

الذي ذكره، فسألته ومن كان يعلمكم العربي ثم اللغة الانجليزية والفيزياء والرياضيات فكان يذكر أسماء لم يكن أي منهم من معلمي كلية الحسين ثم سألته ومن كان مدير الكلية فذكر أسما لا أذكره الآن فقمت فوراً ووجهت اليه مسدسي وقلت له قل من أنت أيها الخائن، وانهار فورا واعترف أنه دخل مع مجموعة فدائية إلى منطقة الضفة التي يحتلها اليهود وقبض على كل المجموعة ومن ثم تم تجنيده لحساب المخابرات الاسرائيلية (الموساد) ثم أطلقوا سراحه وسهلوا له سبيل العودة إلى الأردن على أساس أنه استطاع الهرب من معتقله دون بقية أصحابه وهكذا أصبحت له منزلة خاصة في فتح، واعتقلته والقيته في حفرة مع الحراسة عليه وأرسلت إلى قيادة فتح أن خذوا مدربكم الذي اكتشفت أنه جاسوس لليهود، وعندها قررت إغلاق المعسكر وأرسلت عناصره إلى أحد معسكرات فتح آنذاك ولم أعد اثق بكل ما كان من حولنا من الحركات الفلسطينية وعدت إلى الانطواء على الذات وانصرفت لعملي المهني، ثم أتممت دراستي لدرجة الدكتوراة في الولايات المتحدة ثم انتقلت إلى العمل في الجامعة وقصرت نشاطي العام منذ تلك التجربة على النشاط العلمي وأسست مع بعض الإخوة جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية ومع آخرين جمعية الصالحين لتحفيظ القرآن وبعد ذلك إلى النشاط السياسي الذي سأذكره لاحقا. ورأيت آنذاك أن حركة الاخوان في الأردن مروا في نفس التجربة، وأقاموا معسكرا أو أكثر بعنوان إسلامي وبالتعاون مع فتح، وانتهت تجربتهم في الأردن، ولعل قيام حركة حماس في فلسطين كان تجديدا لمحاولتهم على غير مبدأ تعاونهم مع حركة فتح. واحتلت ساحة ما أطلق عليه الكفاح الفلسطيني المسلح منظمات من ألوان متعددة منها ما هو يسارى متطرف في يساريته، ومنها قومي عروبي وغير ذلك وانضوت كل منها إلى مظلة دولة من دول المنطقة، وكثيرا ما زعمت كل منظمة من هذه المنظمات القيام بعمليات فدائية داخل الكيان اليهودي زورا وكذبا حتى تجمع من حولها التأييد الشعبي ومن ثم الحصول على المساعدات سواءا من الدول أو من الجماهير الشعبية على

اختلاف انتماءاتها الفكريه أو السياسية، وإنه لمن المبكي والمضحك معا أن هذه المنظمات ما زالت موجودة بقيادات وألقاب وفلسطين تقضم من اليهود، بل أصبح بعضها ذراعا للأمن اليهودي وما زال سيفا مسلطا على رقاب أبناء فلسطين سواء في الضفة أو في قطاع غزة.

حزب جبهة العمل الإسلامي في الأردن

بعد إفلاس الحركة الإسلامية بعامة والإخوان المسلمين بخاصة بالنسبة للقضية الفلسطينية اتجهت التنظيمات الإسلامية كل إلى خصوصيتها وميدانها الخاص بها وهي ترى أنها تعذر إلى إسلامها ببذل جهودها ضمن تلك الخصوصية، حتى الاخوان اتجهوا إلى جوانب خاصة ومحددة من العمل الإسلامي واستفادوا من خلفياتهم في حركة الاخوان في تجنيد أعداد كبيرة من الاشخاص أو الإمكانات المالية ونجحوا إلى حد كبير كل في مجال الخصوصية التي اختاروها، مثل العمل الخيري العام أو انشاء المؤسسات الصحية أو التربوية أو العلمية أو القرآنية وحتى الأُسَرية، وحققوا في كل من ذلك إنجازات كبيرة وأصبح لهم مؤسسات مسيطرة كل على مجالها بإمكانات مالية ضخمة يعمل بها آلاف من شباب الحركة ومن سواهم، واعترفت الدولة بهذه المؤسسات ومنحتها الوضع القانوني في تبعية كل منها إلى الوزارة التي تعنى بالنشاط الذي تمارسه كل منها، واستمرت الحركة الأم الأساسية في عملها الدعوي تمد كل هذه المؤسسات المتفرعة بالكوادر والقوى البشرية.

إن هذا الواقع أصاب كثيرا من الإسلاميين من الاخوان أو من غيرهم بِحيرة قد تصل إلى التشاؤم من حيث انصراف العمل الإسلامي عن أهدافه الأساسية التي من أهمها إحداث التغيير الشامل في الحياة الاجتماعية والسياسية حسب الفهم الإسلامي العميق الدقيق للإسلام الذي تعبر عنه سيرة الرسول عليه الصلاة

والسلام والذي امتد لخمسة عشر قرنا في ظل الحكم الإسلامي على اختلاف الانتماءات العرقية أو القبلية للخلفاء عبر التاريخ إلى سقوط الخلافة العثمانية في مطلع عشرينيات القرن العشرين، وفي سبيل اعادة العمل الإسلامي إلى مساره الرئيسي الشمولي رأى عدد من الإسلاميين أنه لا بد من البحث عن وسيلة تحقق هذا الهدف، وفي ضوء تقدير الواقع السياسي للمنطقة بشكل عام وللوضع في الأردن بشكل خاص، اعتقد هؤلاء النفر أنه لا بد من إقامة كيان سياسي مستقل عن كل ما هو موجود في الساحة الأردنية.

وتم الالتقاء في بداية الأمر بين إسلاميين غير منتظمين مع أي جماعة لمناقشة إمكانية تأسيس حزب سياسي إسلامي يمكن أن يلتقي على تكوينه إسلاميون بصفتهم الفردية سواءا كانوا غير منتظمين إلى أي كيان قائم أو من المنتظمين في أي من التنظيمات الإسلامية من الاخوان أو من غيرهم، وعقدت عدة اجتماعات لهذا الهدف في منزلي وفي منزل الحاج حمدي الطباع شارك فيها عدد من الاخوان وغيرهم من الجماعات الإسلامية بل بعض الأفراد من المسيحيين الذين أبدوا استعدادهم للمشاركة في تأسيس حزب إسلامي حيث رأوا أن الثقافة الإسلامية هي الثقافة الوطنية لكل المواطنين سواء اكانوا مسلمين أو مسيحيين.

وتتابعت بعد ذلك الاجتماعات في موقع قريب من مقر الاخوان في عمان، وكان عدد الاخوان قريب من عدد غيرهم الذين أطلق عليهم صفة المستقلين، وتم انتخاب مقرر لهذا اللقاء من الإخوان المسلمين هو المرحوم أحمد الأزايدة، وبعد عدة لقاءات تم الاتفاق على اختيار اسم للحزب يمثل التوجه السائد بين جميع افراد اللقاء من أن الحزب المزمع انشاؤه يجب أن يكون مظلة لجميع العناصر التي تتبنى اعتماد الفكر الإسلامي قاعدة للعمل الحزبي سواء أكانوا من الملتزمين لتنظيمات قائمة أو مستقلين عن أي تنظيم، وفي ظل هذا التوجه اختير اسم حزب جبهة العمل الإسلامي، ومن الواضح أن ادخال صفة الجبهة في الاسم دليل على هذا التوجه، وتم تشكيل هيئة تأسيسية تتقدم للجهة المسؤولة للدولة حسب الطريقة

التي اعتمدتها الحكومة لتأسيس الأحزاب، وقد أبدت مجموعة المستقلين في الهيئة تخوفها من محاولة سيطرة جماعة الإخوان المسلمين في المستقبل على الحزب، وعندها سيفقد الحزب ميزته الشمولية ويتحول إلى حزب للاخوان المسلمين، وذلك أن جماعة الاخوان هي التنظيم الوحيد القادر على حشد عدد من عناصره للانتساب للحزب ومن ثم السيطرة عليه، وقد أكدت مجموعة الاخوان في الهيئه التأسيسية في حينها أن هذا التخوف طرح على قيادة الاخوان ووافقت على أن لا تسيطر جماعة الاخوان على الحزب وأن تكتفي بالمشاركة بما لا يزيد على أربعين في المائة من المجالس الرسمية للحزب في المستقبل، وأكد على ذلك المرحوم أحمد الأزايدة في أكثر من جلسة في الهيئة التأسيسية مما طمأن العناصر المستقلة فيها وأزال تخوفهم، وصدرت موافقه وزارة الداخلية على الطلب الذي تقدمت به اللجنة التنفيذية المؤقتة للحزب، وهكذا بدأت اللجنة عملها في تلقي طلبات الانتساب للحزب، ولم يعترض أي من الأعضاء المستقلين في اللجنة على طلبات الانتساب التي كانت مدعمة بتوصية من أي من أعضائها، ولم يحاول الأعضاء المستقلون ضم أي عناصر للحزب إلا ممن تأكدوا من قناعتهم بمبادئ الحزب واستعدادهم للانخراط في العمل السياسي من خلاله ولم يعمل أي من العناصر المستقلة على ضم عناصر على أساس أسري أو عشائري لأي منهم مع أنهم كانوا قادرين على ذلك.

وقررت اللجنة المؤقتة للحزب الدعوة إلى اجتماع لاختيار قاعدة تأسيسية ومجلس تنفيذي دائم للحزب، وقد فوجئنا باعداد اكثر من توقعاتنا، وعندما بدأ الترشيح للجنة التنفيذية كان أعضاء اللجنة المؤقتة التي صدرت الموافقة الرسمية على الحزب باسمها أول المترشحين، وكان يجلس إلى خلفي أحد قادة الاخوان وحوله عدد من أقاربه وأصهاره، وسمعته بأذني يقول لهم لا تنتخبوا فلانا وفلانا من العناصر المستقلة في اللجنة الأولى، وهكذا أسفرت أول انتخابات للحزب عن استبعاد معظم العناصر المستقلة التي أسست الحزب، وتم انتخاب بعض

المستقلين الجدد ممن كانوا على تفاهم مسبق مع بعض قيادات الاخوان، وهكذا فشل الحزب في أول انتخابات يجريها في التعبير الصادق عن فكرة الجبهة القادرة على استيعاب عناصر إسلامية من غير التنظيم التابع للجماعة، وتحول الحزب منذ تلك التجربة إلى تنظيم تابع لحركة الإخوان المسلمين، حتى العدد القليل من المستقلين لم يصمد في قيادة الحزب لفترة اخرى بعدها.

لقد أدت هذه النتيجة إلى الشعور بالإحباط واليأس من قدرة الاخوان على استعياب أي فرد أو أفراد من غير عناصرهم بصرف النظر عن قدراتهم أو سابقتهم في تأسيس الحزب أو النشاطات الإسلامية خارج إطار الجماعة وقد اتصل عدد ممن كانوا يعقدون آمالا على تنظيم جبهوي إسلامي واسع بالافراد الذين استبعدوا عن الحزب بالانتخابات وشجعوهم على تأسيس حزب اسلامي آخر مستقل عن الاخوان إلا أننا لم نوافق على هذا التوجه وقلنا أنه ليس من مصلحة العمل الإسلامي خوض مثل هذه التجربة وما زال الحزب في بداية تكونه السياسي وتمنينا ودعونا الله أن يوفق حزب جبهة العمل الإسلامي على النهوض لما أنشئ من اجله.

المشاركة في الإنتخابات النيابية

شهدت المملكة الأردنية في الثمانينيات من القرن الماضي حراكات شعبية عبرت جماهير المشاركين فيها عن مر الشكوى لسوء الأوضاع المعيشية وغلاء الأسعار وعجز الحكومات المتعاقبة عن معالجة أي من هذه الأوضاع السيئة، وتحولت بعض المظاهرات إلى صدامات عنيفة بين المتظاهرين والسلطات الأمنية وامتدت من معان جنوبا إلى مدن الوسط والشمال، وكان هذا الحراك عفويا من قبل عامة الناس غير مدفوع ولا معبر عن أي تنظيم حزبي أو حركي ولم يكن لجماعة الاخوان مساهمة في أي من هذه الاحداث، غير أن هذه الاحداث أيقظت

المطالب السياسية وحولت الأوضاع العامة من حالة الخمول والخمود وعدم المبالاة إلى حالة من الانتباه واليقظة والوعي السياسي مما هيأ الناس إلى تقبل أي تنظيم قائم أو يمكن أن يقوم لقيادة هذه الهبة، وخدم ذلك جميع القوى المنظمة بل والاشخاص المهتمين في القضايا العامة إلى خوص الانتخابات عام 1989، وقد أفرزت هذه الانتخابات برلمانا يمكننا القول أنه دخلت فيه عناصر جديدة مندفعة لإحداث التغيير ومنها كتلة نواب الاخوان التي شكلت الكتلة الوحيدة المتماسكة في البرلمان.

وقد نصحت الاخوان قبل أن يعلنوا عن مرشحيهم أن لا يخوضوا التجربة بأشخاص ذوي أسماء معروفة من قياداتهم بل يبحثوا عن عناصر صديقة للحركة فان نجحوا في هذه التجربة سجل نجاحهم في ميزان الحركة ومن فشل منهم تحمل نفسه معظم مسؤولية فشله، وقد لا أكون واقعيا في نصيحتي، وعموما لم يؤخذ بها ودخل الاخوان ونجحوا نجاحا فاق توقعاتهم وتوقعات خصومهم.
واختير أحد نواب الاخوان رئيسا لمجلس النواب، ودار في البلد بين الاخوان وبين غيرهم أن الخطوة التالية للحركة المشاركة في الحكومة، ومرة أخرى رجوت الاخوان أن لا يدخلوا في الحكومة لعدة أسباب منها أن مثل هذه المشاركة لن تؤدي إلى تغيير حقيقي فإنها ستكون عبئا على الحركة وتهديدا لمستقبلها، وثانيا ليس لدى الاخوان شخصيات مدربة على ممارسة المسؤوليات الوزراية ويخشى إذا لم ينجحوا أن تتحمل الحركة كل عيوب إدارتهم للوزرات التي يتسلمونها، وكررت النصيحة أن يختاروا ممن يثقون بهم ممن عرفوا بالكفاءة ونظافة اليد فان أحسنوا فللإخوان فضل إحسانهم وإن أساءوا فعليهم وزر إساءتهم، إلا أن حركة الاخوان استجابت لعرض رئيس الوزراء مشاركتهم بالحكومة، وشاركوا فعلا بخمس وزارات شملت الصحة والتربية والتعليم والتنمية الاجتماعية والعدل والاوقاف، ولم تصمد مشاركتهم سوى ستة أشهر لم يتمكن أي منهم إدخال أي إصلاح ذي بال على الوزراة التي تسلمها، وزرت أحدهم في مكتبه بعد شهرين من بدء وزراتهم وقلت له

بالحرف: ما هي خطتك لإصلاح هذه الوزراة؟ فأجابني: اننا لم نسخن بعد؛ وقلت له اطمئن فلن تتركوا حتى تسخنوا، وقلت في نفسي ليتهم يتعلمون من تجارب أحزاب اخرى باشروا التغيير في مواقعهم من أول يوم غير مبالين بما يقال عنهم، لقد ثبت أن اختيار حركة الاخوان للوزراء لم يكن موفقا في مجمله، وأن المصالح الشخصية والنفوذ داخل قيادة الاخوان كانت السبب في اختيار بعض الشخصيات وليس لكفاءتهم أو حتى سابقتهم في العمل الدعوى أو التنظيمي في الحركة. سقطة اخرى اشد وأقسى من مسألة المشاركة في الانتخابات أو المشاركة في الحكومة اقترفتها حركة الاخوان من خلال نوابهم في البرلمان عام 1994 حيث أقر البرلمان اتفاقية وادي عربة التي شكلت أسوأ مرحلة في الإجهاز على ما تبقى من أمل مشاركة بلد كالأردن في الانتصار لفلسطين الضائعة بين الاحتلال اليهودي والتقصير إن لم تكن الخيانة العربية، صحيح أن نواب الاخوان لم يصوتوا بالموافقة على الاتفاق، إلا أن هذا غير كاف، بل كان عليهم أن لا يستمروا في عضوية مجلس أقر اتفاق المذلة والتفريط يوماً واحداً. وتقصير آخر لا تقل نتيجته سوءا عن البقاء في المجلس وهو أنه لا حركة الاخوان ولا نوابهم عملوا على شرح خطورة الاتفاق الذي بقيت نصوصه المهينة في أدراج الخفاء.

خلاصة لما يمكن أن توصف به حركة الإخوان المسلمين في الأردن

انتقال الحركة من دعوية إلى ما هو أشمل

إن التصور المبدئي عند رعيل المؤسسين أنها حركة دعوية تهدف إلى إصلاح المجتمع عن طريق الدعوة الإرشادية الوعظية بالتنسيق مع النظام القائم، على نفس النمط الذي اتبعته الجماعة الأم في مصر، وأنه لم يكن للمؤسسين اهداف لإحداث تغيير شمولي.

مزالق العمل السياسي

إن العمل السياسي لم يكن من أولويات الحركة عند تأسيسها، ويتفق ذلك مع الحالة السياسية للأردن آنذاك، إذ لم يكن فيها أية تنظيمات سياسية حزبية أو غير حزبية، ولم تسعَ الحركة لإحداث مثل هذا التنظيم إلا بعد ما يزيد على أربعة عقود، متابعةً لبروز تنظيمات وحركات سياسية وحزبية تتبنى اتجاهات فكرية (ايدولوجية) ذات جذور غير إسلامية بل حتى غير عربية، بل إنها على صلة بتوجهات فكرية يمكن أن يضاف بعضها إلى الأيديولوجيات الشيوعية اليسارية أو الرأسمالية اليمينية أو الاشتراكية الجديدة التي ظهرت في أوروبا كرد فعل رافض لكلا التوجهين؛ اليساري الذي نتج عن الثورة الشيوعية في روسيا ثم انضمت اليه الصين، أو اليميني الرأسمالي الذي تتبناه عمالقة الرأسمالية الامريكية والأوروبية التي أطلقت عليه معسكر العالم الحر.

لقد دخل الاخوان المعترك السياسي في أول انتخابات برلمانية دون الإعلان الصريح عن تحولهم إلى تشكيل سياسي واضح، لذلك كان التنسيق بين النواب الذين نجحوا في تلك الانتخابات محدودا جدا ويكاد كل منهم أن يعد ممثلا لعشيرته أو بلدته أو عنصره أكثر من كونه ملتزما بفكر الحركة.

فشل الحزب كجبهة واسعة للاسلاميين

بعد تأسيس حزب جبهة العمل الإسلامي وفشلهم في الاحتفاظ بالعناصر المستقلة في الحزب لم يستطيعوا منح الحزب الذي أصبح تحت سيطرتهم الإستقلال في اتخاذ القرارات من المنطلق السياسي وبقيت السيطرة على عمل الحزب السياسي في يد القيادات التقليدية للتنظيم الذي عجز لستة عقود عن تطوير قدراته القيادية التي تتلاءم مع أساليب الإدارة الحديثة التي تلتزم بمبدأ مشاركة القواعد الشعبية في اتخاذ القرارات عبر نظام تشاوري لا يقوم على تفرد المسؤول بمعزل عن أكثرية عناصر التنظيم.

إن هذا النهج في قيادة الجماعة أدى إلى اتخاذ قرارات أقرب إلى الطريقة العشائرية أو الأسرية التي لا تقيم كبير اعتبار للكفاءات أو القدرات أو قوة الالتزام بمبادئ الإسلام، القاعدة الأساسية للحركة، بقدر ما يؤثر على قراراتها المصالح الشخصية أو الأسرية، مما كان يؤدي إلى حرمان الحركة من كفاءات وقدرات مؤثرة مما أضعفها وأوقعها في كثير من الأحيان بمزالق قد تودي بقدرات الحركة وسمعتها على المدى الأبعد.

انعكاسات التفرد القيادي للحركة

لقد انعكس هذا الاسلوب الفردى في قيادة الجماعة في كثير من الاحيان على فشلها في مواجهة تنظيمات أخرى قومية أو يسارية أو حكومية في السيطرة على مواقع هامة في المجتمع المدني كالنقابات والجمعيات الطلابية في الجامعات مما أدى إلى عزل الفكر الإسلامي عن التأثير فيها، وقد نتج عن هذا الواقع ضعف ثقة قطاعات واسعة من المجتمع بالتوجه الإسلامي تحت قيادة الاخوان، إما بتبنيهم توجهات غير إسلامية مع صدق إسلامهم أو إلى اعتزالهم المشاركة في

هذه المواقع، مما زاد من قدرة الاتجاهات غير الإسلامية التي ذكرتها آنفا على احتلال مزيد من المواقع أحياناً كليا وأحيانا بأكثرية قادرة على فرض توجهاتها وأفكارها.

مسؤولية حركة الاخوان عن التراجع الإسلامي

لقد أدى أسلوب القيادات الإخوانية للعمل الإسلامي سواءا في المحيط السياسي الحزبي أو مؤسسات المجتمع المدني على اختلافها إلى توجه كثير من النشطاء في جميع هذه المجالات إلى اقامة تشكيلات جديدة مستقلة أحيانا ومتعاونة مع عناصر ذات توجهات فكرية مختلفة أحيانا اخرى، ونظرا للإحباط الذى أصاب الأكثرية من الناس وهم من المنتمين للإسلام الراغبين في العمل من خلاله ما أدى إلى عجز التنظيمات الجديدة عن فرض وجود ذي بال على الساحات السياسية أو المدنية من ناحية، كما أضعف قدرات العمل الإسلامي الأقدم بقيادة حركة الاخوان، وبذلك كان الخاسر الاول من هذا الوضع تراجع التأثير الإسلامي بجميع أشكاله وتنظيماته القديمة والمستحدثة.

تأثر الحركة بوباء العنصرية

لقد حذر الإسلام من التعصب خارج الولاء للعقيدة والمبدأ، ورفض كل أنواع العصبية العنصرية أو الجهوية أو القبلية، ولا أحسب أننا بحاجة إلى الاستشهاد بنصوص القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة لتأكيد ذلك، فكل واع للقرآن وللحديث النبوي ومتابع للسيرة النبوية يدرك هذا المبدأ الذي تميز به الإسلام عن كل ما عرفته البشرية من مبادئ فكرية أو تنظيمية، إلا أنه من المؤسف أن كثيرا من المجتمعات الإسلامية عامة والعربية خاصة أصابها هذا الوباء وبخاصة بعد وقوع الأمة الإسلامية تحت التبعية السياسية للقوى الاستعمارية الأوروبية منذ

ضعف الخلافة العثمانية ثم زوالها ونشأة الكيانات الإقليمية الضيقة، ولم يكن المجتمع الأردني بمعزل عن هذه البلوى، وقويت هذه النزعة وأخذت أبعادا متعددة منها البعد القبلي والعشائري، ومنها البعد الجهوي، ويبدو أن بعض المتنفذين ساهموا في إذكاء هذه الأبعاد.

إننا نعلم أن مكونات المجتمع الأردني تشكلت بعد زوال دولة الخلافة من عناصر متعددة دخلت الكيان من مختلف المناطق المجاورة التي كانت كلها جزءا من دولة الخلافة مثل مصر وسوريا والعراق، أما فلسطين فقد كانت في ظل التقسيم الإداري لولاية الشام شاملة لضفتي نهر الأردن وتمتد من ساحل البحر الابيض المتوسط غرباً إلى بادية الشام شرقاً، لذا فقد كان السكان سواء غربي نهر الأردن أم شرقيه متمازجين ومتداخلين بشكل عفوي، فمثلا كانت مناطق شمال شرق النهر كإربد وعجلون مع شمال فلسطين مثل حيفا وما في جوارها، ووسطها أي منطقة البلقاء السلط وعمان ومادبا والزرقاء وما حولها مع وسط غرب النهر مثل نابلس والقدس وما حولها، ومنطقة جنوب فلسطين الخليل وغزة والنقب مع جنوب شرق الأردن الشاملة لمناطق الكرك والطفيلة ومعان والعقبة.

وبعد تنفيذ المؤامرة البريطانية عام 1948 وقيام الدولة اليهودية في ثلاثة أرباع فلسطين غربي نهر الأردن ونزوح مئات الالوف من سكان المناطق التي سيطر عليها اليهود كانت منطقة شرق الأردن أكبر مستقبل للهاربين من الاحتلال اليهودي على الرغم من أن الكيان الأردني هو أصغر كيان عربي مجاور لفلسطين، فقد كان عدد اللاجئين الفلسطينيين إلى شرق الأردن أضعاف ما استقبلته أقطار سوريا ولبنان ومصر والعراق من اللاجئين الفلسطينيين، أما اقطار الجزيرة العربية الشاسعة فلم تستقبل أحدا منهم.

لقد استقبل المواطنون في شرق الأردن أعدادا من اللاجئين قد يفوق عددهم سكان شرقي النهر، وشعروا أنهم إنما يستقبلون أرحاما لهم يرتبطون بهم بكل روابط القرابة والقربى.

لم تظهر آنذاك أي عصبية بين الطرفين وكان كلاهما يظن أن إقامة اللاجئين إنما هي مؤقتة ريثما تعاود جيوش العرب الكرة على اليهود وتطردهم من أرض فلسطين، واستمر الأمر كذلك إلى أن وقعت كارثة 1967 واحتلت دولة اليهود ما تبقى من فلسطين وهي الضفة الغربية التي كانت جزءا من الكيان السياسي الأردني، وعندما انتقلت حركة فتح من الخليج العربي لبدء كفاحها المسلح ضد اليهود لم تجد سوى الأردن لتتخذ منه قاعده للكفاح ضد الدولة اليهودية، والى هنا لم يعترض أحد من مواطني شرق الأردن ولا حتى من المسؤولين فيها ولا من قواتها المسلحة، وتحمّل الجميع التبعات المترتبة على كون منطقة شرق الأردن منطلقا لهذا الكفاح، إلا أن قيادات شتى من منظمات الكفاح الفلسطيني من فتح وغيرها من المنظمات بدأت تتعامل مع الواقع الأردني على أنه تحت سلطانها وتطالب باكثر من الاستضافة، وبدأ الاحتكاك بين النظام الأردني وحركات الكفاح الفلسطينية يأخذ طابع الاصطدام إلى أن وقعت الفاجعة في مواجهات مسلحة بين الطرفين عام 1970 وبخاصة في شهر أيلول.

التقيت قبل أحداث ايلول مع المرحوم ياسر عرفات ومعه عدد من قادة فتح، وقلت له أن تصريحات جورج حبش ونايف حواتمة قائدا منظمتين وجدتا في الأردن إلى جانب فتح أن هذه التصريحات في تهديد النظام الأردني لا تخدم الكفاح الفلسطيني وقد تقود إلى طرد جميع هذه المنظمات من الأردن فلا تسيروا في فتح على مسارهم، فاجابني رحمه الله هل تريد أن يسيطر جورج ونايف على القواعد الشعبية الفلسطينية إذن؟ ولا بد أن لا أسمح لهم بالمزاودة علي بل إن فتح سوف تكون صاحبة الكلمة الأولى سواء داخل فلسطين أو خارجها في شرق الأردن، وقلت له عندئذ إنكم ترتكبون جريمة انتحاركم إذا فعلتم ذلك فقال: إذا تعرض لنا

الحكم الأردني فإننا قادرون على تصفيتة في ثلاثة أيام فاجبته وأنا على يقين بما أعرف أن النظام الأردني إذا شاء فإنه سيصفيكم خلال ساعات فقط، وافترقنا وكل على رأيه، ووقعت الواقعة بعد ذلك بأقل من شهر وتمت تصفية جميع الحركات وساعدت وساطة الرئيس السوداني على إنقاذ ياسر عرفات وترحيله.

منذ ما عرف بأيلول الاسود، بدأت حالة من التوتر بين ما هو فلسطيني منضو تحت إحدى المنظمات وبين النظام الأردني، وزاد الطين بلة القرارات العربية بعد ذلك التي أدت إلى تخلي الأردن عن مسؤوليتها تجاه الضفة الغربية ومبايعة الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات شبه ملك أو رئيس دولة على فلسطين، وأن منظمة التحرير التي يرأسها هي المسؤولة عن قيادة الشعب الفلسطيني لتحرير فلسطين أو جزء يسير منها لإقامة الدولة الفلسطينية ورئيسها ياسر عرفات.

إن هذه الأحداث المتلاحقة عمقت الهوة بين سكان المملكة الأردنية إلى فريقين متقابلين بعد أن كانوا جميعا مواطنين متحدين، ويبدو أن قوى داخلية وأخرى خارجية ساهمت في تعميق الهوة بين الطرفين ونقلها إلى معظم مكونات المجتمع الأردني ومنه الحركة الإسلامية، وبرزت قيادات تمثل هذا الاتجاه أو ذاك والتف وراء كل منها من يميل إلى أحد الاتجاهين، وأصاب الحركة الإسلامية ما أصاب المجتمع وكياناته المختلفة من هذه الآفة الملعونة.

الحركة تنقسم

لا أحسب أي دارس ومتتبع لحركة جماعة الاخوان في الأردن يستطيع أن يحدد سببا واحدا للانقسام الذي عانت منه الحركة في بداية الأمر وكأنه مدارس اجتهادية تارة حول علاقة الجماعة بالدولة وتارة حول علاقة الجماعة بحركة الكفاح الفلسطيني وتارة في بعض الأمور التنظيمية أو القناعة بشخصيات قيادية في الجماعة، إلا أن هذه الخلافات الناعمة تطورت خلال السنوات العشر الاخيرة إلى انقسامات عميقة اصبح لكل منها كيان حركي مستقل، وأفرزت هذه الانقسامات عناوين وأسماء جديدة وارتباطات خاصة لكل منها بجهة من الجهات في الداخل أو في الخارج، ويكيل بعضها لبعض ألوانا من الصفات وأحيانا الاتهامات التي تخرج فريقا إخراجا تاما من الانتساب للعمل الإسلامي، وقد لا يقف هذا الانقسام عند حد أو عدد معين.

وقد دفع هذا الوضع الانقسامي عددا لا بأس به ممن يعدون من قدماء القادة الذين كان لهم مواقع مؤثرة ولفترات طويلة دفعهم إما إلى تجميد نشاطهم بشكل كلي أو الاعلان عن انسحابهم، وأدناهم من وقف على الحياد محاولا رأب الصدع، وعندما عجزوا انضموا لفريق المنسحبين الرافضين لكل ما هو قائم، مع أن بعضهم لا يزال يشارك في المناسبات مثل سائر المتعاطفين مع الجماعة من خارجها.

إن بعض الدارسين والمراقبين لأحوال الجماعة بدأوا يعلنون صراحة أو ضمنا أن هذا الوضع مؤذن بانحلال الجماعة، وأنها بجميع انقساماتها ستكون قريبا من تاريخ مضى وانقضى وليس له عندئذ وجود في الحياة السياسية من ناحية ولا في العمل الإسلامي في أي جانب من جوانبه.

انني اسأل الله عز وجل أن لا تصل حركة الاخوان إلى هذا المصير وأن يهيء لها الله سبحانه من يحفظ كيانها ويجدد فعاليتها وتأثيرها في الحياة العامة فإنها

تجربة لا يمكن أن ينكر فضلها لا على ميادين العمل العام ولا على محافظة آلاف من أبناء الوطن على استقامتهم على أمر دينهم والصمود في مواجهة الهجمات المعادية للإسلام من أكثر من جهة.

اوضاع جماعة الاخوان في الأقطار الأخرى

لا تستطيع هذه المحاولة الإحاطة بمواقع الجماعة في مختلف الأقطار ولكني أرى أنه من المفيد الإشارة إلى بعض ما يحدد المعالم الرئيسة لها، ويمكن تحديد بعض المسارات الهامة فيما يلي:

1- لا يمكن لاي دارس لحركة الاخوان عدم الاشادة بدورها في تنشيط العمل الإسلامي في أكثر من ميدان كان قد أهمل أو جمد في عهد الدول الإقليمية، وأهمها الميدان السياسي ونشر الوعي بين جماهير الأمة لضرورة إحداث التغيير، وانفتاح أعداد من المفكرين وقادة العمل الإسلامي على بعضهم وعلى قُطر غير القطر الذي ينتمي إليه أحدهم، لقد حاول الاخوان التركيز على مبدأ وحدة العمل الإسلامي تحت مظلتهم بما أسموه القيادة الدولية للحركة، إلا أن المتتبع لهذا الأمر يرى أن المحاولة بقيت دون المستوى المأمول منها.

2- عبر بحث كل جماعة عن مصادر لتقوية الحركة في قطرها وقعت الجماعة بمنزلق التعاون أو كما سماه بعضهم التنسيق مع قوى أخرى في منطقة الجماعة دون أن يمحصوا هذه القوى المحلية أو التثبت من عدم ارتباطها بمصادر مشبوهة أو عدم صلاحية قادة هذه القوى سواء من الناحية العملية أو سيطرة أطماع شخصية مما أساء لسمعة الحركة، ولعل الجماعة في كل من مصر والعراق وسوريا وإلى حد ما الأردن قد انزلقت في هذا المنزلق الخطير، ولا داعي لذكر أسماء ونظم، فالمتبحر في معرفة الجماعة في هذه الأقطار يمكنه تبينها.

3- من السلبيات القيادية والإدارية التي تفشت في الحركة بمختلف مواقعها، فشلها في تقييم العناصر التي يمكن الاعتماد عليها وقبولها، بصرف النظر عن انضمامها للتنظيم، أو بطبيعة علاقة هذه العناصر بالقيادات القائمة لمثل هذه العناصر على أسس شبيهة بالعشائرية أو الأسرية، مما حرم الجماعة من كثير من العناصر الإسلامية لانها لم تسلم بالولاء للقادة الذين ثمة شك في قدراتهم وحياديتهم في الحكم على العلاقة مع هذه العناصر، وقد عانيت شخصيا من هذا الوضع في الأردن وفي أقطار أخرى بناء على موقفي من بعض هذه القيادات التي ثبت فيما بعد صحة موقفي وفق المقاييس الحركية الصحيحة.

4- تردد حركة الاخوان في معظم المناطق التي وجدت فيها عن أخذ زمام المبادرة، والتصرف ازاء الأحداث من منطلق الإستقلال عن القوى الأخرى، وانتظار الغير باخذ زمام المبادرة وفرض سيطرتها، على الرغم من أن الاخوان كانوا أقوى منهم وأقدر على فرض وجودهم وقيادة عملية التغيير، مما أدى في كل هذه الاحوال إلى تراجع الحركة الإسلامية ونهوض جماعات أو تنظيمات أخرى أظهرت القبول المبدئي لحركة الاخوان وبعد أن تمكنت انقلبت ولم تكتف بالبعد عنهم بل عملت على ضربهم ومحاولة القضاء عليهم، لقد تكررت هذه التجربة التي أثبتت عجز حركة الاخوان عن استثمار الاحداث والأوضاع المتغيرة وبقيت على هامشها أو تحت أقدامها.

ولا شك أن التجربتين في مصر في عهد عبد الناصر ثم في ما بعد انتخاب الدكتور محمد مرسي تعد مثالا لهذا الفشل الذريع، وتتكرر نفس التجربة في العراق التي كان الاخوان قادرين على قيادة التغيير فيها ولهم اضعاف ما كان لحزب البعث، الا أن ترددهم وخوفهم من المغامرة أسقطهم ورفع سواهم، وكذلك الأمر في اليمن وقد يكون ثمة نماذج أخرى تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتمحيص.

حزب التحرير

في أوائل خمسينات القرن العشرين بدأت بعض عناصر من المنتسبين والمؤيدين للإخوان المسلمين يعبرون عن عدم رضاهم عن مسيرة الحركة من ناحيتين اولاهما؛ عدم كفاية التثقيف في الحركة وبخاصة في ما يتصل بالسياسة وأصول الحكم حيث أن التركيز كان على الجوانب التعبدية والسلوكية على الرغم من أن التراث الإسلامي الفقهي والتاريخي كان غنيا بالجوانب العقدية والاجتماعية الشاملة لنظام الحكم والسياسة والاقتصاد، وأن ضَعف هذه الجوانب في فقه وثقافة حركة الاخوان يؤدي إلى عجز الحركة عن التوجيه الفعال والمؤثر الذي يبوىء الحركة موقع القيادة المجتمعية في إحداث التغيير المنشود الذي يؤدي إلى إقامة النظام الإسلامي في الحكم والتشريع وسائر جوانب الحياة.

أما الناحية الثانية في نقدهم للحركة هو أن قياداتها عموما سطحية في فهمها للفكر الإسلامي بالعمق الذي يجعلها قادرة على القيادة الفكرية للحركة بالاضافة إلى قيادتها التنظيمية، وان المفاهيم السائدة في فكر هذه القيادات يجعلها اقرب إلى التبعية للقيادات السياسية القائمة فعلا، وان عددا من المسؤولين القياديين في الحركة يتطلعون إلى الوصول إلى المناصب العليا في الحكومة متخذين من مواقعهم في حركة الاخوان سلما للتسلق إلى المناصب التي يتطلعون اليها في الحكومة، لقد كان القاضي الشرعي الشيخ تقي الدين النبهاني من أكثر عناصر الاخوان في تلك الفترة التي تطالب بالتغيير الشامل في الحركة في ضوء ادراكهم لأسباب ضعف الحركة الذي آلت اليه.

لقد تأكد للشيخ النبهاني أن تغيير مسار حركة الاخوان وفقا لتصوره غير ممكن، وأن عجز حركة الاخوان عن الارتقاء في مفهومها لإحداث التغيير ليس بسبب وضعها في الأردن فحسب وإنما سبب ذلك أن الحركة تحتاج إلى إحداث تغيير شمولي فيها في موقعها الأساسي في مصر، إذ أن فروعها خارج مصر انما هي

تابعة وليست قادرة على احداث التغيير في المفاهيم السائدة فيها بمعزل عن المركز في مصر، وبدأ يوجه النقد اللاذع في مجالسه لكل مسيرة الحركة ؛ من أنها لم تستطع الوصول خلال ما يزيد على ربع قرن إلى تحقيق التغيير، وأن ذلك دليل على عدم صلاحية الحركة لقيادة الأمة، وأنه لا بد من قيام تنظيم مستقل عنها يكون قادرا على تقديم التصور الصحيح لحركة إسلامية قائمة على مفاهيم إسلامية قادرة على إحداث التغيير الاجتماعي والسياسي على منهج الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي استطاع في اقل من خمسة عشر عاما إقامة الدولة الإسلامية في المدينة.

اجتهادات حزب التحرير في تفسير النصوص من القرآن والسنة

إن المشكلة لدى كثير من المفكرين الإسلاميين المعاصرين تكمن في طريقة تطبيق النصوص الإسلامية على الواقع، ويرى كثير منهم أنه يكفي لإثبات منهجه الإتيان بنص من القرآن أو السنة، ويحمله على منهجه وطريقته حسب ظاهر النص.

أعتقد انه ينبغى لنا أن نفرق في فهمنا للنصوص بين نوعين :

الاول: النصوص الخاصة بالأوامر والنواهي التي تشمل مستويات الأوامر والنواهي وهي: الفرض، المندوب، المكروه والمحرم، وقد زاد فقهاء المذهب الحنفي مرحلة ثالثة في الأوامر بين الفرض والمندوب وهو الواجب فأصبحت السلسلة في المذهب من خمسة مراتب ثلاثة في الأمر واثنتان في النهي، وقد فصل الفقهاء بمختلف مذاهبهم تعريفات وتفريقات لكل من الأوامر والنواهي يمكن للمتتبع الرجوع اليها.

الثاني: النصوص الخاصة بالحركة الزمنية للرسول صلى الله عليه وسلم والمعروفة باسم السيرة النبوية الشاملة للمرحلتين الرئيستين لتاريخه صلى الله عليه

وسلم؛ مرحلة العهد المكي، التي امتدت لثلاث عشرة سنة من مبدأ بعثته إلى سنة هجرته إلى المدينة، والمرحلة الثانية التي امتدت لعشر سنوات من هجرته إلى وفاته عليه الصلاة والسلام.

إن النصوص الخاصة بالأوامر والنواهي لا تقبل الاجتهاد من حيث وجوب التطبيق سواءا في الأوامر أو النواهي، وتبين الآية الكريمة حتمية التطبيق في قوله تعالى: "وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا" (الحشر،الآية 7) والامثلة على ذلك واضحة في فقهنا للإسلام مثل فروض الصلاة والزكاة والحج التي تشمل كل منها أوامر فرض وأوامر ندب ومثل المحرمات مثل قتل النفس وهتك العرض وشرب الخمر وغيرها من المحرمات القطعية والمنهيات بمستوى أقل من التحريم وهي المكروهات.

أما النصوص من النوع الثاني التي تسجل السيرة النبوية في المرحلتين وما جابه الرسول صلى الله عليه وسلم من العقبات وما حققه من الإنجازات فانها تمثل الأنموذج النبوي في التعامل مع الأحداث واجتهاده عليه الصلاة والسلام ازاء تلك الأحداث والحلول التي وضعها لمعالجة كل ما واجهه سواء في المواقف السلبية كالهزائم والاخطاء التي تواجه حركته مع الجماعة، أو في المواقف الايجابية كالانتصارات العسكرية ونحوها.

إن علاقة المجتمعات الإسلامية مع الأحداث التي تتناولها السيرة تدخل في مفهوم القدوة عملا بقوله عز وجل: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة (الأحزاب 21)، والاقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام في الأوامر والنواهي إنما هي مسألة فردية كل مسلم يتعامل معها حسب أحواله وقدراته مثل صلوات النوافل وصيام التطوع ونحو ذلك، أما في المسائل العامة التي تشمل الجماعة الإسلامية سواء في مكة حيث لم يكن للإسلام دولة ولا سلطة تنفيذية، أو في المدينة حيث أصبح للإسلام دولة ومارس الرسول صلى الله عليه وسلم مهمة رئيس الدولة والقائد الأعلى للمجاهدين؛ أي للقوات المسلحة آنذاك.

إن المجتمعات الإسلامية مدعوة إلى الاجتهاد في فهم السلوك النبوي في هذه المسائل ووضع الحلول للمشاكل التي تجابه المجتمعات بعد عصر النبوة بما يتفق مع المصالح العامة للمجتمع بشرط أن لا تخالف نصوص الأوامر والنواهي وليست ملزمة بنفس الحلول التي طبقت في عهد النبوة، لاحتمال الاختلاف في طبيعة المشاكل من ناحية، وفي إختيار الحلول حسب الإمكانات المتاحة من ناحية أخرى.

الحلول المقترحة

إن التتبع لأدبيات حزب التحرير يظهر أن الحزب قد حمل منهجه الحركي على الأخذ بأحداث السيرة على نفس مستوى الأوامر والنواهي في محاولة لإضفاء صفة الشرعية على اجتهادات قيادات الحزب في الموضوع الرئيس الذي تبناه الحزب؛ وهو إقامة الدولة الإسلامية والخلافة الإسلامية.

وسوف أكتفي في مناقشة فهم حزب التحرير لفهم النصوص بموضوعين رئيسين في أدبيات الحزب؛

الأول: موضوع إقامة الخلافة الإسلامية

يقول الحزب: إن كل قطر من أقطار العالم الإسلامي أهل لان يبايع خليفة، وتنعقد به الخلافة، فاذا بايع قطر من الأقطار الإسلامية خليفة فإنه يصبح فرضا على المسلمين أن يبايعوه بيعة طاعة أي بيعة انقياد بعد أن انعقدت الخلافة له ببيعة أهل قطره سواء أكان هذا القطر كبيرا كمصر أو تركيا أو اندونيسيا، أم صغيرا كالأردن أو ألبانيا أو لبنان (الخلافة ص 17–18)، وقد بالغ الحزب في امكانية تنصيب الخليفة لعدد قليل "لا يشترط عدد معين فيمن يقومون بتنصيب الخليفة، بل أي عدد بايع الخليفة، وتحقق في هذه البيعة رضا المسلمين بسكوتهم

أو بإقبالهم على طاعته بناء على بيعته أو بأي شيء يدل على رضاهم، يكون الخليفة المنصوب خليفة على المسلمين جميعا، ويكون هو الخليفة شرعا ولو قام بنصبه خمسة أشخاص(الخلافة ص 44). لقد استند حزب التحرير في شرعنة هذا الفهم ببيعة أبى بكر، إذ اكتفى بأهل الحل والعقد من المسلمين الذين كانوا في المدينة وحدها، ولم يؤخذ رأي المسلمين في مكة وفي سائر جزيرة العرب، وكذلك في بيعة عمر.

لقد أغفل هذا الاستنباط عدة أمور تجعله بعيدا عن الصواب ومصلحة الأمة وفهم واقع مجتمع المدينة آنذاك، وبعيدا كذلك عن فهم واقع المجتمعات المعاصرة، وأبرز هذه الامور:

ا- أن مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان المجتمع القيادي لكل المسلمين آنذاك، وبوجود كبار الصحابة في المدينة مع امتلاكهم لإمكانية السيطرة والقدرة على منع أي انحراف عن طريق الشرع ومنهج النبوة الذي كانوا من عمدته مع رسول الله في إقامة وإدامة التزام هذا المجتمع بالإسلام من جميع جوانب الحياة.

ب- إن المواقع الإسلامية في الجزيرة العربية كانت تقر أصلا بالقيادة القائمة في المدينة وتلتزم بقرارتها، لا سيما وأنه لم يمض على دخولها في الإسلام سوى سنتين مثل مكة وغيرها من المناطق، وكانت إمكانية التمرد على قرارات المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ضئيلة أو منعدمة، وكانت فترة خلافة أبي بكر امتدادا لها، ومع ذلك فقد حصل تمرد المرتدين الذي اتخذ طابعا دينيا اكثر منه إداري أو سياسي، وأن هذا الارتداد الديني إنما بدأت بوادره في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يكن لعدم اشتراكهم في بيعة أبي بكر أي تأثير في ردتهم وتمردهم.

ج- إن امتداد الرقعة الإسلامية في عهد الرسول شملت كل ارجاء الجزيرة العربية وبعض الأطراف خارجها في العراق والشام وكان من المستحيل ضمن الامكانات

المتاحة للاتصال بهذه الرقعة الواسعة من أرض الإسلام تأجيل قرار خطير كاختيار المسؤول الأول في الدولة، مما يعرض الأمة لمخاطر التفكك والانقسام وغياب السلطة المسؤولة عن حمل مسؤولية الأمن داخل حدود الوطن الإسلامي، وعن حمل راية الجهاد في الدفاع عنها، ثم عن حمل الدعوة خارجها، إن هذا الوضع لا يسمح للواقع الحاضر الذي عرف وسائل في الاتصال الفوري لم يكن يخطر على بال أحد أن يقاس على واقع المجتمع الإسلامي قبل خمسة عشر قرنا بأي شكل وعلى أي مستوى يقره العقل والمنطق.

إن اعتماد هذا الاسلوب في اعتماد أعلى رأس في السلطة لو اقر فقد يؤدي إلى اختيار اسوأ ما في المجتمع في زمن تعددت فيه أساليب الخداع والتظاهر، والأدهى من ذلك قد يرفع إلى هذا المنصب الخطير عميلا لأي من أعداء الإسلام الذين يتمكنون، وقد فعلوا من خلال زراعة عناصر خاصة بهم بسنين وسنين حتى إذا نضج ما زرعوا تسلم زرعهم الموقع المعد له ووقعت الأمة تحت رحمة عدوها، وقد شهد تاريخ العرب والمسلمين المعاصر نماذج من هؤلاء المزروعين وحسبنا أمثلة صارخة أتاتورك في تركيا وبعض قادة الإنقلابات العسكرية في الوطن العربي.

إنه كلما اتسعت قاعدة الاختيار بين أبناء الأمة كلما كان ذلك أدعى إلى اختيار الأمثل، فإن الأمة لا تجتمع على ضلال في الأغلب. إن توسيع قاعدة الاختيار يجنب النظام من الوقوع في حمأة النظم الفردية ودكتاتورية الفرد أو الفئة، سواء أكانت مجموعة العسكريين أو العشيرة أو الاسرة أو الجهة، صحيح أن توسيع القاعدة يقرب النظام مما هو أصبح منهجا عالميا في الاختيار ولا يعيبه مصطلح الديمقراطية الذى رفضه الحزب برؤية سيئاته وهي موجودة وتجاهل بعض حسناته وهي حرية الاختيار مع اتساع قاعدته، إن اتساع قاعدة الاختيار يبرئ الإسلام من تهمة الاعتماد على أي مستوى من حكم الفرد أو دكتاتورية النظام.

الثاني: موضوع طلب النصرة

كان منهج حزب التحرير في إحداث التغيير والانتقال من الواقع المخالف للإسلام إلى نظام الدولة والخلافة الإسلامية صريحا في إقرار مبدأ طلب النصرة: (قام الحزب بإضافة طلب النصرة إلى الأعمال التي يقوم بها، وأخذ يطلبها من القادرين عليها وقد طلبها لغرضين: طلب الحماية، والإيصال إلى الحكم (منهج حزب التحرير في التغيير ص 49).

لقد استشهد الحزب في تبنى هذا المبدأ بسيرة الرسول عليه السلام في المرحلة المكية عندما عرض نفسه على القبائل، وكانت على الكفر والشرك ليساعدوه على إبلاغ دعوته، كما عدوا أن بيعة العقبه مع وفد المدينة وهو في مكة من هذا القبيل، ولذلك فقد توسع حزب التحرير في جواز طلب النصرة من مصدر يتميز بالقوة والاستعداد لنصر الحزب ولو كان هذا المصدر على غير دين الإسلام أو منتم للإسلام عقيدة ولو كان غير ملتزم التزاما كاملا بالاسلام.

إن تبنى الحزب لهذا المبدأ العجيب يمكن أن ينتج عنه دخول الحزب في حماية ووصاية الناصر لهم وقد يؤدي في النهاية إلى أن يصبح الحزب الإسلامي سواء حقق هدف النصرة باقامة الدولة والخلافة في أي موقع مهما صغر وتحت رعاية ونصرة كيان قوي قادر مهما كان انتماؤه قد يؤدي إلى أن يصبح الحزب ودولته وخلافته ألعوبة في يد قوى لا يعلم الا الله حقيقتها واهدافها البعيدة، في ظل تعقيدات العلاقات الدولية الراهنة وأساليب خداعها وقدراتها الاستخبارية والتقنية.

إن تجربة طلب النصرة قد وقعت في حبائله حركة الإخوان المسلمين في اكثر من موقع وجدت فيه الحركة، وحسبنا أن نشير إلى تجربة حركة الاخوان في مصر التي وقعت في خديعة الالتجاء إلى قوى لم تدرسها حركة الاخوان وذاقت منها أسوأ النتائج وأخطرها على الحركة وعلى كثير من أفرادها، لقد كانت أولى التجارب في العهد الملكي عندما وضع الاخوان يدهم في يد الأحزاب القومية المصرية من ناحية وتأملوا في الملك وهتفوا له فكانت النتيجة مقتل المرشد حسن

البنا وزج عدد منهم في السجون، والمرة الثانية في تعاونهم مع قائد الانقلاب عبد الناصر عام 1952 وتأييدهم له وأمانيهم في توصيلهم إلى أهدافهم، وانتهت التجربه بمقتل عدد من قادتهم سنة 1954 على رأسهم عبد القادر عودة وزج الآلاف منهم في السجون ثم استشهاد المرحوم سيد قطب مع المزيد من زج الآلاف من الاخوان في السجون، ومع وضوح هاتين التجربتين فان الحركة لم تع الدرس واطمأنت قيادتهم إلى قادة الجيش ولم يعمد رئيسهم المنتخب إلى تمحيص عناصر الجيش الذين خدعوا حركة الاخوان وتظاهروا في الولاء لهم ثم انقلبوا عليهم وقتلوا منهم الالاف وسجنوا عشرات الآلاف وحكموا بالاعدام على المئات ولا يعلم احد متى تتنهي فتنتهم.

وقد وقعت حركة الاخوان في غير مصر في نفس هذه الورطة في العراق وسوريا و الأردن وغيرها من الأقطار وما جنت الحركة من ذلك إلا سوء السمعة وسوء العاقبة. فهل ينجح حزب التحرير فيما فشلت فيه حركات اسلامية أعرق منه وأقدم تجربة وأقدر على معرفة العناصر التي تطلب نصرتها وتمحيصها.

مقارنة بين مفاهيم الحركات الإسلامية وبين عصر النبوة

إتماما لما ذكرته عن اجتهادات حزب التحرير في مقارنتهم الأوضاع الحالية للمسلمين مع عصر النبوة أو أي عصر عبر التاريخ الإسلامي، فقد رأيت أن أوضح هذا الأمر بمزيد من التحليل، ذلك أن عددا من الإسلاميين الذين يوصفون بالعلم ممن يتولون مواقع قيادية في الحركات الإسلامية، يضفون على مناهجهم الحركية صفة الفرضية والوجوب الحتمي لمناهجهم على قاعدة تطبيق النصوص الإسلامية على نفس المنهج الفقهي في الأوامر والنواهي مثل العبادات، وأعتقد أن هذا خطأ في فهم النص من القرآن والسنة من ناحية، وخطأ في إيقاع النص على الأحوال الحاضرة للمجتمعات المعاصرة.

لا بد أن يكون من الاهداف الرئيسة لأي حراك اسلامي معاصر هو إقامة مشروع نهضوي على أساس المباديء الإسلامية، وقد تبدو ظروف الدعوة الإسلامية في عهد النبوة مشابهة، إلا أن وجود بعض أوجه التشابه لا يعنى خضوع الحالين لنفس الأوضاع أو إمكانية تطبيق نفس المباديء إذ يمكن أن لا يؤدي تطبيق نفس المباديء إلى تحقيق نفس النتائج.

إن أي مشروع حركي إسلامي لتحقيق نهضته للمجتمع المسلم لا يحتاج إلى تبرير، وإن صلاحية أي مشروع حركي لا تقوم على التبرير الفقهى الذي يبالغ أصحاب المشروع في حشد النصوص لصحة مشروعهم، إذ أن أي مشروع للنهضة بالأمة لا تنبع صلاحيته من مثل هذه التبريرات، وإنما من قدرة المشروع على تلبية احتياجات الناس في إطار الزمان والمكان، ولا شك أن الإسلام قادر على ذلك في إطار مبادئه الأساسية العامة.

إن أي عمل إسلامي لا بد له من فهم التراث سواء أكان فقها ام كان تاريخا، حتى لا يقع العمل في ما يتناقض أو يتعارض مع الفقه الصحيح للدين، كما يحتاج إلى استلهام التراث التاريخي حتى لا يقع في أخطاء مماثلة لأخطاء وقعت بها حركات

إسلامية عبر التاريخ، الا أن هذا الاستلهام في كلتا الحالتين لا ينبغى أن يكون عاملا للجمود وفق قوالب من الماضي مع تجاهل الانفتاح على فقه الحاضر في ضوء المعطيات المعاصرة، وأن لا يكون للتراث أي قداسة أو حتمية الالتزام به، وإنما القداسة والالتزام لنصوص القرآن والسنة فقط التي لا مجال لإغفالها، أما نصوص الأديان الأخرى سواء أمرا أو نهيا أو تاريخا فلا يجوز أن تعتمد كمرجعية، وحسبنا احترامها كثرات تاريخي يعبر عن الامتداد التاريخي للنبوات السابقة والتقائها بالاسلام المهيمن والمرجع.

لقد توجهت بعض الحركات الإسلامية إلى اعتماد مراحل معينة من التاريخ الإسلامي، وبخاصة فترة الدولة الإسلامية القوية، كمرجعية تبالغ في التمسك بها أو ببعضها، ويحاول قادة هذه الحركات حمل جمهور الأمة على مثل هذه المرجعية دون السماح لجمهور الحركة باتخاذ القرار الملائم تجاهها، وقد أدى هذا السلوك إلى جمود الحركة على قوالب مسبقة الصنع، وتخطئة كل مخالف لها تكاد تخرجه من حظيرة الشرع، وكثيرا ما نجم عن ذلك تكفير جماعات إسلامية لجماعات إسلامية أخرى، ولعله من المفيد في هذا المجال أن نستذكر حركات الخوارج في الماضي وحركات أخرى مماثلة في التاريخ المعاصر، وكلاهما ضرب اسوأ الامثال في التصلب والتعصب وأفضى إلى سفك الدماء بين الجماعات الإسلامية.

لكل ما سبق يجب أن يكون لكل حركة بل لكل دولة تنتمي للإسلام بالاضافة لالتزامها بما هو أساسي في الشريعة مرجعية قائمة على الشورى وقرار الأغلبية وأن لا يضفى على هذه المرجعية صفة القداسة حتى لا يتحول العمل الإسلامي إلى مايشبه البابوية التي تخلى عنها أصحابها.

قبول الآخر

إن من أسوأ ما وقعت به بعض الحركات الإسلامية ادعاؤها أنها حركات إيمانية، وقد أدى هذا إلى سقوط قاتل من ناحيتين؛ الأولى: وصم أي تحرك إسلامى آخر بالبعد عن الإيمان أي بالكفر المبيح لكل ما لا يمكن إقراره بالعلاقة بين الاتجاهين، والثانية: إخراج كل الأقليات غير الإسلامية أو الدول غير الإسلامية من دائرة القبول وبالتالي تعميق الهوة بين الحركة الإسلامية وغير المسلمين في الداخل والخارج مما أدى إلى انتشار المزيد من العداء للإسلام كدين وبخاصة بين الدول و الشعوب التي كان بينها وبين المجتمعات الإسلامية في الماضي صراعات وحروب، وقد وجدت هذه الدول الفرصة إلى نشر المزيد من التعصب والكراهية للإسلام والعمل أحيانا على اجتثاث الإسلام مما لها به صلة، وقد مالت كثير من الدول العربية الواقعة تحت نفوذ الدول الاستعمارية التي كونت هذه الدول إلى التقائهم جميعا في محاربة الحركات الإسلامية بل محاربة الإسلام على أنهما مصادر للإرهاب والقضاء على حرية الشعوب وعلى الأقليات غير الإسلامية لذلك التقى الجميع على محاربه أي محاولة لنهوض الإسلام السياسي.

لقد تبين لنا فيما سبق أن ما استعرضته من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في قبول غير المسلمين والمنافقين مواطنين في الدولة، واحترام جميع أئمة الفقه الإسلامي لبعضهم على الرغم من كثير من مواقع الخلاف فيما بينهم ، وكيف أن جميع المناطق الإسلامية كان في كل منها مذاهب شتى لم يكن بينها أي نوع من رفض بعضها لبعض، إن قبول الآخر أصل ثابت في الأمة الإسلامية.

وحدة الأمة هي الاساس

نلاحظ أن كثيرا من الحركات والتنظيمات والدول الإسلامية أو غير الإسلامية تضع وحدة الحركة أو التنظيم أو الدولة في المقام الأول وتعد ذلك بمثابة وحدة الأمة، إلا أن الإسلام حدد مفهوما للأمة سواءا من الناحية الشرعية أم من الناحية التاريخية ابتداء من تكون الأمة ونشأتها في عهد الرسول وامتداداً عبر التاريخ الإسلامي، وعلى الرغم من قيام دول متعددة منذ العصر العباسي وما بعده فإن مفهوم الأمة لدى المسلمين بقي المفهوم السائد حتى عند وجود خلافات بل قيام صراعات مسلحة بين الدول التي نشأت بعد عصر النبوة ابتداء من قيام الدولة في الاندلس منفصلة عن جسم الدولة العباسية وحتى عبر فترات التفكك والانقسام فيما بعد، واستمر هذا المفهوم هو السائد في كافة أرجاء العالم الإسلامي، وبقيت الشعوب تتمتع بثمار وحدة الأمة الإسلامية وانفتاح مختلف شعوبها على بعضها البعض متمثلا ذلك بحرية انتقال الأشخاص والأموال وحرية التجارة والإقامة أينما استقر المقام في المنتمي لهذه الأمة في أي صقع من أصقاعها وعدم ارتباط ذلك بالحكومات، ولم يؤثر تعدد الحكومات والدول على الشخصية الإسلامية وسيادة الثقافة الإسلامية القادرة على استيعاب الثقافات الخاصة دون التأثير على الانتماء والتمسك بالثقافة الإسلامية والانتماء للأمة الإسلامية، وبقي ذلك إلى أن تقسمت الأمة بعد زوال الخلافة العثمانية وقيام الدول المحلية التي يمكن أن تعد من مخلفات العهد الاستعماري، حيث فرضت هذه الدول لكل منها جنسيتها الخاصة ورسمت الحدود بين بعضها بعد أن كانت منفتحة على بعضها، وبدأ مفهوم الأمة لدى هذه الدويلات يصغر ويتقزم، وتقطعت الصلات بين بعضها البعض ولم تكتف هذه الدول بمنع رعايا بعضها من الإقامة فيها بل وضعت أشد القيود على حرية الحركة والزيارة بينها على الرغم من أن كثيرا من العشائر والأسر تفرقت بين هذه الدول ولم يعد بمقدور الشخص أحيانا زيارة أخيه أو ابن أخيه أو ابن عمه أو

أهل زوجه في ظل الفواصل الحديدية القائمة في ما بينها، إن هذا الواقع يجعل تحقيق أي نهضة إسلامية أو حتى وطنية قومية من المستحيلات، إذ لا تملك معظم هذه الدول لا سُكانيا ولا جغرافيا ولا اقتصاديا إقامة كيان يفرض احترامه بين الدول ويتحرر من نفوذ القوى الاستعمارية التقليدية.

مناهج الحركات بين القطعية والتبدل

تؤكد بعض الحركات الإسلامية على اختلاف اسمائها على حتمية المنهج الذي وضعه مؤسسوها أو بعضهم في فترة تكوّن تلك الجماعات، ونجم عن هذا التصور تخطئة كل محاولات التغيير وفق منهج غير منهجهم، وقد أدى ذلك إلى نوع من الجمود الذي يخالف منهج أئمة المذاهب والمنظرين الإسلاميين عبر التاريخ من خلال مراجعاتهم الدائمة في ضوء المتغيرات التي لا يمكن إيقافها في أي مجتمع، مما ترك لنا ثروات غنية هائلة من اجتهادات علماء الإسلام دون أن يعيب متأخرهم على من قبله، بل إن مبدأ الانفتاح على التغيرات دفع بعض أئمة الفقه إلى تغيير اجتهادهم تبعا لتغير الموقع أو الزمن كما حدث مع الإمام الشافعي الذي قسم الدارسون فقهه إلى مرحلتين في اجتهاده واطلقوا عليه القديم، وهو ما نجم عن اجتهاده فترة إقامته في الحجاز ثم في العراق، والجديد وهو ما كان ثمرة انتقاله إلى مصر.

إننا لا نستطيع في أي حال أن نجعل من أي من قادة العلم أو الحركات أنبياء معصومين، بل كل الحركات ومشاريع النهضة والتغيير عبر العالم لم تنفك عن تغيير مناهجها وأساليب عملها، ولعل تجربة الحكم الشيوعي في روسيا أكبر شاهد على ذلك إذ أنه حتى بعد انتصار الثورة الشيوعية في روسيا لم تستطع الدولة أن تحقق تطلعات ونظريات كبار منظريها أمثال كارل ماركس وإنجلز، بل إن التجربة

الشيوعية لم تستطع خلال عمرها كله الذي امتد قرابة سبعين سنة أن تحقق تطبيق نظرياتهم وزالت الشيوعية نهائيا قبل ذلك.

ميادين العمل الإسلامي

ذهب عدد من قادة العمل الإسلامي إلى الالتزام بالنشاط الذي اختاروه لحركتهم وتخطئة أو الاستهانة بما سواه، ويتضح ذلك في النظر بأدبيات حزب التحرير مثلا حيث رفض ممارسة أي نشاط إسلامي سوى السياسي وكذلك الصوفية في التمسك بالجانب السلوكي والتعبدي، والسلفية التي تجمدت على فهم ظواهر النصوص سواء في العقيده أو العبادة أو الأحوال الاجتماعية ونحوها، إن هذا الانجماد قد يؤدي – وقد أدى فعلا – إلى عدم استفادة كثير من هذه التنظيمات من سعة ميادين العمل وتشعباتها وشموليتها، لقد أخذ عدد من قادة العمل الإسلامي موقفا سلبيا من بعض الأنشطة بل عدوا مثل هذا التوجه عائقا دون تحقيق التغيير الكلى المؤدي إلى استعادة الخلافة والدولة الإسلامية.

يجب أن نعي أن قيام مؤسسات إسلامية في مجالات الحياة المتعددة كإقامة المستشفيات والمدارس والبنوك وغيرها إنما هو تعبير عن شوق المسلمين إلى ممارسة الحياة الإسلامية في ظل العجز عن إقامة النظام الإسلامي الشامل، إن نجاح مثل هذه المؤسسات دليل على قدرة المبادئ الإسلامية على التعامل والتفاعل مع متغيرات الحياة على الرغم أنه من الخطأ أيضا اعتبار أنها يمكن أن تكون بديلا عن التغيير الشمولي، وان انتشار الإسلام في كثير من المناطق التي تحكمها نظم مختلفة منها رأسمالية أو اشتراكية أو غيرها، وممارسة الأقليات الإسلامية في ظل تلك النظم إقامة مؤسسات تلتزم إلى حد ما بالمبادئ الإسلامية يحول دون انعزال التجمعات الإسلامية وانطوائها على نفسها، وإن ممارسة الجماعات الإسلامية نشاطها في مجالات محددة ممكنة في تلك المواقع تقيم

الدليل على أن الجماعات الإسلامية قادرة على الانفتاح تحت مختلف الظروف المحيطة بها وقد تستطيع أن تقدم نموذجا لمؤسسات إسلامية في ظل نظم غير إسلامية مما يمكن أن يفتح عيون غير المسلمين على مرونة الإسلام في التعامل مع الغير، وقد نجح ذلك في دخول عديد من الأفراد في الإسلام عقيدة والتزاماً.

الحركة الإسلامية في فلسطين

كان الإسلام وما زال العامل الأساسي إن لم يكن الأوحد في التصدي للصهيونية التي بدأت منذ اواخر القرن التاسع عشر العمل الحثيث على إقامة الدولة اليهودية في فلسطين، وقد اتخذت دولة الخلافة العثمانية موقفا حازما في رفض المطلب اليهودي بل في رفض السماح لأعداد محدودة من يهود أوروبا بالهجرة إلى فلسطين، وعندما اشتد النشاط اليهودي بعد المؤتمر الصهيوني الذي عقد في بازل السويسرية عام1897، أكدت دولة الخلافة العثمانية على موقفها السابق في رفض المطلب اليهودي من أساسه، وعلى الرغم مما عانته الدولة العثمانية من ضعف نتيجة تآلب الدول الأوروبية عليها إلا أن السلطان عبد الحميد رفض بشدة الخضوع للضغوطات الأوروبية والإغراءات اليهودية بالسماح لليهود بالتسلل إلى فلسطين ورفض وساطة حليفه قيصر المانيا الذي أغراه بعرض اليهود تسديد جميع ديون الدولة العثمانية التي كانت تثقل كاهلها بل وعدوه بمنحة مالية سخية فوق تسديد ديون الدولة، وكانت حجته في ذلك أن أرض فلسطين وقف إسلامي مقدس منذ فتحت على عهد الخليفة عمر بن الخطاب ولن يكتب على نفسه التفريط بهذا الوقف المقدس الغالي، بل لقد وافق على أن يمنح اليهود اختيار أي موقع في الامبراطورية العثمانية في آسيا أو افريقيا، سوى أي موقع من الارض الفلسطينية، بل لقد أجاب الوفد المفاوض بعبارة لم يسجل التاريخ لزعيم عربي من بعده مثلها إذ قال: "إنني أعلم أن جميع القوى الأوروبية المؤيدة لليهود تسعى لتحطيم الدولة العثمانية ولن أقبل أن يكون بقائي أو بقاء الدولة مقابل التسليم بالأرض

الفلسطينية وبإمكانكم إذا زال ملكي أو تفككت دولتنا ان تحققوا مأربكم وأبرأ فى ذلك أمام الله والأمة الإسلامية" .

لقد بقيت المسألة الفلسطينية همّا إسلامياً منذ إسراء الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى موقع المسجد الأقصى في القدس، وسجل القرآن الكريم ارتباط الأمة الإسلامية بأرض الأقصى في سورة الإسراء التي ستبقى في قلب كل مسلم ولسانه، وعندما تفككت الخلافة الإسلامية عقب الحرب العالمية الأولى دخلت فلسطين مثل سائر أوطان المسلمين فترة سيطرة القومية التي لم تصمد في وجه الانقسام الاقليمي القطرى بعد فشل التجربة القومية العربية، وهكذا لم تعد القضية الفلسطينية قضية إسلامية ولا حتى عربية وإنما هي قضية محلية فلسطينية فحسب، وساهمت نشأة الحركة الفلسطينية بعد احتلال اليهود لفلسطين عام 1948 بالتأكيد على الإقليمية الفلسطينية في إطار الكفاح ضد الاحتلال اليهودي، وكان لنشأة حركة فتح عام1964 في الكويت العامل الأكثر أثرا في سحب القضية الفلسطينية من إطارها الإسلامي بل والعربي، وقد ذكرت في كتابي (ستون عاما – ذكريات في العمل الإسلامي) كيف رفضَت فتح أسلمة الكفاح الفلسطيني والإصرار على الأقلمة الفلسطينية مما دفع مجموعة حاولت إقامة تنظيم كفاحي إسلامي إلى الاعتزال وترك الميدان لحركة فتح، وقامت خلال فترة الستينيات حركات كفاحية أخرى من أجل تحرير فلسطين وارتبطت كل منها إما بدولة من الدول العربية أو انبثقت من أحد التوجهات السياسية التي غصت بها الساحه العربية من يسار إلى يمين، وكل منها انقسم إلى فروع أخرى متباينة ومتشاحنة ومدعية، وعملت منظمة التحرير الفلسطينية على تنصيب نفسها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني مما نتج عن ذلك قطع الأردن علاقتها نهائيا عن مسؤوليتها عن الضفة الغربية التي بقيت ما بين سنتي 48 و 67 تحت إدارتها ومسؤوليتها، وأيدت جامعة الدول العربية قطع الأردن علاقتها بالضفة لتتحمل المسؤولية كاملة منظمة التحرير الفلسطينية، ثم أوغلت قيادة ياسر عرفات

للمنظمة على مزيد من الأقلمة التي استطاع من خلالها أخذ لقب رئيس دولة فلسطين كدولة ورقية بلا أرض ولا سلطان، ووافقت الدولة اليهودية على السماح له بمبنى في مدينة رام الله الفلسطينية ليكون مقرا لهذه الحكومة العجيبة التي أصبح لها وزراء وألقاب وعلم وتمثيل دولي محدود، واستطاع عرفات وقيادته أن يدخل في اتفاق مع اليهود تحت رعاية الرئيس الامريكي، وأصبح لمندوبه مقعد في هيئة الأمم المتحدة كمراقب، وهكذا اصبحت الدولة الفلسطينية عجلة دائرة في ضمن منظومة الأمم المتحدة التي تقوم على أساس فض المنازعات الدولية ومنها النزاع الاسرائيلي الفلسطيني بالطرق السلمية والتفاوض، مع تحريم اللجوء إلى العنف أو أي نوع من الكفاح المسلح. وسخرت الشرطة الفلسطينية التابعة لمنظمة التحرير أداة في يد الدولة اليهودية تلاحق أي فلسطيني يخرج عن مسار الاتفاقات المذلة بين المنظمة ودولة اسرائيل وتتابعت الدول العربية المجاورة لفلسطين التي أصبحت دولة اسرائيل إلى الانضمام إلى الحلف الفلسطيني اليهودي الباحث عن السلام العبثي مع اليهود على الرغم من استمرار دولة اليهود باقامة المستوطنات على ارض الضفة الغربية وملاحقة كل من تسول له نفسه التمرد على الدولة اليهودية بأى شكل.

إن هذا الوضع المذل لأهل فلسطين سواء من كانوا في الجزء المحتل عام 48 أو فى الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين من قبل اليهود عام 67 جعل الفلسطينيين يبحثون عن بديل للوضع الذي ورطتهم فيه القيادات الفلسطينية على مدى الفترة من 48 إلى ثمانينيات القرن العشرين، لقد كانت جماعة الإخوان المسلمين في فلسطين قبل 48 وفى الضفة الغربية قبل 67 جزءا من تنظيم الاخوان في الأردن، وبعد احتلال عام67 لم يعد لحركة الاخوان في الضفة علاقة بتنظيم الحركة في الأردن كما لم يعد لهم في غزة ارتباط بحركة الاخوان في مصر، في ظل هذا الوضع شرع نفر من المتصدين للعمل الإسلامي في غزة والضفة على الرغم من

تسلط اليهود، بالتحرك لإقامة بديل عن حركة فتح التي أصبحت جناحا رئيسا في منظمة التحرير، وهكذا ولدت حركة المقاومة الإسلامية ؛ حماس.

لقد كان الجسم الرئيس لحركة حماس من عناصر الإخوان المسلمين في غزة والضفة الغربية، ونشأت كذلك منظمات وطنية وإسلامية غيرها من أبرزها حركة الجهاد الإسلامي، وساهمت هذه الحركات كلها في إعادة بعث الاتجاه نحو مقاومة الاحتلال اليهودي فى فلسطين وفي اى موقع فيها.

لقد فهم المراقبون سواء في الوطن العربي أو الدول الاجنبية الأخرى أن حركات التحرير الجديدة التي نشأت في ثمانينيات القرن العشرين إنما استمدت قوتها وكينونتها من العناصر الإسلامية فى المنطقة، وألصقوا حماس بحركة الاخوان أو بالعناصر الإسلامية الأخرى، وهكذا وضعت القوى العالمية الرافضة لمبدأ ممارسة التحرير بالقوة هذه الحركات مع الحركات الإسلامية في موقع اتهام واحد لكل منهم بالارهاب والتطرف، ثم توسعوا في تعميم صفة الإرهاب على كل ما هو إسلامي وبخاصة اذا كان له أدنى صلة بالتحرر أو بأي نشاط سياسي، وعدّت بعض الدول الإقليمية نفسها على نفس الخط مع دولة اليهود من حيث معاداة الإسلام السياسي والحركي من أي نوع، وأصبحت تقيم الحجج والمبررات أن الدين لا يعدو أن يكون عبادة وسلوكا أخلاقيا محدودا، وأن أي تجاوز على ذلك سيكون إرهابا وتطرفا تجب محاربته والقضاء عليه.

بعد دخول منظمة التحرير في اتفاقاتها المتتالية التي صبت كلها في مصلحة الدولة اليهودية أصاب حركات التحرير الفلسطينية الأخرى من قومية أو اقليمية، يسارية أو يمينية حالة من اليأس بعد أن أصبحت كبرى الحركات فتح ذراعا بيد قيادة السلطة الفلسطينية ودخلت معظم الحركات في حالة سبات عميقة توشك أن تصل إلى مستوى الموت.

لقد نجحت حركات المقاومة الإسلامية؛ حماس والجهاد في تنفيذ عدد من العمليات داخل الدولة اليهودية آلمت اليهود إيلاماً شديداً بقدر ما بعثت في الجسم

الفلسطيني نوعا من اليقظة والامل، وانعكس ذلك على أول انتخابات سياسية تجرى في الضفة والقطاع عن نجاح غير متوقع للمرشحين الإسلاميين في الانتخابات التي قادت إلى تشكيل مجلس تشريعي وحكومة وحدة وطنية للاسلاميين فيها موقع متميز، إن هذه النتائج لم ترض طرفين مهمين في المعادلة السياسية الفلسطينية هما دولة اسرائيل ودولة منظمة التحرير الفلسطينية، وهكذا دخلت حماس ومعها معظم الإسلاميين في فلسطين في صراع دخل أحيانا حد المحاربة بين حماس وبين فتح ومعها منظمة التحرير، وخرج هذا الخلاف الفلسطيني الفلسطيني ليشمل الدول في المنطقة التي ترتبط كل منها بأحد هذين الفريقين، وامتد الخلاف ليشمل كل الحركات الإسلامية التي وضعت في نظر الفريق الرافض لحماس في نفس المعسكر المرفوض من قبلها والمتهم بالخروج على الاكثرية العربية التي باركت الخط الفلسطيني الباحث عن الوجود في ظل الهيمنة اليهودية والامريكية والأممية تحت ستار تحقيق السلام بين اسرائيل والفلسطينيين، وأن من سواهم من التنظيمات الإسلامية إنما هم متطرفون وإرهابيون تستحل دماؤهم ويسعى لتصيفتهم.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد حاول كثير من الوسطاء العرب توحيد الصف الفلسطيني بعقد مصالحة بين الاتجاه القومي الاقليمي بقيادة فتح والاتجاه الإسلامي بقيادة حماس وتم عقد سبع اتفاقات ما بين سنة 2007 إلى سنة 2018 على النحو التالي:

اتفاق مكة 2007، اتفاق الورقة المصرية 2009، اتفاق القاهرة2011، اتفاق الدوحة 2012، اتفاق الشاطئ 2014، اتفاق القاهرة 2017، مشروع الاتفاق تحت الرعاية المصرية 2018، والذي ما زالت تحت نار الطبخ.

جميع الاتفاقات السابقة انهارت وتلاشت بعضها بعد أيام من توقيعها وبعضها بعد أكثر من ذلك.

الخطر الخفي على حركات المقاومة الإسلامية

أعتقد أن أخطر ما يهدد حركات المقاومة الإسلامية ، ليس خلافها مع منظمة التحرير الفلسطينية ولا تهمة الإرهاب، ولا تخلي الأنظمة العربية وغيرها عن الاعتراف بهذه الحركات، فإن كل هذه العناصر وأمثالها هو أمر طبيعي في النظر إلى حركات المقاومة، إن أخطر ما يهدد حركات المقاومة الإسلامية للاحتلال اليهودي هو تحول هذه الحركات إلى ما آلت إليه حركة فتح من حركة مقاومة إلى سلطة سياسية على غرار أنظمة الحكم العربية المعاصرة ، وقناعتها بألقاب السلطة واعتراف الدول الأخرى بها على أساس أنها أصبحت كيانا سياسيا يلتزم بكل ما تصدره المنظمات الدولية كالأمم المتحدة وتفرعاتها.

إن انزلاق حركات المقاومة الإسلامية إلى خداع السلطة واعتراف الدول والمنظمات الأخرى بهذه الحركات، وما ينتج عن ذلك من وضع الحركات في مصاف أنظمة الحكم القائم، سوف يؤدي إلى نتائج كارثية على حركات المقاومة الإسلامية أهمها ذوبانها في الصراع على الحكم مع النظم الأخرى وبخاصة منظمة التحرير الفلسطينية، والمصيبة الأخرى هو وقوع الهوة بين هذه الحركات وقواعدها الشعبية سواءا من أهل فلسطين أو غيرهم من أبناء الأمة العربية والإسلامية، مما سيؤدي بالنهاية إلى إغلاق هذه الحركات وزوالها أو تحولها إلى خصم للأمة على غرار من كان قبلها .

مسألة التطرف والارهاب

أكد الإسلام منذ بعثة رسوله صلى الله عليه وسلم على عدم المبالغة في أي من أمور الدين حتى في عبادة الله كالصلاة والصوم، وأكدت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية على هذا المبدأ، فمثلا عبادة الصوم التي يمكن أن يكون في ممارستها شيئ من العنت أكدت الآيات الخاصة بها على مبدأ التيسير والبعد عن الصعوبات المهلكة فقال تعالى:" يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" (البقرة 185) ومنع الإسلام كل اشكال المبالغة، فعندما ذكر له أشخاص يواصلون الصيام نهارا والصلاة ليلا ويحرمون على أنفسهم العلاقة الحميمية بين الرجال والنساء قال الرسول صلى الله عليه وسلم : ألا إني أصوم وأفطر وأقوم وأرقد وأتزوج فمن رغب عن سنتي فليس مني، أما في العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى فقد أمر بالرفق في دعوتهم إلى الدين وعدم إيذائهم بانتقاصهم أو بانتقاص مقدساتهم فقال تعالى:"ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله" (الانعام108).

حتى في المنازعات التي قد تصل إلى الحرب بين المسلمين وغيرهم أكد الإسلام على عدم المبالغة والوقوف عند حد مقاومة الاعتداء:"وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين."(البقرة 190) ومنع الإسلام أن تستغل حالة الحرب بين المسلمين وأعدائهم في الاعتداء على غير المقاتلين (المدنيين) ولا على مصادر المعيشة ولا على البيئة، ولعل وصية ابى بكر الخليفة الاول للجيوش الإسلامية تمثل أرقى وأرق ما يمكن أن يسمى بالحرب النظيفة التي ما زالت الجيوش المتحاربة حتى اليوم عاجزة عن بلوغ أهداف هذه الوصية الانسانية الرائعة: قال ابو بكر رضي الله عنه: ايها الناس قفوا؛ أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا امرأة، ولا شيخاً كبيراً، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا

تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها طعام فاذا أكلتم منها شيئا فاذكرو اسم الله عليها"إن هذه المبادئ التي وضعت لحالة الحرب قبل خمسة عشر قرنا ستبقى نبراسا لكل أمة متقدمة، فاقت كل ما تدعيه منظمات المحافظة على المدنيين في حالة الحرب أو حتى منظمات حقوق الانسان أوقات السلم والحرب.

إذا كانت هذه هي مبادئ الإسلام فمن أين وصلت بعض المجتمعات أو المؤسسات أو المنظمات التي تزعم لنفسها أنها إسلامية إلى ممارسة أي نوع من التطرف أو القسوة في معاملة الغير سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين.

إن تتبع الأوضاع الراهنة لهذه التهم التي يحاول أعداء الإسلام إلصاقها بالإسلام ترجع إلى الأحداث التي نزلت بالمسلمين بعد زوال الخلافة الإسلامية والتي أدت الى ردود فعل في مقابلة الظلم الذي مورس على معظم الشعوب الاسلامية من قبل الدول الاستعمارية او النظم العميلة لها، وتضمنت هذه الممارسات انواعا من إرهاب تلك الدول على هذه الشعوب المستضعفة التي أرهقتها وآلمتها قوى البغي والعدوان.

وفيما يلي استعراض موجز لردود فعل عناصر من أبناء المسلمين بعد أن عجزوا عن مقاومة قوى العدوان :

نماذج من ردود الفعل ضد قوى الظلم والعدوان :

تمتعت الأمة الإسلامية منذ فجر الإسلام وعبر التاريخ بقوة المجتمع المسلم وعدم وقوعه تحت أي قوة خارجية حتى في حال انقسامه إلى دول متعددة أحيانا باستثناء فترة الغزو المغولي والغزو الصليبي قبل عشرة قرون تقريبا. وبعد أن تخلصت الأمة الإسلامية من فترتي الاحتلال المغولي والصليبي عادت أوضاع الأمة الإسلامية إلى ما كانت عليه من القوة الذاتية والتحرر من تسلط الاحتلال، وبقي الأمر كذلك على الرغم مما كان يصيب الأمة من حالات فرقة أو ضعف، إلى أن عادت الحملات الصليبية الحديثة إلى ديار الإسلام واحتلت معظم أرجاء الوطن الإسلامي وقسمته إلى غنائم ومستعمرات للدول الأوروبية بما عرف بالاستعمار الحديث.

ونشأت حركات مناهضة للاستعمار الغربي الحديث في معظم أرجاء العالم الإسلامي من أقصى شرقه في إندونيسيا إلى أقصى المغرب في شمال إفريقيا وداخلها، لقد مارست سلطات الاستعمار الاوربي أقسى وأشرس أنواع القتل والتشريد والاغتصاب، والتغيير الديموغرافي للمناطق التي احتلتها، وزورت التاريخ الانساني في جميع أرجاء أوطان المسلمين، وحسبنا الاشارة إلى بعض الأمثلة لا يملك من يستعرضها إلا أن يصب اللعنة على تلك القوى الاستعمارية.

المثال الاول: فلسطين تحت الاحتلال البريطاني ثم اليهودي

حين أصدرت بريطانيا وعدها لليهود بارض فلسطين وبعد احتلالها لفسطين عام 1921 بدأت سيول المهاجرين اليهود من كل أصقاع الأرض بالهجرة إليها وإقامة دولتهم على أرضها غير عابئة بما سوف يصيب أهلها من قتل أو تشريد، وعملت السلطات الاستعمارية خلال فترة احتلالها لفلسطين من سنة 1921 إلى سنة 1947 على ممارسة كل أنواع البطش ضد كل فلسطيني حاول التصدي

للمهاجرين اليهود، ولطالما نصبت المشانق لشباب المقاومة الفلسطينية لامتلاك أحدهم سكيناً مما يستعمل في المطابخ بحجة أنه يشكل خطرا على البريطانيين المحتلين أو على المهاجرين اليهود الذين مكنوهم من ادخال كل أنواع السلاح، وعندما حان الوقت لإنجاز وعدهم المشؤوم كانت العصابات اليهودية القادمة من أوروبا الشرقية والغربية تشكل قوة عسكرية تفوقت على جميع قوات الدول العربية المجاورة لفلسطين والتي كانت تحت الانتداب البريطاني أو الفرنسي.

ماذا يمكن للانسان المقهور المطرود من أرضه المعتدى عليه بكل انواع الاعتداء المجرم، المحروم من امتلاك ادنى سلاح قادر على التصدي، ان يفعل إزاء هذا الطغيان الاجرامي إلا أن يلجأ إلى كل أنواع التصدي والمقاومة سرية كانت أو علنية، وهل يطلب من هذا الانسان المقهور أن يكتفي بألين أنواع الاحتجاج وأن يربت على كتف قاتله ومحتله وغاصبه وأن يبتسم في وجهه لعله يمنحه الرضا وهو يقتله ويشرده ويأخذ بيته وماله ويعتدي على عرضه وحاضره ومستقبله؟.

إنه بعد تشريد أكثر من ثلاثة أرباع سكان فلسطين إلى كل صقع ليصبحوا لاجئين في مخيمات الذل والهوان حفر في قلوب آلاف المسلمين في كل أرجاء الأرض آلاماً مبرحة وولّد رغبة جامحة في الانتقام من كل القوى الباغية على أرض فلسطين التي لا يستطيع مسلم أيا كان موطنه إلا أن يشعر بقدر من المسؤولية تجاه هذه القضية، وطالما أنه لم يستطيع أن يكون جنديا في جيش نظامي يقود حملة استعادة فلسطين فأنه يرى انه لزاما عليه أن يفعل كل ما يمكنه إما على الصعيد الفردي أو من خلال انضمامه إلى أي تنظيم يتبنى مبدأ استعادة فلسطين، وان لم يمكن استعادتها فالانتقام والتنكيل بكل عنصر هاجر اليها واحتل شبرا من ارضها وأسهم في تشريد اهلها.

إن التعبير عن الاحباط واليأس مما وصلت إليه أحوال أهل فلسطين يبرر أي عمل لتخليصها أو لمعاقبة من شرد أهلها أو أسهم في تشريدهم، وهكذا وضعت وصمة الإرهاب على كل من حاول بذل أي جهد من أجل فلسطين، وساعد هذا

الوضع على خروج تنظيمات في أكثر من موقع من ديار الإسلام لأن كل مسلم أيا كان موطنه يرى أن فلسطين لا تقل منزلة في نفسه عن بلده التي ولد ونشأ فيها.

المثال الثاني: شمال افريقيا تحت الاحتلال الفرنسي

كانت الجزائر أول مناطق شمال افريقيا التي احتلتها فرنسا احتلالا مباشرا، ونقلت اليها آلافا من المستوطنين الفرنسيين، وأصدرت فرنسا قرارا يقضي بأن أرض الجزائر إنما هي جزء من الوطن الفرنسي، وأن أي اعتداء على القوى العسكرية لفرنسا على أرض الجزائر هو اعتداء على الأرض الفرنسية، وألغت فرنسا تاريخ أربعة عشر قرنا من إسلام الجزائر وعروبة أهلها، وحاربت اللغة العربية والإسلام في الجزائر لتكون المرحلة الأولى لضم بقية أقطار المغرب العربي إلى الكذب على التاريخ والجغرافيا، وقدمت الجزائر في مقاومتها للاحتلال الفرنسي أكثر من مليون شهيد حتى استطاعت إنهاء الاحتلال الفرنسي، وخرجت فرنسا من الجزائر ثم من كل الشمال الافريقي بعد سنين من المقاومة وآلاف الشهداء. فهل يستطيع لائم أن يصم مقاومة الاحتلال بالتطرف أو الارهاب؟ وهل يستطيع الجزائريون وغيرهم من أهل المغرب العربي أن يمحوا من ذاكرتهم صور ملايين الشهداء الذين بطش بهم جيش فرنسا المتحضرة المتمدنة التي أصبحت تدافع بعد ذلك عن حقوق الانسان، وهي من دمرت الإنسان وصبت كل أنواع البطش والبغي على الانسان الرافض لاحتلالها أرضه وقتلها لأبنائه وبناته.

إن ذاكرة الشعوب لا يمكن محوها بهذه السهولة والسرعة وإن قيام حركات ومنظمات تطرفت في المقاومة ثم في التشفي والانتقام لا يمكن أن يوضع في نفس المستوى لإرهاب الدول الاستعمارية وبطشها.

المثال الثالث: اندونيسيا تحت الاحتلال الهولندي

لم تستطع هولندا البلد الصغير في أرضه وسكانه أن تحصل على قسم من كعكة الأقطار الإسلامية المقسمة بين أقوى دولتين في نهايه القرن التاسع عشر وهما بريطانيا و فرنسا، وشرعت تبحث عن بقية من أرض الأمة الإسلامية، استطاعت هولندا أن تصل إلى اندونيسيا التي كان يسكنها آنذاك شعب مسلم ومسالم لم يحسب حسابا قط لجيش يأتيه من بُعد يزيد على عشرة آلاف كيلو متر، وهكذا وقعت اندونيسيا المسلمة في قبضة الهولنديين، وعندما هبت رياح المقاومة للاحتلال الهولندي مارست هولندا مثل سائر الدول الاستعمارية أقسى أواع البطش والتنكيل على شعب اندونيسيا والمقاومة فيها، ولم تخرج هولندا من اندونيسيا إلا بعد أن قتلت آلاف الشباب الاندونيسيين وأفقرت شعب إندونيسيا ونهبت خيراته وثرواته وحاولت القضاء على الإسلام بتنظيم حملات تنصيرية مكثفة، إلا أن عمق إيمان الإندونيسيين بدينهم حال دون نجاح محاولات التنصير الهولندية إلا في أضيق الحدود وتركت هولندا إثر انسحابها بثورا صغيرة لتجمعات نصرانية تمكنت إحداها بعد الاستقلال بمساعدة الدول الغربية في أوروبا وأمريكا من إقامة دولة مسيحية ضمن اندونيسيا تحت اسم تيمور.

فهل يلام الشعب الإندونيسي اذا لم يستطع أن يمحو من ذاكرته ما أصابه من قتل وبطش على يد قوم بينه وبينهم ما بين المشرق والمغرب وأن تحرك هذه الذاكرة المؤلمة عناصر من الشعب الاندونيسي يصعب إحصاؤها تعمل ما استطاعت لمحو آثار القهر والذل الذي أصاب هذا الشعب المسالم على يد احتلال لا يمكن تبرير فعله ولا قبوله.

المثال الرابع: مسلمي وسط آسيا والاحتلال الروسي

منذ قيام الدولة العثمانية إلى حين زوالها كانت علاقتها مع روسيا علاقة صراع وحرب، إذ فرضت روسيا القيصرية سيطرتها على المناطق الإسلامية وسط آسيا، وقد قتلت روسيا الآلاف من المسلمين ونفت الملايين إلى سيبيريا بهدف تصفيتهم. وإبان الثورة الشيوعية وعدت الثورة بمنح المناطق الإسلامية استقلالها، إلا أنه بعد نجاح الثورة الشيوعية لم تزد الدولة الجديدة إلا في قسوتها وبالغت في مزيد من التهجير لسكانها المسلمين إلى سيبيريا، وما زالت روسيا حتى اليوم وبعد زوال الحكم الشيوعي أشد قسوة في استعمارها للمناطق الإسلامية في وسط اسيا.

المثال الخامس: مسلموا الصين وميانمار (بورما)

احتلت الصين الجزء الشرقي من تركستان في القرن الثامن عشر، وعندما تحولت الصين إلى الشيوعية بعد نشوء الاتحاد السوفييتي وعدت في بداية الأمر أن تخفف من ضغطها على الجزء الذي احتلته من تركستان.

إلا أنه عندما قاد ماو تسي تونغ الصين أواخر خمسينات القرن الماضي شدت الحكومة الصينية قبضتها على كل المسلمين الذين كانوا تحت الحكم الصيني بحجة توحيد الشعوب الصينية ثقافيا وفكريا، وشرعت بمحاربة الإسلام على أساس أنه أكثر أيديولوجية تشكل خطرا على الفكر الشيوعي.

وعلى الرغم من انتهاء الثورة الثقافية بعد موت ماو تسي تونغ في القرن الماضي إلا أن الصين الحديثة التي لا تفتأ تنادي بحرية الاعتقاد تحولت إلى أقسى مما كانت عليه زمن ماو تسي تونغ، وشرعت في شن حملة بمنتهى القسوة على المسلمين ومنعتهم من ممارسة شعائر دينهم، وأغلقت المساجد بل أمعنت في قتل وسجن كل من عرف عنه تمسكه بالإسلام، بحجة مقاومة الإرهاب، وقد لا نغالي إذا قلنا أن تعسف الصين ضد الأقلية التركستانية المسلمة المعروفة بالإيغور تعد من أقسى أساليب الاضطهاد العنصري والديني، وتتوالى الأخبار أن السجون في

الصين التي أقيمت تحت ستار إعادة التأهيل لإعداد الثقافة الصينية وهم (مسلموا الإيغور) يتجاوز المسجونين فيها الملايين، ولا تتحدث الهيئات الدولية المدافعة عن الإنسانية، ولا أي من الحكومات العربية بل ولا الإسلامية حركت ساكنا في رفض هذا الظلم والعسف الصيني العنصري.

وقد تبعت ميانمار البوذية النهج الصيني، وقتلت مئات الألوف وشردت كل المسلمين الذي عاشوا منذ مئات السنين في ذلك القطر، وقاد حملات الإبادة وهتك الأعراض وحرق قرى وبلدات على أهلها رهبان البوذية رجالا ونساءا ، كل ذلك تحت سمع وبصر هيئة الأمم ومؤسسات رعاية حقوق الإنسان فيها في القرن الحادي والعشرين، وتحت سمع وبصر الدول العربية والإسلامية وصمت العالم كله ، فهل يلام هؤلاء المشردون المضطهدون إذا سلكوا كل طريق مهما كان رسمه أو اسمه في الإنتقام من قاتليهم ؟.

المثال السادس: مذابح مسلمي البوسنة

على الرغم من تصاعد الحملات العالمية عبر منظمات هيئة الأمم المتحدة وغيرها للدفاع عن حقوق الإنسان، وإدانة العنصرية او العصبيات التي تدعو إلى الاعتداء واضطهاد الأقليات الدينية أو الإثنية وبخاصة في أوروبا وأمريكا التي نصبت نفسها حامية لحقوق الإنسان وحماية الأقليات في القرن الحادي والعشرين، وتحت سمع وبصر كل شعوب العالم شن الصرب حملات إبادة على مسلمي البوسنة والهرسك.

ومع أن الأمم المتحدة شكلت قوة عسكرية لحماية الأقليات في يوغوسلافيا فقد ذبح المتعصبون المسيحيون مئات الألوف من مسلمي البوسنة والهرسك ، وجنود الأمم المتحدة ترى وتسمع ولا تحرك ساكنا ولا تتحرك أي دولة من الدول المسيحية التي جندت جنودها في تشكيلات الأمم المتحدة . إلى أن اكتملت المذبحة وقتل مئات

الألوف من الرجال والأطفال والنساء، وهتكت الأعراض وأحرقت المنازل وشرد من بقي حيا ، عندها قررت الأمم المتحدة الاكتفاء بهذا القدر من الذبح والهتك والتشريد، وقدم بعض قادة المذابح للمحكمة الدولية على جرائمهم وختم على تلك الحقبة المؤلمة المخيفة بمهزلة المحكمة الدولية التي لم يتعد الماثلون أمامها عدد أصابع اليد، أما القوى الباغية الوالغة في دماء المسلمين فقد تربعوا على عروشهم الجديدة.

فهل يلام أحد ممن أصيب في هذه المذابح التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا لقبحها وقسوتها، إذ لم يستطع أي من أبناء وأحفاد المذبوحين أن ينسى مصيبة قومه وهو يرى في كل يوم قبور الآلاف من أسلافه وأهله تشهد على قسوة المسيحية والعنصرية الأوروبية المعاصرة التي ختم بها القرن العشرون؟!

العامل الثاني لنشأة التطرف: الحكم الفردي والاستبدادي

لقد نجم عن نجاح الاستعمار الاوروبي في القضاء على الخلافة الإسلامية اقامة دول وحكومات تحت ظل وسيطرة الدول الأوروبية في العالم الإسلامي ومنه المنطقة العربية في آسيا وافريقيا وسائر ارجاء الوطن الإسلامي.

وبما أن هذه الدول والحكومات كانت تحت إمرة وسلطان الدول الأوروبية فقد وقفت منها شعوب المنطقة موقف الرفض، لا سيما بعد فشل هذه الدول في المحافظة على أرض فلسطين إلى أن اقيمت عليها الدولة اليهودية وبعد أن فشلت هذه الدول في تحقيق أدنى مستوى من التوحد والاتفاق فيما بينها.
وفي ظل تأييد الدول الغربية لأنظمة الحكم الفردي، لم يكن للمظاهر الديمقراطية الزائفة أي أثر في إحداث تغيير ذي بال في دول المنطقة لا من الناحية السياسية ولا الاجتماعية بل لقد أدت سيطرة هذا الأنموذج الهجين في الحكم إلى تخريب

البنى الاساسية للأوطان وتدهور قدراتها ومواردها الزراعية والصناعية وأصبحت أسوأ نموذج للدول المتخلفة التي لا تُحسن إلا الاستهلاك والانفاق غير المبرر، لا سيما بعد تفجر النفط في معظم هذه الدول، وزيادة عائداتها من عوائده، وعجزت هذه الدول في معظمها على الرغم من الثروات الهائلة من عائدات النفط عن تحسين مستوى المعيشة لأبناء الوطن العربي، سوى بعض المناطق المحدودة التي دخلت خزائنها ثروات تكفي لأضعاف سكانها ولكنها نجحت فقط في كنز الأموال الطائلة داخل بلادها أحيانا وفي الخارج غالبا، وبالغ الحكام في جمع ثروات لا يستطيعون ولا يستطيع خلَفُهم ولو بعد ألف سنة أن ينفقوها لضمان معيشتهم.

إن هذا الوضع مع زيادة قبضة الحكام على مقاليد الأمور كلها لم يدَع لأي فئة أي خيار فى تحقيق اصلاحها لهذه الاوضاع التي يرفضها كل دين ويعارضها كل منطق سياسي، لم يدَع لهم هذا الوضع سوى اللجوء إلى مقارعة النظم بالطرق الخفية والتنظيمات السرية التي تحول بعضها بالتدريج إلى منظمات غير قادرة على ضبط أتباعها وعناصرها أو حملهم على سلوك نهج سلمي في إحداث التغييرات السياسية والاجتماعية والفكرية التي يتطلعون اليها.

لقد أصبح الناس في البلاد الإسلامية ومنها العربية في علاقتهم مع مصائب الاحتلال الاجنبي أو في علاقتهم مع أنظمة الحكم العميلة للأجنبي مثل رجل هاجمته عصابة من اللصوص وقطاع الطرق وأخذوا بيته وقتلوا أسرته وحالت قوتهم بينه وبين أي تفاهم معهم على ما تبقى من بقايا منزله وأسرته، ولم يعد بمقدوره إلا أن يصب عليهم ما بقي تحت يده من نار محرقة أو سم زعاف يستطيع أن يشفى نفسه بصبّه عليهم ولو أدى ذلك إلى إحراقهم ومن معهم سواءا شاركوهم أو كانوا ممن سكتوا على ظلمهم وطغيانهم.

إن أوضح مثال على ذلك أحوال فلسطين في ظل الانتهاك اليهودى لأرضها وسكانها، وعجز أبناء فلسطين عن أية مقاومة متكافئة بالقوة مع الجيش اليهودى، فهل يلام فلسطيني استطاع أن يصل إلى أي يهودي سكن منزله واستولى على

أرضه سواءا أكان هذا اليهودي الغاصب نفسه أو أي من ذريته الذين يصفهم الإعلام الغربي المعاصر بالمدنيين الأبرياء؟ إن المنطق الذي يسيطر على نفَس كل فلسطيني وعلى قلب كل مسلم وعربي أن كل يهودي دخل فلسطين إبان الحكم البريطاني في الفترة من 1921-1947 أو إبان الاحتلال اليهودي بعد عام 1948 وحتى هذه اللحظة إنما هو غاصب معتد، سواء هاجر إلى فلسطين أو كان من ذرية المهاجرين بعد الاحتلال البريطاني سنة 1921 وسواء أكان رجلا أو امرأة أو طفلا، مدنيا أو عسكريا، كاهنا أو ملحدا، أبيض اللون أو أسود أو أحمر، أي من اولئك وذرياتهم ولو امتد أمرهم ألف سنة هو غاصب معتد حلال الدم، وإن كل ما تحت أيديهم من مال أو متاع إنما هو مال مسروق منهوب يحق لأي أحد من أصحابه الاوائل أو ذرياتهم إلى ألف سنه أو تزيد استرجاع حقوقهم وأموالهم، وإعادة المحتلين إلى حيث أتوا وإن أبوا فليس لهم إلا التصفية.

إن وضع فلسطين وما آلت اليه ينطبق عليه قول الله تعالى: " ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم، وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة، أتخشونهم؛ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم" (سورة التوبة 13-14).

العامل الثالث للتطرف: خوف الأوروبيين من انتشار الإسلام

إن الدول الأوروبية لم تستطع أن تتخلص من الحقد الصليبي على الإسلام والأمة الإسلامية، ومع تزايد أعداد المهاجرين من المسلمين من الأقطار التي كانت مستعمرات للأوروبيين إلى الدول التي كانت تستعمرهم، تزايد خوف كثير من الأوربيين من زيادة أعداد المسلمين في بلادهم وبلغت توقعاتهم حد الاعتقاد بأن مستقبل بلادهم مهدد بالتحول إلى الإسلام لا سيما وأن الحياة المعاصرة لديهم أضعفت النمو السكاني لديهم بينما بقيت الشعوب الأخرى على مستوى أعلى في الإنجاب، وكان لطبيعة الإسلام الأقرب إلى الفطرة الإنسانية عامل آخر مهم لانتشار الإسلام بين أعداد متزايدة من السكان حول العالم سواءا في بلدان العالم المتقدم أو الأقل تقدما.

وتوجهت كثير من مواقع الدراسة في العالم المسيحي إلى إجراء دراسات معمقة لمقاومة ظاهرة انتشار الإسلام وتحذير عامة الشعوب المسيحية وغيرها من تفاقم أعداد المسلمين الذي قد يؤدي إلى انهيار حضارتهم وتراجع الثقافة القائمة على المسيحية، لقد وجدوا أنه لا بد من خلق حالة من الخوف من الإسلام حول العالم، وقد وجدوا أن في قيام الحركات والتنظيمات الإسلامية على اختلاف مناهجها وأهدافها ومنها مقاومة سيطرة الحضارة الغربية وتاريخ الغربيين في قسوتهم على الشعوب التي استعمروها فرصة في تصوير هذه التنظيمات على أنها تنظيمات تهدف إلى هدم الحضارة الغربية عن طريق أعمال العنف التي اتخذت بعض التنظيمات الإسلامية مسارها عندما لم تجد الوسائل السلمية فى مقاومة البغي الذى طبع علاقة الغرب المسيحي الرأسمالي والشيوعي في الاتحاد السوفيتي بأقسى أنواع التصدي للشعوب الواقعة تحت نفوذهم. وكان أفظع أمثلة الظلم والطيغان المعاصرة مثال فلسطين اولاً وبخاصة عندما قررت منظمة هيئة الامم المتحدة عام 1947 سلخ فلسطين من عروبتها وإسلامها وإقامة الدولة اليهودية

التى أدى قيامها إلى تشريد الشعب الفلسطيني من أرضه، ووضع كل مقاومة أو رفض للدولة اليهودية على قائمة اعمال التطرف والارهاب، وأن هؤلاء الارهابيين مؤَيَدون من كل المسلمين عبر العالم، مما جعلهم يصنفون الإسلام نفسه والأمة الإسلامية كلها على قائمة الإرهاب والتطرف، وبرروا أمام شعوبهم وشعوب العالم مقاومتهم لهذه الظاهرة الإرهابية حسب تصنيفهم. والمثال الثاني الذى استطاعت المجموعة الأوروبية استثماره هو وضع أفغانستان بعد احتلال قوات الاتحاد السوفييتي لهذا القطر الضعيف آنذاك الذي لم يستطع أهله الرافضون للاحتلال السوفييتي بعد تخلصهم من الاحتلال البريطاني قبله إلا مقاومة الجيوش الروسية وحلفاءها من العملاء الافغان بشن الحرب على الجيوش الغازية تحت شعار الجهاد الإسلامي الذي يرفض الاحتلال بكل اشكاله.

وقد استثمرت دول المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة هذا الوضع لإضعاف قوة الاتحاد السوفييتي، وعملت على مد المجاهدين الأفغان بالأسلحة والأموال، وانخدع المجاهدون الأفغان، وظنوا أن تأييد الغرب لهم إنما كان بدافع رفض الاحتلال السوفييتي ومن أجل استعادتهم لحريتهم واستقلالهم، واستطاعت قوى المقاومة الإسلامية إيقاع أفدح الخسائر العسكرية بقوات الاتحاد السوفييتي التى اضطرت أخيرا إلى الانسحاب من أفغانستان، وتحقق للقوى الأمريكية الأوروبية حلمها، وكانت هزيمة السوفييت مقدمة لانهيار النظام الشيوعي في روسيا وقيام حكم أقرب إلى النظام الراسمالي.

إن الحالة الأفغانية التى انتهت بخروج النظام السوفييتي قادت مباشرة إلى سيطرة الولايات المتحدة وحلفائها الاوروبيين على مقاليد الأمور في أفغانستان، وهكذا استبدل بالاحتلال السوفييتي احتلال أقسى وأفظع، ويبدو أنه أطول أمداً وهو الاحتلال الامريكي الاوروبي، وأصبح حلفاء الأمس من المجاهدين الأفغان أعداء اليوم، وهكذا نجح الغرب مرة اخرى في وضع الإسلام والمسلمين في افغانستان ومعهم كل الشعوب الإسلامية في قائمة الإرهاب طالما أنهم يقاومون الأمريكان

حماة الحرية والطاردين لمن سواهم من الدول المستعمرة والمحتلة. لقد وقعت كثير من الدول العربية والإسلامية تحت مظلة الغرب الامريكي الاوروبي الحديثة، وأصبحت جزءا من منظومة ما يسمى الآن بالعالم الحر الذي يقف في وجه التطرف الإسلامي والارهاب، وهكذا أصبح عدد من الدول التي يمكن أن تحسب على الإسلام جزءا من الحلف الغربي على الإسلام بحجة مقاومة التطرف والارهاب، لقد ساهمت بعض الحركات الإسلامية التى فسرت بعض نصوص القرآن الكريم أو السنة النبوية تفسيرا لفظيا بحدود النص من غير ربطها بالنصوص الأخرى إلى إضفاء الشرعية الدينية على منظمات حملت اسم الإسلامية وفق هذا المفهوم النصي المحدود، ومارست أنواعا من التعامل مع الأفراد أو الجماعات الإسلامية أو من غير المسلمين الذين عاشوا قرونا ضمن المجتمعات الإسلامية، مارسوا عليها ألوانا من الاضطهاد والعنف بحجة أنهم ضمن دائرة الكفر أو الفسق، واستباحوا بذلك دماءًا وأموالاً وأعراضاً، مما زاد من نفور غير المسلمين وكذلك بعض المسلمين من هذه المنظمات التى التصقت بالاسلام إسماً، وقد ذهب كثير ممن درسوا مبدأ نشأة هذه المنظمات وتمددها وسيطرتها على بعض أرجاء الوطن الإسلامي أن هذه المنظمات إنما هي من صنع دوائر النظام الامريكي الاوروبي ليزيد من كراهية المجتمعات الإنسانية في أرجاء الارض للإسلام والمسلمين، ونشر مستوى مخيف من بغض الإسلام والخوف منه لخلق مزيد من التبرير لحربهم على الإسلام والمسلمين.

إننى أعتقد، وكثير من أهل الإسلام يعتقدون أن هذه الأوضاع العجيبة التي سيطرت وولدت فجوة عميقة بين الإسلام دين السماحة والعدل والرحمة وبين سائر الخلق سوف تتلاشى وسوف ينتصر الإسلام الحق كما انتصر من قبل على الصليبية والمغولية. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الختام

وماذا بعد ؟!

قد تكون هذه الدراسة الفكرية نجحت أو لم تنجح في وضع اليد وإثارة الفكر على عدد من القضايا التي تشغل بال المواطن العربي وتؤرقه على مصير أمته ومستقبل ما تؤول إليه قضاياها السياسية والاجتماعية وأحوال أبنائها المعيشية .

لقد قلنا أن جميع الأنظمة العربية التي استحدثت بعد انتهاء الخلافة الإسلامية وتفكك دولتها قد فشلت في تحقيق أي مستوى يمكن أن يحسب لأي من هذه الأنظمة في أي مجال من المجالات الثلاثة التي حاولت الدراسة أن تحاكم هذه الأنظمة في ضوئها، كما عجزت عن تحقيق أي تقدم ذي بال في أي قطر حكمته تلك الأنظمة.

من المعلوم أن هذه المجالات التي تعرضت لها الدراسة تشمل

أولا: الوحدة العربية؛ التي تلاشت أو كادت على مذبح التشتت القومي أو الإقليمي القطري، الوحدة التي لم تنجح محاولات الأنظمة في ترقيعها عن طريق الجامعة العربية التي ولدت مخدرة ليس فيها أي أمل في تحقيق أي مستوى من التوحد أو حتى التقارب، بل إنها صنعت بالدرجة الأولى للإبقاء على التشرذم والتفرق، بل للتصدي لأي محاولة من أي جزء أو فصيل للسير نحو أي نوع من التوحد أو اختصار العدد الذي استمر في التفقيس من سبع إلى بضع وعشرين دولة، والذي نسأل الله أن لا يستمر في مهزلة المزيد من التفقيس إلى ما لا يعلم أحد إلا الله أين سيقف.

وثانيا: موقف الأنظمة من التشريعات والقوانين التي كان يؤمل أن تستمر هذه الأنظمة في تطوير التراث التشريعي والقانوني المستمد من الإسلام الذي لا

يستطيع أحد أن ينتقص من تفوقه وشموله وقدرته على تلبية احتياجات أي مجتمع إنساني، هذا المصدر الذي أثبت قدرته عبر خمسة عشر قرنا، إلا أن الأنظمة العربية المستحدثة لم تستطع أن تقف في وجه النفوذ الغربي الاستعماري في فرضه لتشريعات وقوانين وأنظمة تابعة لهذا النفوذ على الرغم انها لم تستطع تحقيق العدالة الاجتماعية ومحاسبة المسؤولين وتكافؤ الفرص ولا في إقامة نظام ليحكم في أي من هذه الدول يرقى إلى ما وصلت إليه أنظمة الحكم في الغرب من حيث تداول الحكم والانفلات من ربقة الحكم الفردي التوريثي الذي امتد حتى على النظم الجمهورية التي تأبى التأبيد أو التوريث.

ثالثا: القضية الفلسطينية؛ لقد ثبت لنا من خلال تتبع أولى فصولها من قبل وعد بلفور البريطاني وما بعده ، ومن خلال موافقة معظم مؤسسي الأنظمة العربية المستولدة إن لم يكن جميعها، أنهم قد أفصحوا أو على الإقل سكتوا عن الجهود الغربية البريطانية وغيرها على قيام الكيان اليهودي في فلسطين، مع العلم أن الدولة العثمانية –على الرغم مما كانت تعانيه من ضعف ومن تآمر جميع الدول الأوروبية عليها– قد رفض سلطانها وبشدة الخضوع أو الترغيب والرشوة للموافقة على قيام الدولة اليهودية بل رفض السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين. واكتملت المؤامرة الأوروبية على سلخ فلسطين عن محيطها العربي والإسلامي في قرار الأمم المتحدة عام 1947 بالموافقة على قيام الدولة اليهودية في فلسطين .
وعجزت وفشلت كل الأنظمة العربية حتى في المحافظة على الجزء المقرر للدولة الفلسطينية بموجب قرار الأمم المتحدة، وانهزمت جيوش كل الأنظمة العربية أمام مجموعات من العصابات اليهودية، وخرست كل الدول العربية وعجزت حتى عن الانسحاب ولو مؤقتا من هيئة الأمم المتحدة احتجاجا على قرارها الظالم والعدواني وفق كل مقاييس العدل وحقوق الإنسان أو في تحرير ما وقع من أوطانها من خارج فلسطين تحت الاحتلال، مثل جولان سوريا أو أرض خليج العقبة المصرية.

وأكملت الأنظمة العربية تخاذلها بل خيانة بعضها لهذه القضية في كارثة عام 1967 التي تمخضت عن سيطرة الدولة اليهودية على ما تبقى من فلسطين وفيه المسجد الأقصى ثالث الأماكن المقدسة في الإسلام ، وتطور التخاذل والانهزام حتى أصبحت معظم دول النظام العربي تتسابق في التقرب من النظام الصهيوني الغاصب لأوطاننا المستهتر بمقدساتنا.

هذا من حيث الأنظمة العربية المستحدثة منذ بداية القرن العشرين، أما عندما نستعرض القوى الشعبية في العالم العربي سواءا التي قامت على أساس النظام القومي أو الإقليمي القطري أو على أساس الإسلام السياسي والاجتماعي فقد رأينا أنها فشلت جميعها في قيادة الأمة للخروج من أي من مآزقها سواءا في تفكك الوحدة أو في العودة إلى التشريعات المنبثقة من تراثنا وثقافتنا وتاريخنا أو في تخليص أي جزء من أرض فلسطين أو من الأرض العربية خارجها من الاحتلال اليهودي ، بل قد عجزت جميع دول النظام العربي حتى عن المقاومة السلبية للكيان اليهودي عن طريق مقاطعته.

لقد أصبحت جميع الدول العربية ومن ورائها الآن بعض الدول الإسلامية تهرول نحو استرضاء اليهود والتمسح بهم ولعق العظمة التي تلوح بها لهم، أو خوف عصاها التي تهشهم بها.

بعد هذا كله ... ما هو المخرج ؟!

هل نأمل بالنظام العربي متمثلا بأي من دوله على اختلاف الأسماء والصفات؟

هل نأمل بالحركات القومية على اختلاف توجهاتها والتي تكاد تلفظ آخر أنفاسها ؟
هل نأمل بالتشكيلات السياسية كالأحزاب والهيئات والنقابات المحلية ، التي لا نجد أيا منها تخرج عن إرادة الحاكم بل لا تجرؤ على مخالفة إشاراته وهمهماته ؟
هل نأمل بالحركات الإسلامية على اختلاف أسمائها وأوطانها ؟

هل نأمل بها على رغم أن كثيرين يرون بها المنقذ والخيار الآخير.؟ ونحن نرى أنها عجزت عن أمرين مهمين في هذا المجال :

أولهما أنها عجزت عن صياغة مشروع شمولي يشتمل على الحل السياسي للحكم، واجتماعي لحل مشاكل الفقر، وتنموي لحل مشكلة التخلف التقني الصناعي والزراعي الذي حول الأمة العربية على اختلاف مناطقها إلى جماهير مستهلكة عاجزة عن استخراج حاجاتها من طعام ولباس وسلاح على الرغم من سعة مساحة أوطانها وكثرة أموالها .

وثانيهما أنها عجزت عن المحافظة على كيان كتلتها في أي موطن منها حتى أصبحت تقليدا للأنظمة السياسية في أوطانها بانقسامها وتشرذمها.

هل يعني كل ذلك أنه لا أمل لنا في مستقبل خير من حاضرنا ؟

لا أقول بذلك ، ولكني أقول: لعل الله يجعل في الجيل القادم خيرا من جيلنا وجيل آبائنا،

أسأل الله أن يجعل لنا من ذرياتنا قرة أعين وأن يأخذ بأيدي الأبناء والأحفاد ليصلحوا ما وجدوه فاسدا ويقيموا ما وجدوه معوجا وما ذلك على الله بعزيز، وأن لا نقع تحت التهديد الذي أعلنته الآية الكريمة التالية:

... وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.....

صدق الله العظيم